بناء البيت السعيد
في
ضوء الإسلام

تأليف: الدكتور مقداد يالجن

بناء البيت السعيد
في
ضوء الإسلام

مركز المرأة للدراسات والاستشارات
ت : ٢٤٤٦٠٢٢
ت.ف : ٢٤٤٦٠٣٣
ترخيص رقم : (٧١)

بناء البيت السعيد في ضوء الإسلام

تأليف : الدكتور مقداد يالجن

دار المريخ
الرياض - ص.ب : ١٠٧٢٠

طبعة ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م الرياض

دار المريخ للنشر

حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر

لا يجوز استنساخ أي جزء
من هذا الكتاب أو
اختزانه بأي وسيلة
إلا بإذن خطي من الناشر.

الفهرس الإجمالى

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
أسس بناء البيت السعيد الاسلامى السعيد	٩
أولا : ان يكون المقدم على بناء هذا البيت سعيدا فى نفسه	١١
ثانيا : حسن اختيار شريك الحياة	٢٥
ثالثا : قداسة الروابط بين أفراد البيت	٥٢
رابعا : القيم الأخلاقية الإسلامية	٥٥
الفصل الثانى	
مايجب ان تكون عليه اهداف بناء البيت الاسلامى السعيد	٥٩
أولا : تكوين رباط اجتماعى متين	٦١
ثانيا : تحقيق حاجات الطبيعة الانسانية	٦٣
ثالثا : تحقيق الوقاية من الأمراض والانحرافات	٦٥
رابعا : انجاب ذرية صالحة لبناء امة صالحة	٧٣
خامسا : تطبيق مبادىء اسلامية وسنة نبوية	٧٣
الفصل الثالث	
تنظيم حياة البيت السعيد إداريا وماليا واجتماعيا	٧٩
اولا : تنظيم الشئون الادارية	٨١
ثانيا : تنظيم الشئون المالية	٩٧
ثالثا : تنظيم العلاقات الزوجية	١٠٥
رابعا : تنظيم العلاقات الأبوية	١٢٠
خامسا : مبادىء تعامل أفراد البيت	١٨٩
سادسا : مظاهر الحياة فى البيت	١٩٣
سابعا : تنظيم العلاقات الجيرانية	٢٠١
تاسعا : المسئولية العامة عن نظام البيت	٢٠٩

الموضوع | الصفحة

الفصل الرابع

وسائل وطرق حل مشكلات البيت ٢١١
أولا : الموعظة الحسنة ودفع الاساءة بالاحسان ٢١٣
ثانيا : الزجر ٢١٧
ثالثا : الهجر ٢١٧
رابعا : العقاب ٢١٨
خامسا : الوساطة ٢١٨
سادسا : الطلاق ٢٢٠
سابعا : تفريق القاضي ٢٢٥
ثامنا : تعدد الزوجات ٢٢٦
تاسعا : وسيلة حل مشكلة تنظيم النسل ٢٣١
خاتمة ٢٤٥

الفهرس التفصيلى

المقدمة ٣

الفصل الأول

أسس بناء البيت الاسلامى السعيد ٩

أولا : أن يكون المقدم على بناء هذا البيت سعيدا فى نفسه ١١

(ا) مفهوم السعادة ١٢

(ب) شروط تحقيق السعادة ١٢

ثانيا : حسن اختيار شريك الحياة ٢٥

(ا) معايير حسن اختيار شريك الحياة ٢٦

(ب) صفات الزوجة الصالحة ٣٤

ثالثا : قداسة الروابط بين أفراد البيت ٥٢

رابعا : القيم الأخلاقية ٥٥

الفصل الثانى

مايجب أن تكون عليه أهداف بناء البيت الاسلامى السعيد ٥٩

أولا : تكوين رباط اجتماعى متين ٦١

ثانيا : تحقيق حاجات الطبيعة الانسانية ٦٣

ثالثا : تحقيق الوقاية من الأمراض والانحرافات ٦٥

رابعا : انجاب ذرية صالحة لبناء أمة صالحة ٧٣

خامسا : تطبيق مبادىء دينية وسنة نبوية ٧٣

الفصل الثالث

تنظيم حياة البيت السعيد اداريا وماليا واجتماعيا ٧٩

أولا : تنظيم الشئون الادارية ٨١

ثانيا : تنظيم الشئون المالية ٩٧

(ا) نظام النفقة ٩٧

(ب) نظام الارث ١٠٢

الموضوع	الصفحة

ثالثا : تنظيم العلاقات الزوجية ١٠٥

(ا) واجبات الزوج نحو زوجته ١٠٥

(ب) واجبات الزوجة نحو زوجها ١٠٩

رابعا : تنظيم العلاقات الأبوية ١٢٠

(ا) واجبات الآباء نحو الأبناء ١٢٠

(ب) واجبات الأبناء نحو الآباء ١٨٤

خامسا : مبادىء التعامل بين أفراد البيت ١٨٩

سادسا : مظاهر الحياة فى البيت الاسلامى ١٩٣

سابعا : تنظيم العلاقات الجيرانية ٢٠١

ثامنا : نظام حماية البيت من الاعتداءات ٢٠٦

تاسعا : المسئولية العامة عن نظام البيت ٢٠٩

الفصل الرابع

وسائل وطرق حل مشكلات البيت ٢١١

أولا : الموعظة الحسنة ودفع الاساءة بالاحسان ٢١٣

ثانيا : الزجر ٢١٧

ثالثا : الهجر ٢١٧

رابعا : العقاب ٢١٨

خامسا : الوساطة ٢١٨

سادسا : الطلاق ٢٢٠

سابعا : تفريق القاضى ٢٢٥

ثامنا : تعدد الزوجات ٢٢٦

تاسعا : وسيلة حل مشكلة تنظيم النسل ٢٣١

الخاتمة **٢٤٥**

المراجع ٢٤٧

إهــــداء

إلى هؤلاء الذين يرغبون فى تكوين بين إسلامى سعيد .
وهؤلاء الذين يريدون إنقاذ البيت من التفكك والانهيار .
وهؤلاء الذين يرغبون فى أن يصنعوا من أولادهم رجال المستقبل .

إلى هؤلاء جميعا أهدى هذا الكتاب

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

قبل الدخول فى تفصيلات بناء البيت السعيد فى ضوء الإسلام نود أن نبين مبررات أو دواعي بناء هذا البيت أو بناء هذه الأسرة السعيدة . ومفهوم السعادة المقصودة هنا أوسع بكثير مما يفهمه البعض بل إن معناها المراد هو معنى كلمة السعادة الواردة فى القرآن والسنة والحكمة . وأهم تلك الدواعي والدوافع هى الآتية :

أولا : إنه الأساس الأول لبناء المجتمع السعيد :

ذلك أن البيت أساس المجتمع ، لأن المجتمع عبارة عن أفراد والبيت منشأ هؤلاء الأفراد ، ثم إنه فى الوقت نفسه المدرسة الأولى ، لتكوين هؤلاء الأفراد فإذا تكونوا سعداء كان المجتمع سعيدا وإذا تكونوا أشقياء كان المجتمع شقيا .

والبيت السعيد يكون أو ينشئ أفراد سعداء . والبيت الشقى يكون أفراد أشقياء بالضرورة . لكن لا يمكن بناء البيت السعيد إلا إذا كان المقدم على بنائه سعيدا فى نفسه أولا ، لأن السعادة تفيض من الإنسان السعيد إلى غيره كما أن نفسية الأب أو الأم السعيدة لها آثار فى نفوس الأبناء من الناحية التربوية والإرثية لأنهم يرثون بعض خصائصهما الجسمية والنفسية معا . كما سنشرح ذلك خلال دراستنا لهذا الموضوع .

وحيث إن الأب والأم مؤسسان للبيت السعيد يجب أن يكونا سعيدين أولا وقبل كل شئ ، لكن كيف يستطيع الإنسان أن يكون سعيدا وما هى العناصر الأساسية للسعادة ثم ما هو منهج السعادة فى الحياة أو الطريق إليها هذا بحث خاص دراسته فى كتاب مستقل[1] .

---

(١) انظر كتابنا : طريق السعادة . تحت الطبع

ثانيا : إنه ضرورى لوقاية أفراد البيت من الانحرافات المختلفة :

لأن الإنسان الذى لا يجد فى بيته ما يحتاج إليه من المودة والتعاطف والطمأنينة والسعادة سوف يبحث عن مطلبه خارج البيت ويصبح البيت عندئذ كالسجن بالنسبة إليه فيضيق فيه ذرعا ولا يحب أن يمكث فيه ولو ساعة . عندئذ قد يضطر إلى قضاء أوقاته فى الملاهى لينسى همومه وأحزانه ومآسيه فى بيته ، وقد يدفعه شعوره بالشقاوة إلى أن يسلى نفسه باللهو والعبث وبالملذات المحرمة لأن من حرم من الملاذ الحلال بحث عن الملاذ الحرام ومن هنا يبدأ كل الانحرافات المختلفة . وربما كان حرمان الأبناء من السعادة فى البيت أكثر مدعاة للانحراف لأن سلوك الإنسان فى المراحل الأولى من حياته خاضع للمشاعر والعواطف الجياشة أكثر من خضوعه للعقل والحكمة والبصيرة والقيم والدين .

ثالثا : إنه ضرورى لنجاح أفراد البيت فى الحياة :

ذلك أننا نعرف أن أفراد الأسر التعسة لا يستطيعون القيام بأعمال عظيمة بل إنهم يفشلون فى الحياة ، فنحن نعرف فى ميدان التعلم مثلا أن أبناء الأسر التعسة أو الشقية يفشلون فى التعلم لأنهم لا يستطيعون التركيز على التعلم لتشتت عقولهم وعواطفهم كذلك نجد الزوج أو الأب التعس فى البيث لا يستطيع أداء واجباته كما ينبغى وكثير من أمثال هؤلاء يفشلون فى وظائفهم ، ثم إننا كم نرى من أفراد الأسر الشقية من الشقاوة والشرور مثل الجفوة فى المقابلة والأذى والجريمة أحيانا لأتفه الأمور .

رابعا : أنه ضرورى لبناء المجتمع أو لبناء الأمة :

إن البيت من المؤسسات الاجتماعية المهمة بل إنه يعد المدرسة الاجتماعية الأولى ، فيها توضع أساسيات التكوين الاجتماعى للفرد ، وحيث إن الأفراد لبنات المجتمع فكما نكون الأفراد من البداية يكون المجتمع ، فإذا كونا أفراداً اجتماعيين أخياراً يتكون مجتمع خير ، والعكس صحيح أيضا . وعلى هذا الأساس ينبغى أن نبدأ من البيت بتكوين الأفراد بحيث يراعى كل فرد فى سلوكه مصلحة المجتمع وحقوقه وسعادته ، كما يراعى مصلحة نفسه وسعادته وأن يوفق بين مصلحته ومصلحة

المجتمع ، وإن كان هناك بعض الأعمال تخص الفرد أكثر مما تخص الجماعة وهناك بعض الأعمال الأخرى تخص الجماعة أكثر مما تخص الفرد وهناك أيضا أعمال ثالثة تتوازن بين هذا وذاك ، وتكوين البيت من الأعمال التى تدخل فى نطاق هذا النوع الأخير من حيث إنه عمل اجتماعى . ويتبين لنا من عرض هذه الفكرة أن العلاقة بين الفرد والمجتمع من جهتين ، الأولى من ناحية ارتباط مصلحتهما ، والثانية من ناحية تبادل التأثير والتأثر فى السلوك بين الفرد والمجتمع . وإذا كان للبيت هذا الارتباط بالفرد والمجتمع فمصلحته تهم الفرد والمجتمع وله تأثيره على المجتمع من حيث كيانه الاجتماعى ومن حيث إنه مدرسة اجتماعية كل ذلك يقتضى تأسيس البيت على أسس سليمة وصحيحة حتى يمكن تحقيق ذلك الهدف النبيل وقد وجدنا نتيجة البحث أن من أهم تلك الأسس أن يكون المقدم على بناء البيت السعيد سعيدا فى نفسه أو أن يسلك طريق السعادة لأن فاقد الشيء لا يعطيه كما يقول المثل المشهور ومن هذه الأسس أيضا حسن اختيار الشريك الصالح . وأخيرا منها أيضا بناء البيت على قداسة الروابط المتينة وعلى الاحترام المتبادل بين الأفراد . وكل ذلك قد جاء فى الفصل الأول من هذا البحث .

بعد ذلك وجدنا أنه يجب أن يكون هناك أهداف يضعها المقدمون على بناء هذا البيت نصب أعينهم . قبل الإقدام على بنائه . وجاء ذكر هذه الأهداف فى الفصل الثانى . غير أن وضع الأسس يقتضى البناء والبناء يحتاج إلى هندسة وتنظيم معينين ولذا بحثت فى الفصل الثالث عن تنظيم البيت إذ إنه كمجتمع صغير وكجماعة خاصة يحتاج إلى إدارة ويحتاج إلى تدبير المال وإلى أمور أخرى ضرورية أولاً وقبل كل شئ . وهذا يقتضى بيان واجبات كل فرد إزاء الأفراد الآخرين بوجه خاص و إزاء البيت كله بوجه عام . فمن هنا بينت نظام الإدارة ونظام النفقة فى البيت ثم حددت واجبات الأفراد واجب الأب نحو زوجته وأولاده ، وواجب الأم نحو زوجها وأولادها ثم مسئولية كل هؤلاء بوجه عام عن نظام البيت وعن كيان البيت كله .

وكان التنظيم يقتضى أيضا تحديد المبادئ التى يقوم عليها تعامل الأفراد فيما بينهم بوجه عام ثم بيان مظاهر حياة البيت لأن كل تنظيم للحياة يتم فى ضوء فلسفة معينة

للحياة . وبما أن هذه الحياة بنظامها خاضعة لروح الإسلام فى الحياة فلابد من أن تظهر هذه الروح فى جميع جوانب مظاهر الحياة فى البيت .

وباعتبارأن البيت مجتمع صغير داخل مجتمع كبيركان الأمر يقتضى بيان علاقة البيت بالبيوت المجاورة ونظام التعامل وواجبات بعضها نحو بعض ثم أخيراً كان الأمر يقتضى بيان نظام حماية البيت ونظام المحافظة على كيانه وشخصيته . وكل هذه الأمور قد تم بحثها تحت فكرة التنظيم وفى هذا الجزء المشار إليه من الكتاب .

غير أنه مهما كان تنظيم البيت محكما ومتناسقا فلابد من أن يتعرض البيت لبعض المشكلات التى قد تهز كيانه وتنذره بالخطر أو تكون سببا لانهياره وتصدعه إذن فلابد من أن تكون هناك وسائل نتمكن بها أن نواجه هذه المشكلات ونتخذ التدابير لحلها . وقد حاولت بيان هذه الأساليب وتلك الوسائل التى ينبغى اتخاذها لحل هذه المشكلات المحتملة والمتوقعة إذا ما فاجأتنا حتى لا يقف أمامها أفراد البيت مبهوتين ، مهتديا فى هذا كله بأحكام الشريعة الإسلامية . وقد تم هذا كله فى الفصل الأخير من الكتاب .

وفى خلال هذا وذاك أطنبت فى بعض الموضوعات وأوجزت فى بعضها الآخر وذلك بناء على أهميتها فى هذا الكتاب ومدى صلتها بغرض الكتاب وبعملية تنظيم البيت لابناء على أهميتها فى حد ذاتها ، ولابناء على أهميتها بالنسبة إلى موضوعات أخرى ، كما أننى حاولت أن يكون تعبيرى بسيطا يتلاءم مع المستويات المختلفة للقراء لأن الكتاب لم يكتب للخاصة من الناس ، ولهذا حاولت الابتعاد عن استعمال الأساليب والمصطلحات العلمية الخاصة فإن جاء منها شئ عرضا أو لضرورة أحيانا فإننى حاولت تفسيرها وتوضيحها أثناء الكتابة .

وكان هدفى الأساسى من كتابة هذا الكتاب هو توجيه أولئك الذين يريدون بناء بيت محكم يملؤه الهناء والسعادة إلى السبيل التى بها يحيون حياة أسرية هادئة ويجنبون أنفسهم المشكلات التى تنشأ نتيجة لعدم الاهتمام بأسس البناء أو بعملية التنظيم أو بسبب قلة الخبرة ، ثم لأوجه أولئك الذين يعانون من الحياة المنزلية ، كيف يستطيعون حل مشكلاتهم ويعيدون الحياة السليمة إلى بيوتهم ، وكيف ينقذون حياتهم وحياة أولادهم من الفشل فى الحاضر والمستقبل .

وكان دافعي الأساسي إلى كتابته هو مشاهدتي لبعض الأحداث المؤلمة التي تقع في البيوت من حين إلى آخر ورؤيتي لتلك الأخطاء الفاحشة التي يرتكبها بعض أفراد البيت في حق البعض الآخر ، والأخطاء التي يرتكبها المقدمون على بناء البيت سواء كانت تلك الأخطاء راجعة إلى أسس بناء البيت أو تنظيمه أو تصرفات الأشخاص غير الحكيمة أو الجاهلة ، ومن ثم تكون سببا لانهيار وتهدم هذا البيت بين يوم وليلة ، وما ينجم عن ذلك من الأخطار على حياة الأفراد بوجه خاص وعلى حياة المجتمع بوجه عام ، ثم شقاوتهما معاً إن عاجلاً أو آجلاً .

فعندما رأيت هذه الحقائق وتلك المشكلات لم أستطع أن أتمالك نفسي أمام هذه الدوافع القوية ومن ثم اندفعت إلى كتابة هذا الكتاب لأعالج تلك الأمور كلها ، وتلك الأسس التي لابد من مراعاتها عند بناء البيت .

وأرجو من الله أن يكون نافعا ناجعا لعلاج هذه المشكلة الفردية والاجتماعية معاً ومحققا للغرض الذي جاء من أجله ، وأن يكون مقدمة لدراسات أكثر عمقا وشمولا في هذا الحقل من الدراسة والبحث .

والله الموفق

المؤلف

الفصل الأول

أسس بناء البيت الإسلامي السعيد

أولاً : أن يكون المقدم على بناء هذا البيت سعيدًا في نفسه

ثانيًا : حسن اختيار شريك الحياة

ثالثًا : قداسة الروابط بين أفراد البيت

رابعًا : القيم الأخلاقية الإسلامية

أولاً : أن يكون المقدم على بناء هذا البيت سعيداً فى نفسه .

ذلك أن من لم يكن سعيدا فى نفسه لا يستطيع أن يسعد غيره ، فالسعادة طاقة إيجابية سارة تفيض من الإنسان إلى غيره ممن يعاشرهم ويصادقهم . ومن لم يكن سعيدا لا يستطيع بناء بيت سعيد لأنه لا يستطيع أن يضفى السعادة على بيته لأن فاقد الشئ لا يستطيع أن يعطيه ، بل على العكس من ذلك فالشقى قد يكون سببا لشقاوة غيره وإذا بنى بيتا فسيكون أول سبب لشقاوة بيته .

وإذا كان الأمر كذلك فيجب أن يسعد الإنسان نفسه أولا إذا لم يكن سعيدا قبل أن يبدأ ببناء البيت السعيد . ولكن لنا أن نسأل هنا كيف يمكن أن يكون الإنسان سعيدا فى نفسه قبل بناء البيت السعيد وخاصة إذا كان بناء مثل هذا البيت عاملا من عوامل سعادة الإنسان فى حياته ؟ نقول إن هناك سعادة فى إطار الحياة الفردية وهناك سعادة فى إطار الحياة الأسرية وأخيرا هناك سعادة فى إطار الحياة الاجتماعية والسعادة الثانية تكمل الأولى والثالثة تكمل السعادتين السابقتين .

لهذا قلنا إنه لابد من أن يكون الفرد سعيدا فى نفسه قبل بناء البيت السعيد وبناء البيت السعيد يوسع نطاق دائرة سعادة الإنسان .

إذا كان الأمر كذلك فكيف يستطيع الإنسان أن يجعل نفسه سعيدا ؟

كنت قد عالجت هذا الموضوع - كما قلت - فى بحث مستقل بعنوان طريق السعادة فى ضوء العلم والفلسفة والإسلام[1] وأريد تلخيص أهم جوانبها دون ذكر الأدلة العلمية التى دعمت بها أفكارى ومن يريد أن يقف على ذلك فليرجع إلى بحثنا المذكور .

إن السعادة لا تأتى بمجرد الرغبة فيها ولا تأتى أيضا بمجرد اعتناق مبادئها بل لابد من العمل الجاد والالتزام الدائم المستمر بمبادئها والسير فى طريقها وتحقيق شروطها وقبل بيان ذلك كله ينبغى تحديد مفهوم السعادة أولاً .

---

(١) البحث تحت الطبع . دار الإنسان - القاهرة

أ – مفهوم السعادة

إذا نظرنا مفهوم السعادة لدى الدارسين وجدناهم قد اختلفوا فيه اختلافا كثيراً ، ويطول بنا المقام لو ذكرنا ذلك كله ، ولهذا أرى الاقتصار هنا على المفهوم الذى خرجت به نتيجة لدراستى الخاصة[1] . وهذا المفهوم هو « ذلك الشعور المستمر بالغبطة والطمأنينة والأريحية والبهجة » . وهذا الشعور لا يأتى إلا نتيجة الإحساس الدائم بخيرية الذات وخيرية الحياة وخيرية المصير.

وليستطيع الإنسان أن يشعر بخيرية ذاته أو ليأتيه هذا الشعور لابد من تحقيق الشروط .

ب – شروط تحقيق السعادة

الشرط الأول : أن تكون نيات الإنسان وغاياته جميعها خيرة فى حياته كلها :

لأن من ينوى سوء أو أراد شرا فلا يمكن أن يأتيه الإحساس بأنه إنسان خير ثم إن هذه النيات السيئة لا تؤثر على تعكير صفو حياته النفسية الباطنية فحسب بل تؤثر على حياته الحسية الظاهرة أيضاً وهذا ما يقرره أيضا العلم الحديث . ويقول العلماء هنا « مثلا ولكى نكفل لذواتنا جهازا عصبيا صحيحا وجسما معافى سليماً يجب أن نروض عقولنا على الأفكار الصالحة البريئة من الآثام لأن الأفكار الشريرة الدنسة تضعف العقل وتفسده وتجره إلى الجنون[2] » .

الشرط الثانى : أن يكف عن جميع الشرور والرذائل الأخلاقية :

ذلك أنه إذا كان مجرد إرادة الشر يكون له ذلك التأثير فإن فعل الشرور والرذائل أدهى وأمر .

ولهذا نجد الحكماء وعلماء النفس ينصحون دائما بتجنب الإنسان جميع الشرور والرذائل إذا أراد أن يبعد نفسه عن الأمراض النفسية التى تترتب على عذاب الوجدان الذى يحس به الإنسان نتيجة ارتكابه الشرور فيقول أفلاطون مثلا « يكون الرجل تعيسا لأنه يعمل الشر[3] » . ويقول الدكتور عادل العوا عن عذاب الوجدان

(١) البحث تحت الطبع . دار الإنسان – القاهرة .

(٢) المرشد الطبى الحديث ص : ٤٤

(٣) محاورة جور جياس ص ١٢٦ . أفلاطون

« أما عذاب الوجدان فإنه يبدو أول ما يبدو وكأنه أخرس طفيف . . . ولكن هذا الألم المعنوى الأخلاقى ألم عميق فى الواقع فهو يستولى على النفس كلها بصورة تدريجية ويتصف بعدئذ بأنه لا يزول ولا يهدأ ولا يمحى أبدا . . . . ولذا فإنه يشبه لظى جحيم لا يبرد . . . . وربما يصحبه انحطاط عضوى يشتد ويقوى حتى يفسد الجسم ويتلف أعضاءه وينذر بأمراض خطيرة تؤدى إلى الموت[٤] . وقال أيضا وأما عذاب الوجدان أو وخذ الضمير وتأنيبه فهو الذكرى التى تعض القلب المجرم ولا تفارقه ليل نهار[٥] .ولهذا أيضا قال الرسول ﷺ «البر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يموت فكن كما شئت فكما تدين تدان[٦]» وقال الرسول أيضا «من ساء خلقه عذب نفسه ومن كثر همه سقم بدنه »[٧] وقال أخيراً من سعادة المرء حسن الخلق ومن شقاوته سوء الخلق[٨]» .

الشرط الثالث : فعل الخيرات بالنيات الخيرة :

لأن الشعور بخيرية الذات لا يأتى إلا إذا فعل الإنسان الخيرات أولا وأن يكون فعله لها بالنيات الخيرة إذ لا يمكن أن يقول له ضميره فى الداخل بأنك خير إذا فعل الخيرات بالنيات السيئة أو للمرءاة أو ليصل إلى غاية دنيوية فإن هذا العمل أو ذاك يدخل فى المعاملة التجارية ولا يدخل فى المعاملة الأخلاقية ، ولهذا قال الرسول « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »[٩] . ثم أن الله يوفق الذين يعملون الصالحات بالنيات الصالحة فى إقامة الحياة الطيبة وتيسير أمورهم فيها ولهذا قال تعالى[١٠]

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾

(٤) الوجدان ص ١٧٨ دكتور عادل العوا
(٥) المرجع السابق ص ٥٧
(٦) كشف الخفاء ١/ ٣٣٦
(٧) منتخب كنز العمال فى هامش مسند الامام أحمد ١/ ١٣٢
(٨) المرجع السابق ص ١/ ٣٢
(٩) فتح البارى بشرح البخارى ١/ ١٣ – بدء الوحى
(١٠) سورة : النحل : الآية ٩٧

﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ ﴾ (١١) ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ (١٢)

ولهذا كله نرى وليم مكدوجل العالم النفسي يقول « السعادة والشقاوة ينبعان من الخلق » (١٣)

الشرط الرابع : والأخير فى هذا الصدد أن تكون أعمال المرء متفقة مع ما يعتقده أو ألا تعارضه وتناقضه على أقل تقدير :

ذلك أنه إذا تعارضت حياة الإنسان العملية مع معتقداته يحصل عنده صراع نفسي لإحساسه بالذنب بسبب أنه لا يسير وفقا لما يعتقده ولهذا ينصح علماء النفس والحكماء والفلاسفة بالتنسيق بين أفعاله وأهدافه وقيمه وبين اعتقاده فيقول هنا أفلاطون مثلا : « أن النفس تجد طمأنينة تامة وقوة أيما قوة عندما تتفق إحساساتها وأعمالها فتغتبط بأنه ليس لها أن تعود باللائمة على نفسها فى فكرة أو عمل ظالم فى حق الله أو حق الناس (١٤)

ويقرر ذلك أيضا العالم النفسي المشهور فرويد قائلا : « إن الإحساس بالذنب يسبق أغلب الأمراض النفسية المعروفة فهو السبب الدقيق للخجل وضعف الثقة وازدراء النفس والشك وتجسيم التوافه والشعور بحقارة النفس والنقص والانتباه والمخاوف بأنواعها » (١٥) . ولهذا قال تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (١٦)

---

(١١) سورة الكهف : الآية ٨٨ - ٨٩ . (١٢) سورة الليل : الآية ٥ — ١٠

(١٣) الأخلاق والسلوك فى الحياة ص ١٢٥ وليم مكدوجل

(١٤) مقدمة لعلم الأخلاق لأرسطو ص ٣٥ (١٥) سيكولوجية الشذوذ النفسي ص ٢٠٩

(١٦) سورة الأنعام الآية : ٨٢

وقال : ﴿ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١٧)

أما فيما يتعلق بتحقيق الإحساس بخيرية الحياة فيتحقق بشرطين أساسيين أولهما : تحقيق الإحساس بخيرية الذات بالمبادئ السابقة ؛ لأن من لم يشعر بخيرية ذاته لا يستطيع أن ينظر إلى الحياة على أنها خير لأن الإنسان ينظر بمنظار نفسه إلى الحياة وإن داخل الإنسان ينعكس على ظاهره .

ثانيهما : تحقيق الصحة الكاملة وهى الصحة الجسمية والعقلية والنفسية والروحية وأهم مبادئ الصحة الجسمية هى

أولا : تناول الأغذية اللازمة بقدر الضرورة دون إفراط أو تفريط لأن تناولها أكثر من الحاجة ضار كما أن تناولها أقل من الحاجة ضار أيضا وتنتج أمراض خاصة لكل حالة من حالات التطرف وهذا ما يقرره الأطباء (١٨) ولهذا قال تعالى :

﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ (١٩)

ثانيا : الابتعاد عن المرضى المصابين بالأمراض المعدية وتجنب الأماكن الموبوءة. وهذا من أهم المبادئ الصحية فى الطب ولهذا أيضا أمر الإسلام بذلك فقال الرسول « لا يورد ممرض على مصحح » (٢٠) . وقال أيضا « إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها » (٢١) . وقال « وفر من المجذوم فرارك من الأسد » (٢٢)

ثالثا : الاعتدال فى الأعمال ، لأن الإفراط فى العمل يؤدى إلى الإرهاق والإرهاق يؤدى إلى أمراض جسمية ونفسية وعصبية وعقلية (٢٣) . كما يقرر ذلك الأطباء ولهذا قال الرسول « إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى » (٢٤) . وقال أيضا « أيها الناس عليكم بالقصد . . عليكم بالقصد » (٢٥)

---

(١٧) سورة المائدة الآية : ٦٩

(١٨) تأملات فى سلوك الإنسان ص ١٧ د . ألكسيس كارل . المرشد الطبى ص ٢٢١ – ٢٢٣

(١٩) سورة الأعراف الآية : ٣١ (٢٠) صحيح مسلم ٤/ ١٧٤٣ ، كتاب السلام

(٢١) فتح البارى بشرح البخارى ١٢/ ٢٨٩ (٢٢) فتح البارى بشرح البخارى ١٢/ ١٩٥

(٢٣) أسس الصحة والحياة ص ٢٥٧ دكتور عبد الرزاق الشهرستانى

(٢٤) كشف الخفاء ١/ ٣٠٠ (٢٥) منتخب كنز العمال فى هامش مسند الامام أحمد ١/ ٣٨

وكما يضر الإرهاق ، يضر الكسل أو عدم العمل أيضا وهناك أمراض تنتج عن الكسل يحددها الأطباء[٢٦] .

ولهذا كان الرسول يستعيذ من الكسل قائلا « اللهم انى أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل »[٢٧] . وكان يقول أيضا « أخشى ما أخشى على أمتى كبر البطن ومداومة النوم والكسل »[٢٨] .

رابعا : مراعاة النظافة والطهارة ، لأن معظم الأمراض تنشأ عن القذارة كما يقرر ذلك الأطباء ونحن نعلم مدى اهتمام الإسلام بالنظافة لدرجة أنه جعلها شطر الإيمان فقال الرسول « الطهور شطر الإيمان »[٢٩] وقال « إن الله نظيف يحب النظافة . . فنظفوا أفنيتكم »[٣٠] .

خامسا : تجنب الأسباب النفسية المرضية التى تؤدى إلى الأمراض العضوية ذلك أن هناك كثيرا من الأمراض الجسمية سببها الحالات النفسية المرضية منها عذاب الوجدان الذى ذكرنا آثاره على الأمراض الجسمية وسنتكلم عن أثر الأمراض النفسية على حدوث الأمراض الجسمية عند الكلام عن الصحة النفسية والعقلية والروحية .

أما الصحة العقلية فتتحقق بإبعاد العقل عما يسبب له أمراضا مختلفة **وأهم تلك الأسباب بيولوجية وأخرى سيكولوجية** :

أما الأسباب البيولوجية أو العضوية فكثيرة من هذه الأسباب جميع أنواع المسكرات والمخدرات . وقد بين المؤتمر الدولى المنعقد فى بلجيكا الأمراض التى تسبب المسكرات والمخدرات وكيف أنها لا تؤثر على صحة المدمنين فحسب بل تؤثر على عقول ذرياتهم أيضا[٣١]

---

(٢٦) تأملات فى سلوك الإنسان ص ٤١

(٢٧) صحيح مسلم ٤/ ٢٠٧٩ .

(٢٨) منتخب كنز العمال فى هامش مسند الإمام أحمد ١/ ٢٢٦

(٢٩) صحيح مسلم ٣/ ١٠٠ كتاب الطهارة .

(٣٠) التاج كتاب اللباس ٣/ ١٦٢

(٣١) انظر آثار الخمور فى الحياة الاجتماعية ص ١٩ دكتور أحمد غلوش .

ولذلك حرم الإسلام جميع أنواع المسكرات والمخدرات ، فقال الرسول : « كل مسكر خمر وكل خمر حرام »[٣٢] . ومنها أيضا بعض الأمراض مثل الزهرى الذى يؤدى إلى الجنون إذا انتقلت جراثيمه إلى المخ . ويؤدى إلى الشلل العام إذا انتقلت جراثيمه إلى النخاع الشوكى . إن هذا المرض الخبيث يرجع ٩٨ ٪ من نسبة الإصابة به إلى انتشار الزنا أو أعمال الفاحشة[٣٣] ما يقرر ذلك الأطباء ولذلك حرم الإسلام الزنا فقال تعالى :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾[٣٤] .

وأما الأسباب السيكولوجية التى تؤدى إلى الأمراض العقلية فهى كثيرة أيضا وأهمها اختلال التوازن العاطفى الذى يرجع الدكتور ألكسيس كارل سببه إلى عدم تبنى المرء لنظام اعتقادى أخلاقى سليم أو لعدم وجود مثل هذا النظام فى الحياة الاجتماعية[٣٥] . ولذلك جاء الإسلام بنظام اعتقادى سليم . ومن أهم هذه الأسباب أيضا تزعزع العقيدة أو فقدان الإيمان بالمبادئ الروحية الثابتة[٣٦]

ويؤيد ذلك أيضا الفيلسوف الألمانى ليبنتز قائلا « ولإزالة القلق النفسى والروحى أن يؤمن المرء بالله عن طريق العقل وأن يملأ نفسه بسرور عقلى لأن القلق ناتج عن الشك والشك وسيلة لتفتيت القلب »[٣٧] . ولقد صور الله تعالى خطورة تزعزع العقيدة بقوله:

﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾[٣٨]

وأخيرا من أهم تلك الأسباب وجود تناقضات فى حياة المرء الاجتماعية مثل التناقض بين مسلكه وبين عقيدته أو عدم استطاعة المرء أن يتخذ اتجاها معينا من بين

---

(٣٢) صحيح مسلم ٣/ ١٥٨٨ كتاب الأشربة

(٣٣) حياتنا الجنسية ص ٢٥٣ . دكتور فردريك كهن ، المرشد الطبى الحديث ص ٣٤٨

(٣٤) سورة الإسراء الآية : ٣٢

(٣٥) تأملات فى سلوك الإنسان ص ١٣ دكتور الكسيس كارل

(٣٦) أسس الصحة والحياة ص ٣١١ . دكتور عبد الرزاق الشهرستانى .

(٣٧) الآثار لليبنتز الفلسفية ١/ ١٤٨ Qeuvres philosophigues Deleibniz

(٣٨) سورة الحج الآية : ٣١ .

تلك الاتجاهات المتناقضة ولهذا ينصح علماء النفس بتوحيد ذات الإنسان عن طريق توحيد وجهتها لتكوين شخصية قوية متماسكة(٣٩).

يقول هنا الدكتور الكسيس كارل « إن الأحوال التى تساعد على تزايد الضعف العقلى والجنون الدورى تظهر على الأخص فى البيئات الاجتماعية التى تكون فيها الحياة قلقة مضطربة وغير منظمة . . »(٤٠) ويقول ليبنتز « يتركب أسعد الناس من مجموعة متناسقة من أوجه النشاط العقلى والخلقى(٤١) .

والإسلام جاء بنظام اعتقادى أخلاقى للحياة الفردية والاجتماعية لو طبقه الناس أفرادا وجماعات فى حياتهم الخاصة والعامة لما وجد مكان لمثل هذه الحالات المرضية ولهذا قال تعالى :

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾(٤٢)

﴿ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾(٤٣)

وأما تحقيق الصحة النفسية الروحية فيتوقف على تحقيق الصحة الأخلاقية والصحة العقلية التى بينا أسبابها ثم لا يدفع ذلك من تجنب الأسباب التى تؤدى إلى الأمراض النفسية والروحية . ففيما يتعلق بتحقيق الصحة الروحية فأهم الوسائل التى لابد من مراعاتها هى ملازمة الحياة الروحية وفقا للعقيدة التى تقوم عليها الحياة الروحية أو تنبع منها ؛ لأن الحياة الروحية غذاء للروح أو حاجة روحية فى طبيعة الإنسان وكما أن الجسم يصاب بخلل إذا حرم من حاجاته الأساسية فكذلك الروح تصاب بخلل إذا حرمت من حاجاتها الأساسية هذه الحقيقة انتهيت إليها بعد دراسة خاصة لطبيعة الإنسان من الناحية السيكولوجية والبيولوجية(٤٤) . كما انتهى إليها كثير من الفلاسفة والعلماء(٤٥) .

(٣٩) علم النفس أسسه وتطبيقاته التربوية ص ٢٩٨ - ٣٠٠ دكتور عبد العزيز القوصى .

(٤٠) الإنسان هذا المجهول ص ٢١٥ دكتور الكسيس كارل

(٤١) آثار ليبنتز الفلسفية ١/ ١٤٨ (باللغة الفرنسية) .

Quevres Philosophiques De Leibniz 1/148

(٤٢) سورة لقمان الآية : ٢٢ (٤٣) سورة الزمر الآية : ٥٤

(٤٤) انظر كتابنا فلسفة الحياة الروحية (تحت الطبع دار الشروق . القاهرة) .

(٤٥) انظر كتابنا طريق السعادة فى ضوء العلم والفلسفة والاسلام

ولهذا يرجع معظم علماء النفس الأمراض الروحية والنفسية إلى ترك الناس الحياة الروحية وانغماسهم فى الحياة المادية وارتكابهم الرذائل والجرائم.

ولهذا قرر الإسلام الحياة الروحية وجعلها واجبا على كل فرد يجب مراعاتها كما يجب مراعاة الحياة المادية ويبين أنه لا يمكن أن يجد الإنسان الطمأنينة والراحة النفسية بدون ممارسة هذه الحياة، فقال تعالى:

﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾[٤٦] ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾[٤٧] ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[٤٨] ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾[٤٩]

ويقرر ذلك أيضا وليم جيمس عندما يقول «أن الإيمان بالله هو الذى يجعل للحياة قيمة وهو الذى يمكننا من أن نستخرج من الحياة كل ما فيها من لذة وسعادة[٥٠].

ومن أهم وسائل الشقاء النفسى أيضا وجود تناقضات فى الحياة الفردية والاجتماعية مثل التناقض بين مسلك المرء وعقيدته أو عدم تبنى المرء اتجاها معينا من بين الاتجاهات المتعارضة والمتناقضة.

هنا نجد الفيلسوف الألمانى ليبنتز يقرر ذلك عندما يقول «يتركب أسعد الناس من مجموعة متناسقة من أوجه النشاط العقلى والخلقى»[٥١]

ولهذا كله نجد الإسلام جاء بنظام اعتقادى وأخلاقى ودعا إلى الالتزام بهما نظريا وعمليا فقال تعالى مثلا:

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾[٥٢]

---

(٤٦) سورة الرعد الآية: ٢٨ (٤٧) سورة طه الآية: ١٢٤ (٤٨) سورة الاحقاف الآية ١٣

(٤٩) سورة الزمر الآية: ٥٤

(٥٠) لمحات فى وسائل التربية الإسلامية وغاياتها ص ١١٣ دكتور محمد أمين المصرى

(٥١) آثار ليبنتز الفلسفة ١/ ١٤٨ (باللغة الفرنسية) (٥٢) سورة لقمان الآية: ٢٢

وقال تعالى: ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ (٥٣)

وأخيراً من أهم الأمور التى تشق النفس والتى يجب تجنبها لتحقيق السعادة النفسية: هو التشاؤم وتوجس الشر، ذلك أن روح التشاؤم إذا كان موجودا فى الإنسان أو كان معتنقا الاتجاه التشاؤمى المعروف لدى بعض رجال الفكر مثل الفيلسوف شوبنهور الذى كان يرى أن الحياة وهم أليم والتشاؤم صبغة الوجود وجوهر الحياة »(٥٤).

كما كان يرى أن الألم يستغرق كل شئ وأن الإدارة الكونية عمياء ولا خلاص إلا بالتغلب على هذه الإرادة(٥٥) إذا كان روح التشاؤم موجوداً فى الإنسان بهذه الصورة فإنه لا يمكن أن يشعر بالطمأنينة والبهجة فى هذه الحياة ثم إن التشاؤم لا يعوق الشعور بالسعادة فحسب بل انه يضر الصحة أيضا ويسبب أمراضا نفسية وعصبية كما يقرر ذلك علماء النفس فيقول مثلا الدكتور عزيز فريد « أنه يتحمل بفعل اتجاهه التشاؤمى هذا متاعب هى أشد وقعا على نفسه وأعصابه من وقع الكوارث أو الملمات أو المآسى التى يتوقع حدوثها .. ويستهلك إتجاهه التشاؤمى من الطاقات عبثا لأنه لا يستطيع أن يتحكم فى اتجاهه الخاطئ بأعمال قوة الإرادة، ذلك لأن بواعث التشاؤم هى أبعد وأعمق من أن تنالها الإرادة الواعية(٥٦).

ولهذا نجد الإسلام يدعو إلى التفاؤل على أساس أن الله خلق الكون بعناية وخلق الإنسان برعاية وخلق الأشياء لصالح الإنسان لا لضده ولا لشقاوته بل لسعادته ثم لم يوجد الكون عبثا أو صدفة أو أن كل شئ جاء ضد آخر كما يرى البعض ولهذا نجد الإسلام يقرر ذلك وقد جاءت آيات كثيرة فى القرآن تبين أن الله خلق كل شئ فى الكون للإنسان وسخره له فمن تلك الآيات قوله تعالى:

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ

---

(٥٣) سورة طه الآية ١٢٣

(٥٤) المذاهب الاخلاقية ٢/ ٤٤٧ – ٤٨٢ . دكتور عادل العوا .

(٥٥) الموسوعة الفلسفية المختصرة ص ١٩٦ .

(٥٦) الامراض النفسية العصابية ص ٣٤٨ .

﴿ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (٥٧)

ثم دعا الإسلام إلى الابتهاج بالجمال الذى خلقه الله فى الكون وفى السماء

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ (٥٨)

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ ﴾ (٥٩)

وكذلك الجمال الذى خلقه فى النباتات

﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ (٦٠)

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ ﴾ (٦١)

كما خلق الله حيوانات فى صورة جميلة «انظروا إلى جمال تلك الطيور ذات الريش الملونة والحيوانات مختلفة الأشكال والألوان» ولهذا قال تعالى :

﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ (٦٢)

يقول هنا الفيلسوف الألمانى ليبنتز «وما من مرة ترى فيها أحد مصنوعات الله إلا وجدناه غاية فى الكمال ويجب أن نبدى إعجابنا بجماله ورقة صنعه» (٦٣) . ويقول جون روسكين أستاذ الفنون الجميلة بجامعة اكسفورد «الإنسان الذى يتأمل الجمال

---

(٥٧) سورة ابراهيم الآية ٣٢ - ٣٤ (٥٨) سورة ق الآية ٦

(٥٩) سورة الصافات الآية ٦ (٦٠) سورة النمل ٦٠

(٦١) سورة الأنعام الآية ١٤١ (٦٢) سورة النحل الآيات ٥ ، ٦ ، ٨

(٦٣) محى الدين ابن عربى وليبنتز ص ١٢٦ . دكتور محمود قاسم .

فى الطبيعة وفى الفن إنما يتحد بالتعاطف مع الجمال الذى صنعه الله والجمال الذى صنعه الفنان وهذا الاتحاد يسبغ على نفس الإنسان حلة من السمو الخلقى فيشعر المرء بإتقان نبيل وسمو رفيع ويعيش فى سعادة مطلقة سعادة الجمال »(٦٤) .

ثم إن الله لم يكتف بتجميل ما خلقه وما صنعه حتى أحسن خلق الإنسان نفسه « فقال تعالى ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾(٦٥)

﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾(٦٦) .

ثم إن الإسلام دعا بعد ذلك إلى أن يجمل الإنسان نفسه ويأخذ زينته قال تعالى

﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾(٦٧)

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ ﴾(٦٨)

كما دعا إلى النظافة والتعطر والابتسام عند مقابلة الناس . فقال الرسول « إن الله نظيف يحب النظافة » (٦٩) . وجعل الرسول التطيب والتعطر سنة خاصة فى أيام الجمعة(٧٠) . بل أكثر من هذا دعا الإسلام إلى أن يكون الإنسان جميلا فى مقابلته للناس فقال الرسول « وتبسمك فى وجه أخيك لك صدقة» (٧١) وفى مناقشته ومجادلته معهم ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾(٧٢)

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾(٧٣) .

---

(٦٤) المذهب الأخلاقية ٢ ,٥٠٧ . دكتور عادل العوا
(٦٥) سورة التين ٤
(٦٦) سورة غافر ٦٤
(٦٧) سورة الأعراف ٣١
(٦٨) سورة الأعراف ٣٢
(٦٩) التاج ١/ ٢٢٦
(٧٠) صحيح مسلم ٢/ ٥٨١ كتاب الجمعة .
(٧١) تحفة الأحوزى بشرح الجامع الترمذى ٦/ ٨٩ باب ما جاء فى صنائع المعروف .
(٧٢) سورة الإسراء ٥٣
(٧٣) سورة العنكبوت ٤٦

وكما دعا الإسلام إلى التبشير لا التنفير فقال الرسول « بشروا ولا تنفروا[٧٤] » وكان يعجبه الفأل الحسن ويكره الغيرة[٧٥] » . ولهذا نفى الغول والهامة »[٧٦] » وما إلى ذلك من الأشياء التى كان العرب يتشاءمون منها[٧٧] وذلك كله لكى لا يرى الإنسان من أخيه الإنسان إلا خيرا وجميلا ولا يشم منه إلا ريحا طيبا ولا يسمع إلا كلاما حسنا مبشرا حتى يكون الإنسان متفائلا ومبتهجا فى نظرته إلى الطبيعة وإلى الإنسان وإلى حياة الإنسان جميعاً .

وأخيرا فإن الإسلام بعد ذلك دعا إلى حسن الظن ، حسن الظن بالناس وبالله لأن سوء الظن يثير فى نفس الإنسان القلق والتوجس بالشر وانتظار الإساءة من الغير باستمرار ومادام الأمر كذلك فلا يهدأ له البال ولا يطمئن له القلب .

لذا قال الرسول « من أساء الظن بأخيه فقد أساء الظن بربه »[٧٨] إن الله تعالى يقول ﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾[٧٩]

وقال أيضا « إذا ظننتم فلا تحققوا وإذا حسدتم فلا تبغوا وإذا تطيرتم فامضوا وعلى الله فتوكلوا وإذا وزنتم فأرجحوا »[٨٠] .

كذلك دعا الإسلام إلى حسن الظن بالله فقد جاء فى حديث قدسى « أنا عند ظن عبدى بى إن خيراً فخير وإن شراً فشر»[٨١] .

ثم إن بعض الناس يسيئون الظن بالله من حيث إنه سوف يعاقبهم فى النار لمجرد صدور بعض الهفوات منهم ومن ثم يعيشون فى ندم وخوف ورعب دائم من هول النار فلو أنهم أحسنوا الظن بالله وعلموا أن الله يعلم نقص الإنسان وضعفه وأنه لابد من أن يصدر منه بعض الهفوات ولهذا يبين أن من يجتنب الكبائر من الذنوب ويفعل

---

(٧٤) التاج ١/ ٧١ كتاب العلم
(٧٥) سنن ابن ماجه ٢/ ١١٧٠ كتاب الطب
(٧٦) فتح البارى بشرح البخارى ١٢/ ٣٣٠ .
(٧٧) صحيح مسلم ١/ ١٧٤٤ كتاب السلام .
(٧٨) منتخب كنز العمال ١/ ٢٨٠ (٧٩) سورة الحجرات ١٢
(٨٠) منتخب كنز العمال ١/ ٢٨٠ (٨١) الجامع الصغير ١/ ٧٧

الفرائض والواجبات الكبيرة فإنه سوف يغفر له تلك السيئات والصغائر فقال تعالى:

﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ (٨٢)

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ۝ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ﴾ (٨٣)

بعد هذا كله هناك وسيلتان مهمتان لتحقيق السعادة لابد من مراعاتهما : أولهما : تنظيم الإنسان علاقته بالمجتمع بحيث لا يعاشر ولا يصادق الأشرار بل يجب الابتعاد عنهم لأن الشرير لا يأتى منه إلا الشر بل أكثر من هذا فإنه يجعل الإنسان يكره الناس ويتشاءم منهم. ومقابل ذلك يجب أن يعاشر ويصادق الأخيار لأن الخير لا يأتى منه إلا الخير بل الخير يفيض منه كما يفيض النور من السراج ولهذا دعا الرسول إلى معاشرة الأخيار والصالحين وترك معاشرة الأشرار فقال « مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحا طيبة ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحا خبيثة » (٨٤).

وثانيهما : امتلاك الإنسان قوة الإرادة بحيث يستطيع تطبيق كل المبادى السابقة بدقة وانتظام ويستطيع بها السير فى طريق السعادة على الرغم من وجود بعض المعوقات والمشكلات التى تعترضه من حين إلى آخر.

لكن كيف يستطيع الإنسان أن يمتلك قوة الإرادة إن لم يكن مالكها. الحقيقة أن هذه مشكلة قد عالجتها فى بحث مستقل فى كتاب آخر (٨٥) ، فليرجع إليه من أراد ذلك ولا أستطيع معالجته هنا لأن الأمر يؤدى بنا عندئذ إلى الابتعاد عن جوهر موضوعنا الأساسى.

إذن لنواصل الآن الكلام عن الأسس الأخرى لبناء البيت السعيد.

---

(٨٢) سورة النساء ٣١ (٨٣) سورة النجم ٣١ – ٣٢.

(٨٤) هداية البارى شرح إلى ترتيب أحاديث البخارى ٢/ ١٢٧.

(٨٥) انظر التربية الأخلاقية الإسلامية ص ٦٢٦ وما بعدها مكتبة الخانجى. القاهرة ١٩٧٧.

ثانياً : حسن اختيار شريك الحياة

هذا الأساس يعتبر من أهم الأسس فى بناء البيت لأن أغلب مشكلات البيت ناتجة عن سؤ الاختيار ، ولا يقتصر أثر هذه المشكلات على الجو العائلى فى البيت فقط بل يتعداه إلى المجتمع أيضا .

ولأن سعادة البيت تتوقف كذلك على حسن اختيار الزوجة ، فإذا كان المرء موفقا فى الاختيار كان موفقا أيضاً فى بناء البيت السعيد اننا نستطيع قياس مدى نجاح البيت بمدى التوفيق فى الاختيار .

ولهذا كله فإن الاختيار يستحق كل الاعتناء والاهتمام ، وكيف لا ، وهى التى ستكون قرينته مدى الحياة ، وجليسته فى الليل والنهار ، وخازنة أسراره ، والأمينة على شئون داره وصانعة أولاده ومربية أنجاله . فإذا نجحت فى تربيتهم نجحوا فى حياتهم[1] ، ولذلك أثر كبير فى حياة البيت بوجه خاص وحياة المجتمع بوجه عام وليس نجاح الأولاد وحدهم متوقفا على الزوجة بل نجاح الرجل فى الحياة متوقف عليها أيضا ، ومن هنا قيل المثل المشهور « وراء كل عظيم امرأة » وإذا صح هذا التعبير فإنه يصح أيضا أن نقول وراء كل فاشل امرأة ، لأنها قد تكون طاقة للرجل وقوة موجهة له وقد تكون عائقا كئودا أو منبع مشكلة تبدد قواه .

والمرأة يمكن أن تحول البيت إلى جنة ، كما يمكن أن تحوله إلى جحيم لا يطاق فالكلمة الطيبة والابتسامة الساحرة منها فى وجه الرجل عند عودته من العمل وهو مرهق – تزيلان عن وجهه عبوس التعب وعن نفسه كآبة الإرهاق ، كما تضيف الكلمة الخبيثة والنظرة العابسة منها التعب على التعب والكآبة ، وعند المشكلات فإنها يمكن أن تجعله يشعر وكأنه ليس هناك مشكلات أمامه وتحلها معه ويمكن أن تخلق مشكلة على مشكلة أو تعقدها وتزيد من ضراوتها . ولهذا قال الرسول من سعادة ابن آدم المرأة الصالحة والمسكن الصالح والمركب الصالح ومن شقاوة ابن آدم

---

(١) قال أبو الأسود الدؤلى يوما لبنيه « قد أحسنت إليكم صغاراً وكباراً وقبل أن تولدوا قالوا وكيف أحسنت إلينا قبل أن نولد قال اخترت لكم من الأمهات من لاتسبون بها » انظر أدب الدنيا والدين للماوردى/ ١٣٣

المسكن الضيق والمرأة السوء والمركب السوء [٢] ، ولهذا أمر الرسول باختيار الشريك الصالح فقال وتخيروا لنطفكم فانكحوا الأكفاء وانكحوا إليهم [٣] وقال أيضا انكحوا الصالحين والصالحات [٤] لكن التوفيق فى حسن الاختيار ليس سهلاً .

ولهذا فإن اختيار الزوجة يعتبر مشكلة أمام الشبان . ولأن هناك عوامل متشابكة ومعقدة تدخل فى عملية الاختيار فهناك عوامل نفسية وثقافية ودينية واجتماعية تتحكم فى أهداف الإنسان فى الحياة ورغباته واتجاهاته وميوله واهتماماته فيها وبالتالى تتحكم وتتدخل فى عملية الاختيار .

ثم إن هناك مشكلات من نوع آخر وهى مشكلة طريقة الاختيار وطريقة فهم كل من الطرفين للآخر ، وأخيرا هناك المعايير العامة والخاصة والصفات الأساسية والثانوية ، وهذه الأمور تختلف من فرد إلى آخر وهكذا .

وفيما يلى نذكر أهم المعايير العامة التى ينبغى أن يختار المرء زوجه على ضوئها .

ا – معايير حسن اختيار شريك الحياة .

١ – الانسجام الروحى :

الانسجام الروحى عملية سيكولوجية صرفة ، ذلك أن الإنسان عندما يرى فتاة فى أول مرة إما أن يتقبلها فى قلبه أو يرفضها ، وذلك قبل أن يختبرها ويعرف أخبارها .

ولعل هذا هو ما قصده الرسول من قوله « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » [٥] .

فالأرواح الطيبة تنسجم مع الأرواح الطيبة والأرواح الخبيثة تنسجم مع الأرواح الخبيثة ، وقال تعالى ﴿ ٱلْخَبِيثَـٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَـٰتِ وَٱلطَّيِّبَـٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَـٰتِ ﴾ [٦] .

---

(٢) المستدرك على الصحيحين ٢/ ١٤٤ كتاب قسم الفىء

(٣) المرجع السابق ٢/ ١٦٣ (٤) سنن الدارمى ٢/ ٥٦١

(٥) صحيح مسلم ٤/ ٢٠٣١ كتاب البر والآداب

(٦) سورة النور آية ٢٦

وليس هذا بقاصر على مابين الرجل والمرأة بل يكون أيضا بين الرجل والرجل والمرأة والمرأة ، وكل منا يدرك هذه الحقيقة فى معاشرته مع الناس . فنحن لا نجالس ولا نصاحب الناس عادة إلا الذين نستريح إليهم روحيا ولا نكون الأصدقاء إلا منهم . وهذا الشرط وإن لم يكن كل شيء فى الحياة الزوجية إلا أنه لا يمكن أن تكون هذه الحياة مليئة بالبهجة والسرور والسعادة ما لم يوجد هذا الشرط ، وكما أن الحياة لا تكتمل بدون الزواج كذلك لا تكتمل الحياة الزوجية بدون الانسجام الروحى بين الطرفين واتحاد القلوب بينهما .

وينبغى أن يعلم الناس أن الزواج الروحى أكثر بهجة من الزواج الحسى ؛ لأن الأول لذته مستمرة وسعادته دائمة ، والثانى سعادته وقتية تزول بزوال الاتصال الحسى ولهذا فالمظهر ليس هو الأساس بل المخبر هو الأساس . والأفضل هو اجتماع الأمرين معا إن أمكن ذلك .

٢ – الإتفاق فى الأيدلوجية والعقيدة :

ويشمل الإتفاق فى العقيدة والقيم والاتجاهات والميول والأفكار الأساسية والنظرة إلى الحياة بوجه عام .

وينبغى أن يعرف من البداية أن الإتفاق فى جميع الجزئيات والتفاصيل والأذواق والإحساسات ليس من الضرورى بل إنه لا يمكن أن يوجد لأنه من المستحيل أن يوجد شخصان من صورة واحدة فلا يتفق التوأمان من خلية واحدة فى كل الأمور ، فكيف يتفق الجنسان من خلايا مختلفة قد عاشا فى بيئات وفى أجواء عائلية مختلفة .

وإنما كل ما أريده هنا أنه لابد من الإتفاق فى الأمور الأساسية السابقة بوجه عام أى الإتفاق فى الجوانب الهامة التى تلعب الدور الرئيسى فى توجيه الحياة وجهة معينة ، وفى تربية الأبناء تربية خاصة ، إذ لابد من الإتفاق فى التدين مثلا ؛ لأنه يؤثر فى حياة البيت ، والاختلاف فيه يؤدى إلى الاختلاف فى هذه الحياة ، والاختلاف فيها لابد من أن يؤدى يوما إلى التفرقة وإن لم يؤد إلى التفرقة فلا يكون هناك توافق وانسجام على الأقل .

وإذا لم يكن هناك توافق وتكيف وانسجام روحي ونفسي فى الحياة فلا يكون معنى للحياة بوجه عام ، وللحياة الزوجية بوجه خاص .

٣ – الإتفاق على نوع الحياة :

إذا كان الإتفاق فى الأيدلوجية يشمل الإتفاق فى الجوانب الاعتقادية والفكرية وقيم الحياة ، فإن الإتفاق على نوع الحياة يشمل الإتفاق على الجوانب المادية أو الحسية من الحياة أو مظاهر الحياة بوجه عام .

وهذه الجوانب مهمة أيضا كالجوانب الأولى لأن الإتفاق أو الاختلاف هنا يؤدى إلى ما يؤدى إليه الاختلاف والإتفاق هناك .

وربما تكون الحاجة إلى الإتفاق هنا أكثر إلزاما فيا إذا كان هناك اختلاف كبير بين الأسرتين ؛ فلو كانت الفتاة مثلا من أسرة أرستقراطية والفتى من أسرة فقيرة فإنتقال الفتاة فى هذه الحالة من حياة الرفاهية والنعمة الواسعة إلى حياة ضنكة ضيقة فقيرة ، هذا الانتقال التنازلى من الأعلى إلى الأدنى يكون صعبا على النفس وربما لا تطيق هذه الحياة الضيقة المحرومة ولا تتحملها وإن تحملتها يوما أو يومين فلا تستطيع تحملها أياماً أو سنين طويلة ، أما إذا وافقت مبدئيا على أن تعيش معه فى السراء والضراء ، فى هذه الحالة تعد نفسها للتكيف معه حتى فى أسوأ الحالات ، وهذا الإعداد والاستعداد يخلقان قوة التحمل والمواجهة لمصاعب الحياة ، ثم إنه لا يكون لها حق الاعتراض على ما تجد من النفقة القليلة لأنها وافقت على هذا وأبدت استعدادها من البداية .

ولكن المال أيضاً ليس دائما وسيلة هامة لدوام الحياة الزوجية وسعادتها فكم من الفتيات انتقلت من بيت غنى إلى بيت فقير وسعدت فى حياتها وعاشت راضية مرضية وكم من فتاة انتقلت من الحياة المعدمة إلى حياة رفاهية ناعمة ولم تستطع أن تحيا فيها ، فحياة الزوجة هى زوجها لا ماله ولا جاهه ، والحبُ والتوافق يلعبان دوراً كبيراً فى نجاح الزواج وسعادة البيت .

على أى حال فالاتفاق مهم لابد منه تجنبا لنزاع قد يحصل وحلا لمشكلات قد تنشأ . ولابد من أن يصارح كل واحد حالته وإمكانياته قبل الخطوبة .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى قد تكون الحالة الاقتصادية للطرفين فى مستوى واحد إلا أنهما يختلفان فى نوع الحياة فقد يرغب أحدهما فى حياة اللهو واللعب ويرغب الآخر فى حياة هادئة وجادة ، وقد يرغب أحدهما فى حياة مقفلة والآخر فى حياة مفتوحة ، وقد يرغب أحدهما فى حياة علمية والآخر فى خلافه ، فلابد من أن يتفقا على نوع الحياة أياً كان هذا الإتفاق أو أن يبديا الاستعداد للإتفاق لأنه يكون القدرة على تعديل بعض الرغبات أو كلها ، فالاستعداد للتفاهم والإتفاق يؤدى غالبا إلى الإتفاق والتفاهم فى الحياة .

ويدخل فى نطاق هذا التوافق : التوافق الزوجى أو التكيف الجنسى . غير أن الإتفاق على هذه النقطة من أصعب النقط ذلك أن الحديث فيها صعب على الجانبين ولاسيما فى هذه المرحلة ، ثم إنه لا يدرى أحد هل سيتم التكيف أو لا ، لأن وراء هذه الحقيقة ستاراً لا يستطيعون استكشافه فعلا إلا بعد رفع هذا الستار ، فمن هنا تلعب الصدفة دوراً كبيراً فى هذه الناحية .

غير أنه لا ينبغى أن يترك الأمر كله للصدفة إذ من الممكن أن نستكشف بعض ملامح هذه الحقيقة أو نتنبأ بها إلى حد كبير ببعض الوسائل ونساعد على عملية التكيف بها .

من هذه الوسائل استكشاف مدى قوة الدافع الجنسى عند الفتاة عن طريق مظاهرها التى تبينها لنا بعض الدراسات ، غير أنه لا ينبغى الاعتماد عليها كلية أيضاً .

ومن هذه الوسائل التقارب فى السن .

فالمتخصصون الذين يكتبون لنا فى هذه النقطة لا يتفقون فى تحديد سن معينة وإن كادوا أن يتفقوا فى شئ واحد وهو أن تكون المرأة أصغر من الرجل لأن الرجل يحتفظ بنشاطه حتى فى المراحل المتأخرة من عمره ولا سيما إذا كان محتفظا بصحته كما تستمر قدرته على الإنجاب حتى فى شيخوخته أما المرأة فلا تنجب عادة بعد الأربعينات كما يقل نشاطها بسرعة بعد هذه المرحلة .

أما الفارق الكبير إذا كان الرجل مثلا فى منزلة الأب أو إذا كانت المرأة فى منزلة الأم فهذا مما لا شك فيه يؤدى إلى عدم التكيف وعدم التكيف هنا لابد من أن

يؤدى إلى أحد الأمرين إما إلى التفرقة وهو الغالب والأكثر وإما إلى عدم الانسجام والسعادة الزوجية وهو أمر محتم .

الوسيلة الثانية : الإتفاق فى قيمة موضوع الجنس وفى الاهتمام به أو عدمه فهناك من الناس من يقول إنه كل شئ فى الحياة الزوجية ومنهم من يقول إنه لا شئ . والثالث يقول إنه ليس كل شئ . فلا شك أن الأول مبالغ والثانى فاقد لهذا الدافع والثالث هو المعتدل ، على أى حال لا يهمنا قول هذا وذاك بقدر ما يهمنا أن يتفق الطرفان فى مدى الاهتمام بهذا الموضوع مبدئيا إن أمكن لأن الاهتمامات تدفع إلى الأفعال والتطبيقات ، فإذا اهتم أحدهما به بكثرة واهتم به الآخر بقلة فلا شك . أنه عندما يطلبه المهتم بكثرة لا يستجيب له المهتم بقلة ، عند ذلك يحصل الخلاف والنزاع والصراع النفسى ثم إن ظروف البلاد . قد لا تساعد على مثل هذا التفاهم ، وكل يعمل على حسب الإمكانيات المتاحة له فى بلده . وقد يتم الإتفاق والتفاهم بعد الزواج على أى حال سواء كانت قلة الاهتمام ناتجة عن قلة الدافع أو عن كثرة اهتمامه بموضوعات الحياة الأخرى ، فإنه على أى حال يؤدى إلى عدم التكيف إذا لم يكن هناك إتفاق وينبغى أن يعلم هؤلاء الذين يجعلون الجنس كل هدفهم من الحياة الزوجية إنه بالإضافة إلى عدم إتفاق هذه النظرة مع نظرة الإسلام إلى الزواج وأهدافه منه فسوف تؤدى إلى الفشل فى الحياة الزوجية فى النهاية ولو اتفقوا مبدئيا فيها ، لأنها مخالفة للحقيقة ، والمخالفة للحقيقة لا تدوم بدوام الحقيقة ، فقد روى أحد الكتاب قصة امرأة كانت تعيش مع زوجها هادئة وكانت علاقتها معه عادية حتى إذا ما قرأت يوما كتابا من كتب هؤلاء الذين يبالغون فى هذا الموضوع ويرسمون الطرق للوصول إلى قمة السعادة ، فبدأت تهتم بهذا الموضوع اهتماما كبيرا وبدأت تحاول تطبيق طرقهم للوصول إلى قمة السعادة حتى نشأ النزاع بينهما وأدى إلى التفرقة والحرمان من كل السعادة ، وهكذا ينقل هؤلاء ، الناس من حياتهم المطمئنة باسم قمة السعادة إلى قمة الشقاوة .

الوسيلة الثالثة عدم اختيار المريضة :

ويمكن تقسيم الأمراض المتعلقة بهذا الموضوع إلى قسمين :

الأول « الأمراض المستعصية والمخلة بالحياة الزوجية » وهذه الأمراض قد تكون وراثية فى أسرة الفتاة فيجب الابتعاد عن مثل هذه الفتاة « وقد تكون غير وراثية إلا أنها أصبحت مستعصية على العلاج ، هذه الأمراض تخل بالحياة الزوجية وتؤدى إلى عدم التكيف فيها ، ولهذا يجب الابتعاد عن فتاة مصابة بأحد هذه الأمراض .

الثانى الأمراض غير المستعصية وهى عبارة عن حالات عرضية تكون سببا لعدم التكيف مثل بعض الأعراض النفسية ومثل ضعف الصحة الناتج عن قلة الأغذية اللازمة ومثل البرود الجنسى الذى ينشأ إما عن حالات نفسية أو عن حالات بيولوجية ، هذا القسم من الأمراض يمكن معالجته وقد تمكن علم النفس من معالجة كثير من الأمراض النفسية ولا سيما الأمراض المتعلقة بهذا الموضوع كما تمكن الأطباء من معالجة الأمراض الأخرى .

والذى أريد أن أنبه إليه هنا هو أنه يحصل هناك أحيانا بعد الزواج مباشرة عدم التكيف لسبب من هذه الأسباب قد يوجد عند أحد الطرفين أو كليهما . فى هذه الحالة لا ينبغى أن يقدم على الافتراق لمجرد إحساسه بعدم التكيف إذ أن هذه الحالات يمكن معالجتها كما قلنا فيجب أن يسرع إلى الطبيب قبل أن يسرع إلى الافتراق أو الطلاق .

وأخيراً ينبغى أن يعلم الزوجان شيئا هاماً وهو أنه كلما اتسعت مجالات الإتفاق زاد التكيف وزادت رقعة السعادة الزوجية ، ولا سبيل إلى هذا إلا اختيار شريكة الحياة التى تتفق معها فى أوسع مجالات الحياة المستقبلة لأن الاستعداد للشئ كثيراً ما يخلق هذا الشئ إذا صحت النية والعزيمة وصدقها العمل المخلص .

٤ – معرفة كل من الطرفين للآخر معرفة جيدة :

وهذا مهم جدا لأنه عندما يعرفها معرفة جيدة يستطيع أن يقرر مصير الحياة الزوجية إلى حد ما فإذا قبلها مع ما فيها من صفات ، فمعنى ذلك أنه مستعد لتحملها

وتقبل ما يقع منها من سلوك أو يتحمله على الأقل ، وينبغى ألا يخفى كل منهما طبيعته وما فيه من رغبات وميول وأهداف ، لأن الذى يخفى ما عنده فى هذه الحالة ويظن أنه يخدع صاحبه إنما يخدع نفسه لأنه ■ يجد بعد الزواج صفة من هذه الصفات التى أخفاها ، لا يمكن تحملها وبالتالى يؤدى إلى التفرقة .

وهنا لابد من التمييز بين الصفات الأساسية والصفات الثانوية أو الشروط الضرورية وغير الضرورية بالدرجة الأولى .

فالأولى هى عبارة عن صفات لابد منها لدوام الحياة الزوجية أو الصفات التى يجب ألا توجد أبدا والتى لا تطاق الحياة مع وجودها بأى حال من الأحوال .

والثانية هى الصفات التى يستحسن أن توجد والصفات التى يستحسن ألّا توجد وتطاق الحياة بوجودها مع الضيق أو مع شئ من التحمل والصبر .

وهذه الصفات تختلف من شخص إلى آخر وليس هذا يهم ، ولكن المهم أن يعرف كل صفاتها ، وأن يعرف ما هو أساسى منها وما هو ثانوى فى عملية الاختيار .

ولكن ليس معنى ذلك أنه لا توجد صفات مرغوبة وأساسية مشتركة بين الناس جميعا فهناك قيم مشتركة بين الناس ولا يمكن أن تستقيم الحياة لا فى البيت ولا فى المجتمع بدونها ، مثل الصدق واحترام الأمانة والعهود واحترام الحقوق والمشاعر الإنسانية فكيف يعيش الإنسان طول الحياة مع الكذابة الخادعة التى لا تراعى إلا ولا ذمة ولا عهدا ولا شعوراً للإنسان إلى آخر هذه الصفات ، وكيف يحيا الإنسان إذا كانت شريكة حياته مصابة بالأمراض الخبيثة والمستعصية مثلا .

وعلى ذلك يجب أن يعرف كل من الطرفين الآخر فإذا عرف كل منهما الآخر ومدى ما يتصف به من أخلاق حميدة أو رديئة يستطيع أن يتنبأ بما تكون عليه أخلاقه معه فى المستقبل ، فإذا رأيت إنسانا يكذب فى مجالات حياته المختلفة فلا تقترب منه ؛ لأن الذى يكذب هناك يكذب هنا أيضا والذى يخدع الناس يخدعك أيضا . والذى يسئ إلى الناس يسئ إليك يوما ما ، مهما ربطت بينكما الروابط .

يقول الرسول هنا «كرم المؤمن دينه ، ومروءته عقله وحسبه خلقه»[٧] فسئ الأخلاق هنا سئ الأخلاق فى كل مكان وفى كل زمان ، فالأخلاق السيئة كالرائحة الكريهة تفوح منه أينما ذهب وحيثما حل ، والأخلاق الحسنة كالسمك تفوح منه الرائحة العطرة أينما كان ولهذا قال الرسول – ﷺ – عندما دعا إلى مصاحبة الصالحين وترك مصاحبة الطالحين «إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحا طيبة . ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحا خبيثة»[٨] .

وأخيراً ينبغى أن يلاحظ أنه قلما يجد الإنسان الشخص الذى يتحلى بجميع الصفات التى يرغب فيها ، لأن الإنسان المثالى يكاد أن يكون وجوده مستحيلا فالكمال المطلق صفة الخالق لا صفة المخلوق .

كما أن كل شاب يبحث عن الفتاة المثالية التى يتخيلها ، ولكن قلما يجدها ، ولهذا فينبغى ألا نبحث عن الفتاة المثالية فى الدرجة الأولى وإنما ينبغى أن نبحث عن الفتاة التى تتمتع باستعدادها للتكامل والاتصاف بالصفات المثالية التى ترغب فيها ، والاستعداد لتغيير صفاتها غير المرغوبة وعاداتها غير السليمة ، فالاستعداد للتكامل والتفاهم يؤدى إلى التكامل والتفاهم ، وينبغى أن يبحث كل من الشريكين عن الطريقة التى يستطيع بها تحقيق رغبات صاحبه بالصورة التى يريدها صاحبه لا كما يريدها هو ، وهذا يقتضى التضحية ببعض المصالح الشخصية . وهذا ما لا بد منه فى الحياة الزوجية ، لأن التضحية من عوامل نيل رضى الطرف الآخر .

وكل من الطرفين ينبغى أن يحاول لنيل رضى صاحبه وإدخال السرور فى نفسه وأن ينسى تضحياته وجهوده فى سبيل الحياة الزوجية السعيدة ، ولأن كلاً منهما عندما يرى الآخر يضحى من أجله يزيد حبه له وكلما زاد حب كل منهما للآخر زادت بهجة حياتهما وسعادتهما ؛ إذ أن أساس السعادة هو المحبة وأساس المحبة هو الشعور بالرضى والتقبل والميل : وهذه الأمور بدورها تحصل عن الخيرات المتتالية السارة

(٧) المستدرك على الصحيحين فى الحديث ٢/ ١٦٣ كتاب النكاح .

(٨) التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول – صلى الله عليه وسلم – عيسى الباب الحلبى جـ ٥ ص ٨٢

وهكذا تتكون عاطفة المحبة ، وعن طريق معرفة طريقة تكوينها نستطيع أن نخلق المحبة ونزيد من مقدارها يوما بعد يوم وبالتالى تزيد من مقدار السعادة الزوجية .

وأهم سمات التضحية فى هذا المجال هو أن ينسى المضحى تضحياته وأن يعمل ذلك بالمحبة لابالكراهة وأن يهنأ بالعطاء كما يهنأ بالأخذ فالمحبة تسهل الصعاب . والعمل النابع من القلب لايترك أثراً للتعب فى النفس .

هذا ولقد بيّن الإسلام صفات الزوجة الصالحة التى ينبغى أن تختار لبناء البيت الإسلامى السعيد . وبعض تلك الصفات ضرورية وأخرى كمالية أو مثالية لكن يجب مراعاة جميعها ليكون الاختيار فى ضوء التوجيهات الإسلامية أو ليكون الاختيار اختياراً اسلامياً وسنذكرها فى الصفحات الآتية .

ب – صفات الزوجة الصالحة

فأول هذه الصفات أن تكون مسلمة :

وإن كان الزواج جائزا بالكتابية إلا أنه غير مستحسن وقد كرهه العلماء مادام هناك مسلمة لأن الكتابية خطر على عقيدة الطفل وتربيته فى المستقبل إذ لا يؤمن جانبها فى تغيير وتبديل دين ولدها إذا أتيحت لها فرصة يوما ما ، ولا أمل فى سعادة البيت مادام فيه أب مسلم وأم غير مسلمة ، وكيف تجتمع عقيدتان متغايرتان فى فراش واحد ولا يؤدى ذلك إلى النزاع والخلاف ، وأما غير الكتابية التى لا تؤمن بأى رسالة من الرسالات السماوية أو لا تدين بها فلا يجوز نكاحها بالاجماع لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ ﴾ [(٩)] ، وفى آية أخرى ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ [(١٠)] لأنها تود أن تنشر عقيدتها وعاداتها فى البيت وهى تخالف عقيدة الإسلام وتعاليمه كليا وجزئيا ، والزوج يريد

---

(٩) سورة البقرة آية ٢٢١

(١٠) سورة الممتحنة آية ١٠

تربية أبنائه بالتربية الإسلامية عند ذلك يحصل الخلاف وتتضارب الآراء والاتجاهات وهذا بدوره يؤدى إلى فساد حياة البيت وشقاء أهله . وانشطار شخصية الناشئين .

الثانية ألا تكون من القريبات المحرمات من ذوى الأرحام ، وقد ذكرت الآية اللاتى لا يجوز نكاحهن قال تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (١١)

وذلك لأن رغبة كل منهما تجاه الآخر تكون ضعيفة ويزيد ذلك ضعفا كلما زادت القرابة بينهما كما يؤثر ذلك أيضاً فى الذرية ، وعلاقة القرابة ، فالجمع بين الأختين يؤثر على مودة القرابة . وإذا حصلت الفرقة تؤدى إلى قطع علاقة القرابة .

الثالثة أن تكون عفيفة أن لا تكون زانية :

لأن الإسلام يريد بناء البيت على أساس العفة والطهارة ولأن الزانية تكون سببا لخراب البيت وتشريد الأبناء واختلاط الأنساب وانتشار الأمراض السرية ولهذا لما استأذن مرثد الغنوى الرسول فى زواج عنان الغانية لم يأذن له وقرأ عليه قوله تعالى: ﴿ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٢) ولعل هذا هو السبب فى أمر الإسلام الزوج بعدم إرجاع زوجته الخائنة إلى عصمته ، مع أمره بإرجاعها فى جميع الحالات الأخرى ، فقال تعالى :

---

(١١) سورة النساء آية ٢٣ . (١٢) سورة النور ٣

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾[١٣] لأن من كان زانيا من قبل يكون مشبوها بالأمراض أولا ثم لا يتجنب الخيانة الزوجية كلما وجد فرصة ، والخيانة تهدم البيت وقبل هدمه لا يمكن أن توجد سعادة فى بيت يكون فيه أحد الزوجين خائنا لأن الخائن لا يجد فى زوجه متعة ولا يضفى على أهله المودة والعطف والبشاشة التى لابد منها للسعادة بل إنه يضجر فى البيت ومن معاشرة أهله والجلوس مع أولاده . ومن ثم يصبح بيته سجنا لنفسه وإنى لمست هذه الحقيقة فى حياة أسرة يشتكى منها أحد أبنائها ويطلب حلا فيقول كان والدى إنسانا لطيفا يضفى علينا من عطفه وحنانه ورعايته وبشاشته وقلما كان يغيب عن البيت فى غير أوقات العمل ثم أحسسنا بالتغير المفاجئ فبدا يقل حضوره إلى البيت ويتأخر بالليل ويأتى عابس الوجه لا يبتسم فى وجه أحد ولا ينظر إلى والدتى نظراته السابقة وإذا استفسرنا عن السبب ينفعل ويغضب ويثور فأصبح إنسانا لا يطاق معاشرته ولا تحتمل ، ثم بعد ذلك كشف الشاب عن معاشرته لامرأة أجنبية ويشتكى الوضع ويقول فما الحل ؟ ؟

هنا يذكر الدكتور ألكسيس كارل مبينا أثر الخيانة الزوجية فى الحياة الاجتماعية وحياة البيت فيقول « يجب نبذ الخيانة الزوجية نبذا تاما أولا : لأنها تفصم الرابطة الاجتماعية التى لا غنى عنها لسعادة الأطفال . وثانيا : لأنها قد تدخل دماموبوءا فى سلسلة ذرية صالحة »[١٤] .

ويقرر الرسول هذه الحقيقة بأن من يزنى يفقد لذة معاشرة زوجته فقال « لا تزنوا فتذهب لذة نسائكم وعفوا تعف نسائكم »[١٥] .

وإذا درسنا كم من جرائم ترتبت على الخيانات الزوجية من القتل والتشريد وما إلى ذلك نستطيع أن ندرك خطورة الزنا وأنه يجب أن يدخل فى اعتبار المقدمين من الرجال والنساء على الزواج . ولابد من أن يجرى البحث عما إذا كان الطرف الآخر

(١٣) سورة الطلاق ١

(١٤) تأملات فى سلوك الإنسان ص ١٠٩

(١٥) كشف الخفاء ٢/ ٧٩

عفيفا أم لا . وأنه من الحماقة الشنيعة الإقدام على الزواج من إنسان زان إذا كان يريد بناء بيت سعيد، مستقر وبعيد عن المشكلات التى تترتب عليه .

الرابعة ألا تكون مخطوبة للغير :

فقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم – الرجل عن أن يخطب على خطبة أخيه فقال ابن عمر – رضى الله عنهما – ونهى النبى عن أن يبيع بعضكم على بيع بعض ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى يتركها الخاطب قبله أو يأذن له الخاطب ، وهذا مما تجب مراعاته لأنه يثير الفتن والأحقاد بين المسلمين إلى جانب هذا وذاك فلا تبقى نفس الخاطب والمخطوبة صافية من مظنة السوء وقد يبقى قلب المخطوبة متعلقاً بالخاطب الأول .

الخامسة أن تكون ذات دين وخلق :

وجاء وصف ذات الدين فى الآية كالآتى : قال تعالى

﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ (١٦)

ولقد بين الله تعالى صفات المتدينين والمتدينات فى آية أخرى بقوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١٧)

وكل هذه الصفات السابقة تدور حول ثلاث صفات رئيسية الاولى الإيمان الكامل الشامل بجميع ما جاء به الإسلام من العقائد ، والثانية الخضوع للإسلام وأداء العبادات المفروضة والثالثة التحلى بالأخلاق الحميدة .

---

(١٦) سورة التحريم آية ٥ (١٧) سورة الاحزاب آية ٣٥

وقد جعل الإسلام التدين المعيار الأول فى اختيار الزوجة والصفة الأساسية فى هذا الاختيار لأنه بذلك يشجع الناس على التدين ولأن الدين الإسلامى قد جاء بجميع المبادئ الإنسانية الفاضلة والقيم الخلقية والاجتماعية السليمة ، ولا يمكن أن تستمر الحياة الزوجية وسعادتها وأن يكون البيت بيتا إسلاميا حقا بدون أن تتصف المرأة بتلك الصفات وتتحلى بتلك القيم الأخلاقية النبيلة ، ولهذا قال الرسول – صلى الله عليه وسلم – « لا تزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن ، ولا تزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن ولكن تزوجوهن على الدين ولأمة خرماء سوداء ذات دين أفضل »(١٨)

وقال أيضا « تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك »(١٩) ولا ينبغى أن يفهم من هذا الحديث أن الإسلام لا يعترف بطبيعة الإحساس الإنسانى وميله نحو الجمال والجاه والمال ، فهذه من الأمور المرغوبة بالطبيعة أيضا لأن المرأة إذا لم تكن جميلة تقل رغبة الزوج فيها ولا يرتدع بصره عن غيرها ولهذا قال الرسول حين سئل أى النساء خير قال« التى تسره إذا نظر وتطيعه إذا أمر ، ولا تخالفه فى نفسها ولا فى ماله بما يكره »(٢٠) . وكذا المال له أهمية فى اقتصاد البيت والإنسان يحب أن يكون أولاده أغنياء كما يحب أن تساعده زوجه فى نفقة البيت وقد يقصد الإنسان الحسب والنسب ليرفع من مكانة البيت كما أن الإحساس بالشرف وبالحسب يدفع إلى التزام الشرف والترفع عن الدنايا .

وإنما كل ما أراده الإسلام أن تكون صفة التدين الصفة الأساسية وأن تكون الصفات الأخرى الصفات الثانوية ولا مانع من الجمع بينهما بعد توفر الصفة الأولى بل هذا أفضل .

السادسة أن تكون ولوداً غير عقيم :

إن من ضمن أهداف الزواج فى الإسلام الإنجاب ودوام التناسل ولتحقيق ذلك

---

(١٨) سنن ابن ماجه حـ ١ – باب تزويج ذات دين ص ٢٩٣

(١٩) صحيح البخارى حـ ٧ – كتاب النكاح ص ٩

(٢٠) سنن النسائى حـ ٢ ص ٧٢

الغرض شجع الإسلام على اختيار زوجة ولود . فقد روى أن رجلا استأذن النبي ليتزوج إمرأة عقيماً فلم يأذن له قال « تزوجوا الودود الولود فإنى مفاخر بكم الأمم »[٢١] .

وقال الرسول – صلى الله عليه وسلم – سوداء ولود خير من حسناء عقيم[٢٢] وليس معنى ذلك أن الزواج بالعقيم لا يجوز شرعا وإنما ذلك غير مرغوب لأن كل إنسان يرغب فى أن يكون له ولد إن عاجلاً أو آجلا . وربما يطلبه بعد فوات الفرصة فيندم على فعلته ويقدم على زواج آخر ، ولأن الإنجاب – كما قلنا – من أهداف الزواج فى الإسلام . ولكن قد يعترض ويقال : كيف تعرف المرأة أنها عقيم نقول إنه يمكن معرفة ذلك عن طريق الأسرة بأن تكون من أسرة معروفة بالولادة وكذلك إذا كانت متزوجة من قبل وكانت أيضا بريئة من بعض الأمراض التى تؤدى إلى العقم أو إلى الإجهاض ، وإن ولدها لا يعيش مثل إذا كانت مصابة بالمرض الزهرى ، ومن تلك الوسائل أيضاً بعض التحليلات الطبية ، واتخاذ الدولة التقارير الطبية عن الأسر المصابة بالأمراض الوراثية .

السابعة أن تكون الفتاة من أسرة غير أسرته أو من جنس غير جنسه :

معروف أن العرب كانوا يقولون اغتربوا لا تضووا »[٢٣] أى لا تهزلوا ولتصبحوا أقوياء وجاء الرسول فأكد هذا المبدأ . ولم يكتف بالإيصاء بالابتعاد عن الأسرة فى الزواج فحسب بل أوصى بالابتعاد عن الجنس فأوصى أسرته قريش بالزواج من غير العرب فقال « يا بنى هاشم عليكم بنساء الأعاجم فالتمسوهن فإن فى أرحامهن بركة »[٢٤] .

ولقد كان من أهداف الرسول من ذلك إقامة صلات بين المسلمين وتأليف الروابط الجديدة بين الأسرة والقبائل زد على هذا أن الرغبة تقل فى الزوجة إن كانت

---

(٢١) المستدرك على الصحيحين ٢/ ١٦٢ كتاب النكاح

(٢٢) الجامع الصغير جـ ٢ . ح – س/ ٣٤

(٢٣) أدب الدنيا والدين ص ١٣٣ للماوردى

(٢٤) المغنى لابن قدامه جـ ٧ ص ٣٠

من القربى والهدف الثانى الأساسى تقوية النسل أو تحسينه ، ولقد قرر كثير من علماء تحسين النسل أن ضعف الذرية وإنحطاط قدرتها العقلية يرجع فى كثير من الأحيان إلى عامل الوراثة ولا أدرى هل قلة الرغبة تكون سببا فى ضعف النسل يقال هذا إلا أنها فكرة غير محققة ولكن الذى حققه العلماء عملية الوراثة .

فكلما كانت الزوجة ذات قرابة أوثق كلما ظهر أثر الوراثة أكثر ، والسبب فى ذلك أن جميع الصفات والاستعدادات السيئة فى الأصول القريبة تنتقل إلى الذرية والأعقاب ؛ ولهذا قال الرسول « الناس معادن والعرق دساس وأدب السوء كعرق السوء »[٢٥]

وهذه الظاهرة قد تشاهد بشكل ملحوظ فى أبناء الأسر والقبائل المتعصبة الذين لا يتزوجون من غيرهم ولا يزوجون . ولهذا قال الرسول أيضا « هاجروا تورثوا أبناكم مجداً »[٢٦] .

ويجب أن يلاحظ أيضاً أن الابتعاد ليس قاعدة مطلقة إذ قد تكون الأسرة الأخرى أكثر ضعفا فى القدرات العقلية والجسمية منها وفى هذه الحالة فلا شك أن الذرية تأتى أضعف من ذرية الأسرة نفسها ؛ ولهذا عند الابتعاد عن الأسرة ينبغى أن تختار الأسرة الأقوى منها فى هذه القدرات حتى تكون الذرية الجديدة أحسن من ذرية الأسرة نفسها ، وكلما كان الطرفان أكثر قدرة وأصح جسما كلما أدى ذلك إلى ذرية أكثر قدرة وأصح جسما

ولا ننسى هنا شيئا وهو أن الزواج من ذات القربى قد يكون براً إذا لم يكن هناك من ينفق عليها وكمثل لما قررنا فلقد تزوج أحد الخبراء فى أمريكا وكان متوسط الذكاء بامرأتين كانت أحدهما ذكية والأخرى ضعيفة العقل فكان أكثر أولاده من الذكية ناجحين فى الحياة وأظهروا التقدم فى المجالات التى دخلوا فيها وتولوا كبار المناصب الإدارية والعلمية وكان أكثر أولاد الغبية فاشلين فى الحياة ، وما كانوا يستطيعون القيام من الأعمال إلا بأدناها وأقلها حاجة إلى القدرات العقلية . ومن هنا يظهر دور

(٢٥) كشف الخفاء ومزيل الالباس ٢/ ٧٧

(٢٦) منتخب كنز العمال على هامش مسند الامام أحمد ٦/ ٣٩٤

الوراثة فى الذرية وليست هناك وسيلة لتغيير الوراثة غير الزواج من الأسر البعيدة التى لا تمت إلى أسرته بصلة ، ولعل المثل القائل إن اختلاط الجنسين يولد العباقرة قيل نتيجة لهذه الخبرة .

الثامنة أن تكون بكراً :

روى أن الرسول قال لجابر بن عبد الله « أتزوجت بكراً أم ثيبا ؟ » فقال « ثيبا » فقال الرسول صلى الله عليه وسلم « مالك والعذارى ولعابها »[٢٧] وفى رواية « أين أنت من العذارى ولعابها »[٢٨] . وقال أيضا « عليكم بالأبكار فإنهن أعذب أفواها وأنتق أرحاما وأرضى باليسير »[٢٨] وشعور الإنسان بطهارة رحم زوجته ونقاوته وأنه لم يمسها أحد من قبل له قيمة . هذا إلى أن الإسلام يريد من تشجيع زواج البكر تشجيع الفتيات على الطهارة والعفاف وحفظ الأعراض . ثم إن زواج البكر ينقذ الإنسان من الشكوك فى وجود الأمراض السرية واختلاط الأنساب وعفاف الفتاة ، وهذا له دور كبير فى الاستقرار النفسى والاطمئنان القلبى .

التاسعة ألا تكون شديدة الغيرة :

لأن كثرة الغيرة تؤدى إلى كثرة الاستجواب وكثرة الحساب لكل تصرف يلفت النظر وتدخل فى القلوب الشكوك وذلك يعكر صفو الحياة ويزيل منها السعادة . ولهذا لماسألوا الرسول قائلين ألا تتزوج من نساء الأنصار فقال : إن فيهم لغيرة شديدة »[٢٩] لكن لا ينبغى أن يفهم من ذلك أن الإسلام يحارب الغيرة لأن الغيرة ضرورية للمحافظة على الشرف وإنما غير المرغوب منها هى الغيرة الشديدة والمفرطة .

العاشرة أن تكون عاقلة :

فإن الحمقاء كما قيل – معاشرتها بلاء وولدها ضائع . ولهذا ورد فى الحديث : إنه إذا خدع الزوج بزوجة غير عاقلة فإن على وليها أن يدفع غرامة مهرها[٣٠] ثم إن ضعف العقل يورث فمن أراد أن يكون ولده عاقلا فليتجنب الحمقاء .

---

(٢٧) البخارى باب نكاح الثيبات ، رواية آدم عن شعبة عن محارب .
(٢٨) السنن الكبرى للبيهقى ٧/ ٨١ كتاب النكاح
(٢٩) سنن النسائى ٦/ ٥٧ كتاب النكاح
(٣٠) الموطأ كتاب النكاح حديث ٩

اختيار الزوج الصالح :

وعلى الآباء والأمهات أن يختاروا لبناتهن أزواجا صالحين متدينين ومتخلقين بخلق الإسلام وآدابه وينبغى أن تكون هذه الصفة هى الصفة الأساسية فى الاختيار قبل المال والجاه فالفقير صاحب الأخلاق غنى والفاسد المضنى فقير ، ذلك أن الفاسد قد يضيع ماله بين يوم وليلة فى القمار والشراب والنساء وكما يضيع ماله يضيع صحته فى السهرات ويضيع عقله بالخمور ويضيع حق الزوجة أيضاً . وأثر هذا لا يقتصر على حياتهما بل يؤثر على حياة أولادهما وصحتهم ، فقد أثبت الأطباء أن شرب الخمور يضر بصحة الإنسان بصفة عامة ويضر بصحة أولاده بصفة خاصة لأن الخلية التى ينشأ عنها الطفل إذا كانت متأثرة بالخمور تؤثر فى تكوين الطفل البيولوجى ، كما تنتقل الأمراض المعدية والوراثية إلى الأطفال عن طريق هذه الخلايا .

وهذا ما يقرره الدكتور الكسيس كارل العالم الفرنسى الكبير قائلاً نحن نعرف اليوم أن الزواج بين الأشقياء أو السكيرين أو المصابين بالزهرى أو حاملى العيوب العقلية الوراثية يعتبر جريمة جديرة بالعقاب . وينبغى لنا ألا ننسى فى هذا الصدد تاريخ أسرة روك حين تم الزواج بين شخصين من أرباب السوابق فى ولاية نيويورك فظهر من بين سلالتها ٣٣٩ عاهرا و ١٨١ سكيرا و ١٧٠ معوزا و ١١٨ مجرما و ٨٦ من أصحاب بيوت الدعارة . وقد لاحظ « جودارد » أنه قد ظهر فى سلالة عدد من الأسر التى كان فيها الأب والأم من ضعاف العقول ٤٧٠ شخصا من ضعاف العقول وستة أشخاص فقط من ذوى العقول السليمة ؛ ولذلك يعتبر إنتاج ذرية من المرضى والمنحلين أو اللصوص أو المعتوهين جريمة كبرى ، وهكذا يعد سوءالذرية من أكبر الخطايا »[٣١] .

وهذا ما يقرره أيضا الرسول فقال « لا يبغى على الناس إلا ولد بغى أو فيه عرق منه »[٣٢] ولهذا حذر الرسول من زواج المرأة الفاسدة أو الناشئة فى الأسرة الفاسدة .

فقال : « إياكم وخضراء الدمن قيل : يا نبى الله وما خضراء الدمن ؟ قال المرأة الحسناء فى المنبت السوء »[٣٣] .

(٣١) تأملات فى سلوك الإنسان ص ٨٧ للدكتور الكسيس كارل

(٣٢) كشف الخفاء ٢/ ٥١٦

(٣٣) منتخب كنز العمال فى هامش مسند الإمام أحمد ٦/ ٣٩٦

وجاء فى رواية أخرى « فإنها تلد مثلها »[٣٤] .

ولهذا كله فلم يكتف الإسلام بمنع الآباء من تزويج بناتهم من المنحلين خلقيا بل أكثر من هذا طلب منهم أن يعرفوا بناتهم لمن يرون فيه الصلاح والتقوى ، فقد عرض الرسول – صلى الله عليه وسلم – ابنته على علىّ ، وعرض عمر ابنته على عثمان وأبى بكر ، وليس فى ذلك عيب بل هو أمر شرعى ، فنحن ينبغى أن نستحى مما يستحى منه لا مما لا ينبغى أن نفعله ولا حياء فى تطبيق الأمور الدينية بل الحياء فى المحرمات ، وليس، على الآباء أن يعرضوا بناتهم على من يرون فيهم الخير فقط بل على النساء أن يعرضن أنفسهن على من يرين فيهم الخير بطريق مباشر أو غير مباشر .

فقد جاءت إمرأة يوما تعرض نفسها على الرسول فقالت بنت أنس ما أقل حياءها ، واسوأتاه واسوأتاه فقال الرسول – صلى الله عليه وسلم – هى خير منك رغبت فى النبى فعرضت عليه نفسها »[٣٥]

إن مسألة الزواج مسألة مهمة جداً لأنها مسألة الحياة وإنها تهم المرأة أكثر من الرجل ، لأن الطلاق بيد الرجل فإذا لم تعجبه الزوجة يطلقها والمرأة لا تستطيع ذلك إلا بطريق الخلع كما أن الطلاق يؤثر على المرأة أكثر من الرجل ، من الناحية الاجتماعية إذ أن الناس عادة يسيئون الظن بالمرأة فى هذه الحالة أكثر من ظنهم بالرجل والعار يلحق بالمرأة أكثر منه ، حتى فى حالات الافتراق قبل الزواج بعد الخطبة .

ولهذا أمر الرسول الآباء بتزويج بناتهم من أصحاب الخلق الحميد فقال « إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض »[٣٦] .

حقا إنه إن لم تعط قيمة للصلاح فى المجتمع ولم يبحث عن صلاح الرجل والمرأة فى الزواج بل إذا رد الصالح لأنه لا يملك مالا وإذا لم تتزوج المرأة الصالحة لأنها لا تملك مالا فلابد من أن يعم الفساد المجتمع .

(٣٤) كشف جـ ١ ٣١٩ – ٣٢٠
(٣٥) البخارى باب عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح – رواية ثابت
(٣٦) سنن الترمذى ٢/ ٢٧٢ كتاب النكاح

ولهذا كما أعطى الإسلام حق الاختيار للرجل فقد أعطى نفس هذا الحق للمرأة أيضاً وهذا حق طبيعي باعتبار أنها إنسان وباعتبار أنها ستصبح زوجة تتحمل مسئوليات كما يتحملها الزوج . وكيف تقضي المرأة حياتها في بيت أكرهت عليه مع رجل تنفر منه وتشمئز ، أجبرها أبوها وأرغمها لغرض من أغراضه ، دون رعاية لشعورها وإحساسها .

ولهذا نهى الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن إكراههن على النكاح فقال : لا تنكح الأيم حتى تستأمر ، ولا تنكح البكر حتى تستأذن » قالوا يا رسول الله كيف إذنها « أي البكر » قال إن تسكت[٣٧] .

ومن أجبر إمرأة على النكاح بفسخ هذا النكاح ويرد إكراما لشخصيتها وحفاظا على كرامتها وإقرارا لمكانتها ، فقد روى أن خنساء بنت خدام وكانت ثيبا أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكت له أن أباها زوجها لرجل تكرهه ولا تميل إليه فرد الرسول صلى الله عليه وسلم زواجها[٣٨] وجاءت فتاة يوما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت إن أبي زوجني ابن أخيه ليرفع بي خسيسته ، فخيرها الرسول بين أن تجيز هذا الزواج أو تبطله . فقالت قد أجزت ما صنع أبي ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شيء[٣٩] .

وهنا وقع الخلاف بين العلماء فيما إذا زُوِّجَتْ الابنة البالغة بغير إذنها من قبل وليها ، فقد منع أبو حنيفة هذا الزواج واعتبر العقد باطلا ، وأجازه باقي أصحاب المذاهب كالشافعي ومالك وابن حنبل ، وأما الثيب البالغة فتتفق فيها على عدم جواز نكاحها إلا بأمرها .

وكذلك وقع الخلاف فيما إذا زوجت الثيب أو البكر البالغة نفسها بغير إذن وليها فأجاز أبو حنيفة وقد استدل بالأحاديث السابقة وغيرها ، أما باقي أصحاب المذاهب فلم يجيزوا استنادا إلى حديث « أيما إمراة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل فنكاحها باطل فنكاحها باطل[٤٠] .

(٣٧) صحيح البخارى حـ ٧ - كتاب النكاح ص ٢٣
(٣٨) صحيح البخارى حـ ٧ - كتاب النكاح ص ٢٣
(٣٩) سنن ابن ماجه باب من زوج ابنته وهي كارهة حـ ١ ص ٢٩٦
(٤٠) التاج حـ ٢ - كتاب النكاح ص ٢٩٣

وقد أنكر أبو حنيفة صحة هذا الحديث واتهمه بالضعف ، ورأى أبو حنيفة أن المرأة البالغة إذا وضعت نفسها فى موضع سليم فى الزواج فنكاحها طالما أنها بصيرة عاقلة تدرك مصلحتها وطالما أن لها حرية التصرف فى مالها وفى التجارة فتبيع وتشترى فلماذا إذن تمنحها حرية التصرف فى نفسها فى الزواج ممن تراه أنسب وترى أنها تستطيع الحياة معه .

أما إذا لم تحسن التدبير والاختيار والإدراك وما يعود عليها من خير أو شر ففى هذه الحالة يمكن للولى الاعتراض فيفسخ القاضى الزواج .

وهنا قد تحدث مشكلة معقدة فيما إذا اختار ولى أمرها رجلا واختارت هى رجلا آخر وكل منهما يصر على اختياره ففى هذه الحالات يحتكم إلى القاضى أو إلى أهل الرأى ويحكم العقل الحصيف . فما دامت عند المرأة ملاحظة دقيقة وبصيرة وإدراك تستطيع به فهم شخصية الرجل ونفسيته بحيث إذا رأت أنها إن تزوجت به يمكنها أن تدير رحى البيت وتحيا معه فى السراء والضراء ، فلماذا نمنعها من تنفيذ إرادتها ونجعلها رقيقا لا شخصية لها ، ولا إرادة ، بل أن تحمل المرأة مسئوليتها بنفسها وتقرير مصيرها فى الحياة بإرادتها وبصيرتها وبما يدفعها إلى تحمل أعباء الحياة والصبر فيما اختارته أكثر مما لو اختار لها ولى أمرها حياة معينة وزوجا معينا من غير رضاها ، فى هذه الحالة الأخيرة قد يجعلها تضجر من أى حركة مؤذية أو تخالها كذلك . ومن أقل ضغط وأقل عبء يلقى عليها وربما تلوم فى ذلك كله ولى أمرها . وقد يدفعها هذا إلى الافتراق لا لشئ إلا لإسقاط انفعالاتها عليه انتقاما منه ويكون الأمر بخلاف ذلك لو أخذت موافقتها فلا يكون لها العذر عند ذلك للوم أو للافتراق بسبب الأشياء التافهة بل المهمة كذلك ، إذ أنه نتيجة اختيارها وتصرفها بنفسها . ولا ينبغى أن نفهم من هذا إلغاء حق ولى الأمر إطلاقا على المرأة البالغة العاقلة ، إذ وردت أحاديث كثيرة من جهات مختلفة كلها تثبت حق الولاية ولا خلاف يذكر بين العلماء فى هذا الحق وإنما الخلاف فى الدرجة ومدى شرطية هذه الولاية فى صحة العقد هل هو شرط كمال أم شرط صحة ؟

ويتضح من خلال عرضنا للآراء حول الحالة الأخيرة أن أبا حنيفة لا ينكر حق

الولاية وإنما يرى أنها شرط كمال لا شرط صحة وهذا - كما يبدو أكثر اعتدالا وتقديراً لشخصية المرأة .

رؤية كل من الطرفين للآخر .

ولكي يستطيع أن يفهم كل من الخاطب والمخطوبة شريكه ويتفاهما على نوع الحياة التي يرغبانها أجاز الإسلام التحدث والنظر إلى المرأة « وللرجل أن ينظر منها إلى ما هو ضروري أن ينظر إليه فقال الرسول - صلى الله عليه وسلم - « إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل »(٤١) .

وروى أن المغيرة بن شعبة خطب امرأة فقال له النبي : « انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما »(٤٢) .

وهذا أمر ضروري حتى لا يفاجأ أحدهما أو كلاهما بصفة في صاحبه ما كان ينتظرها منه أولا يحب أن تكون فيه فتظلم عليه الدنيا وتتراكم فوقه سحبها السوداء قائمة لا تتركه أينما حل وحيثما ذهب فيشعر بضيق كأنه وضع نفسه في سجن ، كما حدث مثل ذلك لامرأة ثابت بن قيس ولم تكن قد رأته قبل ليلة الزفاف وتحدثت عن سبب نفورها منه وإرادتها الافتراق عنه فقالت للرسول ﷺ « رفعت جانب الخباء في ليلة الزفاف فأقبل في عدة من الرجال فإذا هو أشدهم سواداً وأقصرهم قامة وأقبحهم وجها وبي من الجمال ما ترى ولست أعتب عليه يا رسول الله في خلق ودين ولكني أكره الكفر في الإسلام »(٤٣) يعني إذا لم يطلقها تخاف من الإرتداد عن الإسلام حتى يفرق بينهما . فقال الرسول - صلى الله عليه وسلم - لثابت أقبل الحديقة وطلقها تطليقة « وكان صداقها الحديقة .

فما كان سبب افتراقها إلا عدم الرؤية فلو أنها قد رأته قبل ذلك لما كانت قبلت الزواج منه ولما حدث ما حدث . أو كانت قد قبلته على ما هو عليه فلم يكن لها عذر في طلب الافتراق .

---

(٤١) التاج الجامع الأصول لأحاديث الرسول كتاب النكاح - باب ما ينبغي النظر إلى المخطوبة ٢٨٤

(٤٢) المرجع السابق . باب ما ينبغي النظر إلى المخطوبة ص ٢٨٤ .

(٤٣) صحيح البخاري حـ ٧ - كتاب النكاح ص ٦٠

لذا فعلى من يريد الزواج ويقصد من ورائه بناء بيت إسلامى أن ينظر ، ويبحث ، ويسأل ، فلا يغفل سببا من الأسباب التى يمكن أن تؤدى فى المستقبل إلى نزاع أو خلاف يهدد البيت ويزلزل كيانه ، وهذا كله ليكون بناء الأسرة على أساس متين يبقى مدى الحياة قويا مليئا بالسعادة والهناء والبهجة والسرور .

وبعد،قبل إنهاء هذا الموضوع أرى ضرورة التعرض هنا لمسألتين لهما دور فى بناء البيت الإسلامى وهما مسألة **زواج الصالح المعسر ومسألة المهر** أما فيما يتعلق بالأولى فقد علمنا فيما سبق أن الإسلام أمر الفتى باختيار الفتاة الصالحة كما أمر الفتاة وأولياءها باختيار الفتى الصالح أو بتعبير آخر أمر الرجال باختيار الصالحات كما أمر النساء باختيار الصالحين .

وقد ذكرنا حديث الرسول – صلى الله عليه وسلم – الذى يأمر أولياء الأمور بتزويج الصالحين إذ قال « إذا خَطَبَ إليكم من ترضون دينه ، وخلقه فزوجوه ألا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد »(٤٤) لأنهم إذا لم يعطوا بناتهم صالحين فسيعطونهن الفاسدين ، والفاسدون – كما قلنا – يفسدون كل شئ وبذلك يكون الآباء بوجه خاص وأولياء الأمور بوجه عام سببا لفساد الأرض ، ثم إن القيم الصحيحة تتغير بذلك طالما لا تعطى قيمة للأخلاق والدين فى الحياة الاجتماعية وبذلك يكون هؤلاء قد شجعوا الناس على الفساد وأصبحوا عائقين بين الناس وبين تمسكهم بالقيم أو يكونون على الأقل مثبطين لعزائم الناس فى التمسك بأهداب الدين والأخلاق والآداب الاجتماعية والقيم الإنسانية . ولكن تزويج الصالح قد يتطلب أحياناً بعض التضحيات والتخلى عن بعض المصالح وذلك يمكن أن يظهر بصورة واضحة فى الأمور الآتية .

الأمر الأول : إذا تقدم للخطبة اثنان من مستوى واحد فى النواحى الاقتصادية والاجتماعية ولكن أحدهما صالح والآخر طالح فينبغى أن يختار الصالح على الطالح .

---

(٤٤) سنن الترمذى ٢/ ٢٧٤ كتاب النكاح

الأمر الثانى : يكون عن طريق تخفيف المهور ، فقد يكون الطالح غنيا والصالح فقيرا ويعطى الأول من الصداق مالا يعطيه الثانى فعليهم أن يعطوا الثانى دون الأول بالرغم من قلة ماله .

الأمر الثالث : يكون عن طريق تزويج المعسر ، فى هذه الحالة قد لا يملك الفقير الصالح شيئا من الصداق ، ولكن أولياء أمور المرأة يملكون كل شئ أو ميسرون على الأقل يستطيعون أن يدفعوا تكاليف الزواج فعليهم أن يتحملوا هذه التكاليف ، ويزوجوا هذا الإنسان الفقير الصالح ، قال تعالى:

﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٤٥) والفقير اليوم قد يكون غنيا غدا والغنى اليوم قد يكون فقيرا غدا . وقد روى أن امرأة جاءت إلى رسول الله – ﷺ – تعرض نفسها للزواج فقال أحد الصحابة : « يا رسول الله إن لم يكن لك بها حاجة فزوجنيها » فقال : وهل عندك من شيء ؟ قال : « لا » والله يا رسول الله ، فقال : « اذهب إلى أهلك فانظر هل تجد شيئا » فقال رسول الله « انظر ولو خاتما من حديد » فذهب ثم رجع فقال « لا والله يا رسول الله ولا خاتما من حديد ولكن هذا إزارى فقال رسول الله – ﷺ « ما تصنع بإزارك إن لبسته لم يكن عليها منه شيء وان لبسته لم يكن عليك شئ » فجلس الرجل حتى إذا طال مجلسه قام فرآه رسول الله – ﷺ – موليا فأمر به فلما جاء قال : « ماذا معك من القرآن » قال : « معى سورة كذا وسورة كذا عددها فقال « تقرؤهن عن ظهر قلبك قال : « نعم » قال : « اذهب فقد ملكتها بما معك من القرآن(٤٦)

---

(٤٥) سورة النور ٣٢

(٤٦) فتح البارى بشرح البخارى حـ ١١ ص ٣٢ كتاب النكاح باب تزويج المعسر.

وأما فيما يتعلق بالمسألة الثانية وهي مسالة المهر أو الصـــداق . فإن الآباء وبعض الأسر تستغل هـــذه المسألة استغلالا سيئا يعود ضرره عليهم وعلى غيرهم بطريق مباشر أو غير مباشر ، فينبغى أن تناقش الصداق وما مقداره. وماحكمه ، وهل مايفعله كثير من المسلمين اليوم يتفق مع ماقى الإسلام أم لا ؟

فالصداق هو مايعطيه الرجل المرأة عند الزواج بناء على اتفاق الطرفين عند العقد أو الخطبة ، ويسمى هذا المال مهرا أو صداقاً وفريضة وصدقة ونحلة .

إن مسألة الصداق مسألة مشروعة في الإسلام لايختلف فيه أحد ، فقال تعالى : ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾ (٤٧) وقال أيضا : ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ (٤٨) وقد ذكرنا حديث الرسول السابق أنه زوج رجلا بامرأة بسورة من القرآن ، لكن ماحكم هذه المشروعية ؟

هناك رأيان رأى يذهب إلى أن الصداق واجب ولايتم العقد بدونه أوبدون تسميته ، وهذا الرأى مفضل عندى ، والرأى الثانى يذهب إلى أنه هبة من الزوج أو من الله على خلاف وبناء على هذا الرأى يصح العقد بدون تسميته أو بدونه .

ولكن مامقدار الصداق لجواز العقد؟

يوجد هنا رأيان ، رأى يذهب إلى أنه غير مقدر لا أقله ولا أكثره ويؤيد هذا الرأى الآيات والأحاديث السابقة لقد قال الرسول « التمس ولو خاتما من حديد بل أقل من ذلك جعل الرسول قراءة بعض السور من القرآن عن ظهر غيب صداقا ، وكذلك أكثره غير مقدر فقد قال تعالى ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾ (٤٩)

إذن جاز أن يكون صداقها قنطارا كما أجاز أن يكون خاتما من حديد أيضاً .

الرأى الثانى يذهب إلى أن أقله مقدر وأن أكثره غير مقدر وقد اختلف القائلون بهذا الرأى فى أقل ما فى الجيب ، فحدده أبو حنيفة ومالك بعشرة دراهم وحدده

---

(٤٧) سورة النساء ٤ (٤٨) سورة البقرة ٢٣٦ (٤٩) سورة النساء ٢٠

ابن شبرمة بخمسة دراهم » والنخعي بأربعين درهما ، وزاد بعضهم الى خمسين ، إلا أن الرأى الذى استريح اليه – كما قلت هو الرأى الأول .

وإذا كان الإسلام قد ترك حرية تحديد مقدار الصداق قلة أو كثرة للآباء فهل معنى ذلك أنه يعرك للآباء هذه الحرية ، يغلون المهور ويثقلون كاهل طالب الزواج بالديون دون أن يشجعهم على الفضيلة بتقليل المهور حتى لايعوقوا الطريق أمام المتزوجين ، والحقيقة أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – أوصى بعدم المغالاة فى المهور فقال« أعظم النساء بركة أيسرهن مئونة »(٥٠) أما إذا أراد الرجل أن يعطى أموالا كثيرة صداقاً للمرأة فهذا جائز ، وكذلك يجوز للمرأة أن تطلب ما شاءت من الصداق وليس فى ذلك شئ ولا سيما إذا كان الرجل غنيا وأعطاها عن رضى من غير إكراه .

هذا وذاك جائز ومشروع غير أن المشروعية شئ والأفضلية شئ آخر فأخذ الحق حق والتجاوز عنه فضيلة .

على أى حال فإن هذا وذاك جائز إلا أن هناك شيئاً واحداً جائز والإسلام لايوافق عليه وهو أن يأخذ الآباء خلو الرجل من بناتهم أى أن يطلب الأب أو ولى أمرها ثمنا معينا ليس من الصداق ليوافق على الزواج فإننى أعتبر هذه المسألة أبشع من خلو الرجل لأنه إذا كان خلو الرجل استغلالا فهذا استغلال وإهدار لقيمة الإنسان ، أما من حيث الاستغلال فإنه أولا يأخذ شيئا من غير مقابل والمعطى مكره فى العطاء فكأنه يتاجر بشئ لايجوز أن يتاجربه أو بعبارة أخرى أنه عملية تجارية من غير مقابل والتجارة من غير مقابل باطلة فى الإسلام ثم إن هناك بعض الآباء عندما يرون المقدم على زواج بناتهم قد وقع فى حبالها أو فى حبها أو قد يوقعون هم أنفسهم بوسائل شيطانية عند ذلك يطالبونه بما لايطيق أو بأثمان باهظة وهو لايستطيع الامتناع ، لأنه وقع فى شباك الحب لا مخرج منه ، هذه العملية تعتبر استغلالا من جهة واغتصابا من جهة أخرى وإن كانوا يظهرون هذا الاستغلال وذلك الغصب فى صورة مشروعة .

---

(٥٠) الجامع الصغير جـ/١ ح . ١/ ٤٧

أما من حيث إنه إهدار قيمة الإنسان فلأنهم فى هذه الحالة كأنهم يبيعون بناتهم كبيع البقرة ، وقد لاترضى البنت عن هذا ولاسيا إذا كانت ترغب فى خاطبها أو تحبه ، ولكنها لاتملك شيئا وقد لايحققون رغبتها إذا لم يحصلوا منه على ما يطلبونه ويعطونها إلى غيره الذى يحقق رغباتهم وقد تكون البنت كارهة إياه ولكنها رغما عن أنفها تساق إلى بيت من غير رغبة كما يساق الحيوان .

أليس هذا إهداراً لقيمة الإنسانية،قيمة المرأة،قيمة الإنسان وليس أى إنسان بل هو أقرب إنسان إليه يعتبر جزءا من لحمه ودمه .

إن كل مايؤخذ من أجل المرأة عند الزواج يجب أن يعتبر من الصداق ويجب أن يصرف على المرأة ، لأن الإسلام جعل الصداق تطبيبا لشعور المرأة وتحقيقا لرغبتها فى الزينة والبهجة ، أن المرأة تميل إلى الزينة والبهجة بطبيعتها فتحقيقا لهذه الرغبة أمر الإسلام الرجل أن يشترى لها من الزينة ما يسرها وتبتهج بها وكهدية من الرجل إليها تطيبا لخاطرها وإدخالا للسرور لنفسها ولتقوية الروابط بينهما .

ولهذا الغرض ينبغى أن تترك حرية تحديد مقدار الصداق للفتاة أو بينها وبين فتاها لأنهما صاحباالأمر وطرفاه المعطى والآخذ والمهدى والمهدى إليه .

بقى شئ آخر فى هذا الموضوع وهو أن الإسلام إذا كان قد أوصى الآباء بتخفيف المهور حتى ولو خاتما من حديد ، فإن ذلك ليس على إطلاقه هذا – فيما إذا كان الخاطب يملك بيتا يأوى إليه ومصرفا يعيش به أو كان والد الفتاة غنياً ينفق عليهما ، أما إذا كان الفتى لا يملك مأوى ولا مصرفا وليس والد الفتاة موسرا يستطيع الإنفاق عليهما فى هذه الحالة ليس مطالبا بالتخفيف لأنه بذلك يسوق بنته إلى المهالك « وكيف تعيش معه وأين تبيت » أيبيتان فى الشوارع وفى الزوايا كما نسمع ونرى بعض المتزوجين فى بعض البلاد ؟ وماذا يكون مصير حياتهم ومصير حياة أولادهم فإن التساهل فى هذه الحالة جريمة فى حق الفتاة فى نظرى ولو وافقت هى فرضاً لأنها تعتبر فى هذه الحالة غير عاقلة ولا يصح أن تزوج غير العاقلة نفسها إلا بموافقة ولى أمرها،وموافقة ولى أمرها فى هذه الحالة جريمة فى حقها .

فإذا كان الأبناء مسئولين عن تصرفاتهم بعد البلوغ بمقدار إدراكهم وإحاطتهم بالأمور الحاضرة والمستقبلة فإن مسئولية الآباء عن تصرفات أبنائهم الخاطئة أكبر لأن خطأهم ناتج عن عدم إرشادهم ومساعدتهم لرؤية الحقائق ؛ ولأن جماح الشباب والحب الأعمق قد يجعلان الإنسان أعمى عن رؤية الحقائق والأخطار المحدقة .

والخلاصة فالآباء وأولياء الأمور مسئولون عن تزويج أبنائهم ، فأب الفتاة ينبغي أن يختار لابنته زوجا صالحا أوأن يساعدها في هذا الاختيار ، ثم عليه أن يبذل من المال اللازم إن اقتضى الأمر وكان قادرا على تزويج بنته بمن يرى فيه الصلاح . وذلك إذا كان يريد أن يبني بيتاً سعيداً . لبنته وعلى أب الفتى كذلك أن يختار لابنه الزوجة الصالحة أو يساعده في هذا الاختيار وأن ينفق عليه إذا اقتضى الأمر وكان قادرا على هذا الإنفاق إذا كان يريد بناء بيت سعيد له .

ثالثاً : قداسة الروابط بين أفراد البيت

هذا هو الأساس الثالث والأخير في تكوين البيت الإسلامي ، وهذا الأساس مهم أيضا ذلك أن الإسلام لا يرى الزواج مجرد ارتباط لتحقيق مصلحة مادية أو مصلحة ضرورية للحياة المدنية فحسب بل إنه ارتباط مقدس ارتباط روحي وتطبيق لمبدأ إسلامي .

ولهذا فقد وصف الله هذا الارتباط وهذه العلاقة بالميثاق الغليظ فقال تعالى:

﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾(١)

وكذلك ارتباط الأبناء بالآباء ارتباط ديني أولا وقبل كل شيء وهو بذلك ليس كأي ارتباط بين الناس ،. وواجب الأبناء نحو الآباء ليس كأي واجب يقوم به الأفراد نحو الأفراد في العلاقات العامة بين الناس ، فهذا واجب إنساني ، وذاك فوق هذا واجب ديني ، لذا قال تعالى :

---

(١) سورة النساء ٢١

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾[٢] .

هذا الواجب وصية إلهية وقد قرن سبحانه وتعالى شكر الوالدين بشكر الله نفسه ، وكأنه سيحاسبه يوم القيامة عن مقدار شكره له بمقدار شكره لوالديه ، وقد اعتبر الإسلام عقوق الوالدين من كبائر الذنوب روى أن الرسول – صلى الله عليه وسلم قال : « ألا أخبركم بأكبر الكبائر » قالوا بلى يا رسول الله قال الإشراك بالله وعقوق الوالدين »[٣] .

وتظهر أهمية هذا الأساس فى تماسك البيت وثباته ودوامه واستقراره وقد درس علماء الاجتماع تاريخ الأسرة فوجدوا أنه لم يسد فيها الاستقرار والهدوء والثبات فى تاريخها كله كما ساد إبان تأسيسها على الأديان السماوية وتطبيقها مبادئها . وما ذلك إلا لأن هذه الأديان تبنى البيت على أساس الدين وتعطى للروابط بين الأفراد القداسة التى تربط بينهم بروابط الرحمة والمحبة . أما فى العصر الحديث ، فقد أدى ابتعاد الناس عن الأديان واستخفافهم برسالات السماء وعدم تمسكهم بمبادئها إلى تفكك نظام البيت وتدهور الحياة الأسرية فقد أصبحت الروابط مجرد عقود مدنية الهدف منها مجرد تحقيق مصالح شخصية وقتية. ولهذا بدأوا ينقضون العهود والمواثيق ويقلعون الصلات والروابط لأتفه الأشياء ولمجرد أن يروا انتهاء منافعهم وأغراضهم المادية أو عند توهم تهديدها ولا يراعون فيها إلا ولا ذمة .

ومن هنا كثر الطلاق وقد وصل فى بعض المجتمعات إلى ٦٠ ٪ و ٧٠ ٪ وبالتالى هدمت بيوت وشرد أفرادها وزادت المشكلات الفردية والاجتماعية . ولقد أدرك كبار الاجتماعيين تلك الحقيقة فيقرر مثلا الباحث الأمريكى الأستاذ « سوركون » كيف زادت نسبة الطلاق والفراق أو الهجران الزوجى عندما أصبحت تلك العلاقة مجرد ارتباط لتحقيق مصلحة مادية وزالت عنها صفة

(٢) سورة لقمان ١٤

(٣) صحيح البخارى جـ ٨ ص ٤

القداسة الروحية فيقول « إن قداسة العلاقة الزوجية تهان الآن مرة بعد مرة وبأشد فظاظة وعلانية بالنسبة للماضي حتى لقد أصبح كل بيت بمثابة محل لوقوف السيارة حيث لا ينزل الزوجان إلا ليلة أو بعض ليلة بدلا من أن يكون منزلا ينزل فيه الزوجان ويعيشان عيشة هادئة مستقرة . . . ومن كثرة حوادث الطلاق فإن مرض الهجران الزوجي فى انتشار وتقدم ويسميه الأمريكيون فى حياتهم العامة طلاق الرجل الفقير ففي هذه الأيام هناك أكثر من مليون أسرة تكابد المشاكل المترتبة على هذا المرض وبموجب الإحصائية الأخيرة يوجد فى أمريكا اليوم ٩٦٠٠٠ امرأة قد هجرت زوجها و ١٥٢٦٠٠٠ رجلا قد هجر زوجته »[٤]

وهكذا نجد حكمة الإسلام وقيمته فى تنظيم الأسرة وتأسيس البيت أكثر وضوحا من الناحية الواقعية عندما يبتعد الناس عن مبادئه ويسلكون طريقا غير طريقه ونهجا غير نهجه .

وبعد فاننا ننتهي من دراستنا فى هذا الفصل كله إلى أن بناء البيت الإسلامي السعيد يجب أن يكون قائما على هذه الأسس التي ذكرناها ودرسناها فى هذا الفصل من الكتاب

وأنه لا يمكن أن يكون هذا البناء كما أراده الإسلام إذا لم يعتمد على هذه الدعائم معاً وإلا سيكون ناقص البناء أو غير قائم على أسس يجب أن يقوم عليها . وأن سبب تفكك البيوت وتصدعها بعد يوم أو يومين من بنائها هو عدم قيامها على هذه الدعائم وعدم اعتبارها عند البناء أنها أسس لابد منها فهناك من لا يعتمد عليها إطلاقا عند البناء ومنهم من يبنى على واحد أو اثنين فقط ، فكيف تدوم حياة البيت إذا كان مكون البيت قد اتخذ هدفه منه تحقيق مصلحته الفردية الانانية دون مراعاة مصلحة المجتمع وحتى مصلحة الزوجة لا شك أنه عندئذ يحاول تسخيرها لمصلحته الذاتية دون أى اعتبار لمصلحتها واحترام شخصيتها .

وإذا هى خضعت لهذا الوضع وتحملته يوما أو أياما فهل تطيق تحمله طوال حياتها وكذلك إذا جعل الزوج هدفه الأساسى من الزواج مجرد متعة حسية

(٤) حركة تحديد النسل ص ٣٤ لأبي الأعلى المودودى

لإشباع دوافعه الشهوانية دون أى اهتمام بالجوانب الأخرى من الحياة الزوجية بوجه خاص وحياة البيت بوجه عام فإنه لا شك إذا ما أحس بعد الزواج بمدة قليلة أو كثيرة بعدم إشباع هذا الدافع بالصورة التى كان يتخيلها فإنه ولا شك يقدم على طلاقها أو هدم هذا البيت دون أى اعتبار آخر.

وكذلك إذا لم يحسن اختيار شريكة فى الحياة تتفق معه فى الجوانب المادية والمعنوية من الحياة فهل يمكن أن تدوم عشرتهما وإذا دامت لأمر ما فهل يستطيعان أن يشعرا بالسعادة فى الحياة الزوجية بوجه خاص وحياة البيت بوجه عام وما قيمة الزواج إذا لم يسعرح بعضهما إلى بعض فى النواحى الفكرية والروحية والشعورية والنظرة إلى الحياة بوجه عام. وكذلك إذا كان المقدم على بناء هذا البيت شقيا فى نفسه فهل يستطيع أن يسعد غيره وهل يمكن بناء بيت محكم إذا لم يكن أساسه سليمًا.

وأخيراً إذا لم تضم العلاقات فى البيت على أسس وروابط قوية ترتبط بالعقيدة وتلتحم بالإيمان، وبنيت على مجرد روابط مدنية ومصالح دنيوية وقتية ألا تنقطع هذه الروابط إذا لم يجدوا ما كانوا يرجون من ورائها من المصالح المادية اليومية، أو عند استنفاد أغراضهم هذه؟

وهكذا نجد أن هذه الأسس كلها ضرورية ولازمة لا يستغنى عنها لبناء بيت سليم وهى كلها ترتبط بعضها ببعض بحيث لا يمكن فصل أحدها عن الآخر.

ولهذا كله نوصى هؤلاء الذين يقدمون على تكوين بيت إسلامى بمراعاة هذه الأسس وعدم التهاون فى شأنها ولا فى شأن واحد منها إذا أرادوا دوام حياة البيت وهناءها وسعادتها.

رابعا: القيم الأخلاقية:

إن البيت إذا كانت مؤسسة اجتماعية أو مدرسة اجتماعية كما قلنا فإن أى مجتمع أو أية مؤسسة إذا لم تقم على الأسس الأخلاقية لا تقوم لها قائمة. وإذا بحثت عن فشل المؤسسات وتفكك المجتمعات وانهيار الحضارات وسقوط الأمم وشقاء البشرية لوجدت الفساد الأخلاقى عاملا رئيسيا فيها. والأسرة إذا لم تقم

على الأسس الأخلاقية كما أنها لا يمكن أن تكون أسرة سعيدة فإنها بالتأكيد ستفشل فى تربية أبنائها وخاصة من الناحية الأخلاقية ، لأنها إن لم تكن قدوة لأبنائها لا يمكن أن تربيهم بأى حال من الأحوال . لهذا يجب أن تكون القيم الأخلاقية الإسلامية أساسا للأسرة الإسلامية وأن تكون موضع احترام بالنسبة لجميع أفراد البيت أو الأسرة.وخاصة إذا كان الأمر بصدد بناء البيت السعيد أو الأسرة السعيدة فإنه بلا شك لا يمكن بناء البيت السعيد إذا لم تراع القيم الأخلاقية فيه لأن الفساد الأخلاقى سبب لشقاء الإنسان فى هذه الحياة ، كما هو سبب لفشله فيه . ولهذا قال الرسول (ص) « من سعادة المرء حسن الخلق ومن شقاوته سوء الخلق »[1] وقال أيضا « من ساء خلقه عذب نفسه ومن كثر همه سقم بدنه »[2] .

ولهذا أيضا تكلم الحكماء والمفكرون عن أهمية الأخلاق فى بناء الأمم والأسرة والرجال ويكفى أن أذكر هنا ما قاله المفكر الاجتماعى الفرنسى عن أهمية الأخلاق فى بناء الأسرة « فلو حدث مثلا أن فقدت القواعد الأخلاقية المتصلة بالزوجية سلطتها أو ضعف احترام الزوجين للواجبات التى يلتزم بها كل منهما حيال الآخر لأفلت زمام الاتصالات والشهوات التى يحد منها وينظمها ذلك القسم من الأخلاق ، ولاضطرب تنظيمها ، وتمادت نتيجة لهذا الاضطراب وهى حين تعجز عن أن تهدئ من عنفها ، مادامت قد تجاوزت كل حد تولد فى النفوس حالة من اليأس وخيبة الأمل تتبدى فى صورة واضحة فى إحصائيات الانتحار ، وكذلك لو تزعزعت أركان الأخلاق التى تتحكم فى الحياة الاقتصادية فإن المطامع الاقتصادية لا تعرف حينئذ حدا تقف عنده فتبلغ أقصى حدود الثورة والانفعال » وفى هذه الحالة يظهر صدى تلك الثورة فى ارتفاع نسبه السنوية لعدد المنتحرين » وإن الأمثلة على ذلك لعديدة »[3] . بعد هذا يطول بنا المقام

---

(١) منتخب كنز العمال فى هامش مسند الامام أحمد ١/ ١٣٢

(٢) المرجع السابق ١/ ١٣٢

(٣) التربية الأخلاقية ص ٤٣ « دور كايم ، ترجمة الدكتور السيد محمد بدوى » مكتبة مصر « القاهرة

لو حاولنا أن نذكر قيمة القيم الخلقية فى الحياة العملية وفى تحقيق السعادة للإنسان ، وقد ذكرنا طرفا منها فى الفصل الأول عند بيان شراء السعادة ، ومن شاء بعد ذلك المزيد فليرجع إلى كتابنا فى الأخلاق[٤]

---

(٤) الاتجاه الأخلاقى فى الإسلام ، ص ٩٠ وما بعدها . مكتبة الخانجى بالقاهرة ، ١٩٧٧ .

الفصل الثانى

ما يجب أن يكون عليه أهداف بناء البيت السعيد

أولًا : تكوين رباط اجتماعى متين
ثانيًا: تحقيق حاجات الطبيعة الإنسانية
ثالثًا : تحقيق الوقاية من الأمراض والانحرافات
رابعًا : إنجاب ذرية صالحة لبناء أمة صالحة
خامسًا: تطبيق مبدأ دينى وسنة نبوية .

لا يكفي حسن اختيار الشريك الصالح لبناء البيت السعيد ، بل لابد مع ذلك من وضع أهداف حسنة خيرة للزواج ولبناء البيت ، وذلك ليكون بناء البيت محكما قويا شامخا ، لا يتزعزع لهزات الأهواء والنزوات والأغراض الشخصية ، ولا يتهدم لعواطف الشهوات الطارئة تهب من هنا وهناك ،ثم لتستمر حياة البيت فى هدوء وسكونة .

لهذا وذاك رأينا من الأهمية بمكان أن نذكر هنا أهم تلك الأهداف التي يجب أن تكون واضحة أمام المقدمين على الزواج وعلى بناء البيت السعيد .ونحددها بالأهداف الآتية :

أولا : تكوين رباط اجتماعي متين :

ذلك أنه عن طريق الزواج تتكون الأسرة ، وعن طريقه أيضا تتكون الروابط بين الأسر ثم بين المجتمع ثم بين المجتمع والأجناس والشعوب والقبائل . المختلفة.ولعل الحكمة من زواج الرسول صلى الله عليه وسلم من قبائل مختلفة هى الربط فعلا بين هذه القبائل والتآلف بينها ، وقد أمر الإسلام المسلمين بالتعارف على اختلاف قبائلهم وأجناسهم ، فقال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[1]

والزواج وسيلة من وسائل التعارف والتآلف والترابط ، ولعل من أهداف الرسول صلى الله عليه وسلم – فى أمره بالزواج من غير الأقارب هو هذا الترابط وأخذ هذا فى الاعتبار له أهمية إذ أنه من عوامل دوام الرباط الزوجى لأن قطع هذا الرباط لبعض الدواعى يؤدى إلى قطع الرباط بين الأسرتين أو أكثر.

هذه الفكرة تجعلها يتحملان ما يقع بينهما من مشاحنات أو أذى ولا يقدمان على الافتراق مراعاة لما بين الأسرتين من الترابط والتآلف.

وهناك جانب آخر من الرباط وهو ربط الفرد بغيره بزوجه وأولاده ، وهذا مهم جدا فى حياة الفرد إذ أنه يقضى على شعور الفرد بالوحدة ويزيد من غير أنه من الممكن معالجة هذه الأمراض وتلك الحالات . وهناك أمر يتعلق بهذا

(١) سورة الحجرات ١٣ .

الموضوع وهو أن بعض الأفراد من الجنسين قد يشعر فى نفسه بضعف الدافع الجنسى ويدفعه هذا إلى الإعراض عن الزواج ، هذا الإعراض عن الزواج خطأ فى نظر الإسلام لأن رسالة الزواج ليس أمرا فرديا فقط كما قلنا بل هى أمر اجتماعى أيضا لأن الله عندما خلقه خلق مقابلا له من الجنس الآخر فإذا هو استطاع الحياة بدون الزواج فقد لا يستطيع الآخر وبالتالى فإن عدم زواجه يسبب حرمان الآخر أو وقوعه فى الحرام ، ولهذا شجع الإسلام على الزواج واعتبر المعرض عنه معرضا عن سنة الإسلام .

فليس للأفراد حرية فى أن يتصرفوا فى أنفسهم كما يشاءون فى المسألة . . .

هذا هو الجانب البيولوجى من الحاجة ، وهناك الجانب السيكولوجى : النفسى من الحاجة إلى الزواج أيضا ، والجانبان مرتبطان . فكما أن عدم إشباع هذا الدافع يؤدى من الناحية البيولوجية إلى تقليل نشاط الغدد الجنسية التى تؤدى بدورها إلى تقليل نشاط الجسم ، كذلك تؤدى من الناحية السيكولوجية إلى بعض الاضطرابات النفسية ، والقلق ، والانحراف عن السواء فى بعض المظاهر السلوكية ، وهذا مرتبط أيضا بالعوامل البيولوجية والبيئية والسيكولوجية .

ويمكن تقليل حدة الشهوة وأثرها عن طريق الابتعاد عن الأجواء المثيرة وعدم تناول الأطعمة المقوية لها ، وعن طريق الصوم وتربية النفس . إلا أنه ليس هناك طريق أسلم من طريق الزواج ؛ ولهذا قال تعالى وهو يعلم من خلق ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [٢] فالسكن النفسى والمودة والرحمة قدرته على تحمل المسئوليات ويجعله يواجه الحياة بشجاعة وبسالة ويزيد إحساسه بالسرور ويزيد نشاطه فى العمل لأنه يشعر فى قرارة نفسه بأنه يعمل لنفسه ولأحب الناس إليه وهم أولاده الذين انفصلوا عن نفسه وعن فلذات كبده والشعور بالوحدة فى داخل المجتمع يقلل نشاطه وفاعليته وحبه للناس . وهذا

(٢) سورة الروم آية ٢١

يؤدى بدوره إلى الانتحار عند مواجهة الصعوبات القاهرة والأزمات الشديدة فى الحياة .

ولهذا كانت نسبة المنتحرين من العزاب أكثر من المتزوجين ، وأرجع العلماء السبب إلى ما بيناه يقول هنا دوركايم المفكر الاجتماعى الفرنسى « فالمرء يزداد تعرضا لخطر الانتحار كلما انفصمت العرى التى تربطه بجامعة أيا كانت أى كلما أوغل فى الحياة الأنانية ولذلك نرى أن الانتحار ، بين العزاب يكاد يبلغ ثلاثة أضعاف عدده بين المتزوجين[٣] .

ولا شك أن الفرد عندما يشعر بالروابط المتينة والوشائج العظيمة وتراوده فكرة الانتحار عند مواجهة الأزمات يشعر أنه بذلك لا يقضى على حياته فقط بل يقضى على حياة أولاده وزوجته ، وهذا يجعله يتحمل المسئوليات والصعاب ولا يقدم على الانتحار ويقرر دوركايم أيضا أن نسبة الانتحار تتصاعد كلما ثقل نسبة عدد العائلة وأنه بين الأزواج الذين لم ينجبوا أطفالا أكثر من نسبته بين الأزواج الذين لهم أطفال وكلما يكثر عدد أطفالهم كلما تقل نسبة الانتحار[٤]

ثانيا : تحقيق حاجات الطبيعة الإنسانية :

إن الله خلق هذا الإنسان وأودع فيه حاجات أولية ، سواء كانت عضوية أو نفسية وهى الحاجات التى لابد من إشباعها وعدم إشباعها يؤدى إلى أضرار تقاس بدرجة ضرورتها . من هذه الحاجات الحاجة إلى الجنس أو الدافع الجنسى وقوة هذا الدافع كما ذكرها العلماء تأتى فى الدرجة الثالثة بعد الدافع إلى الطعام ودافع الأمومة ، ويختلف الأفراد فى درجة قوة هذا الدافع سواء كان سبب هذا الاختلاف الوراثة أو العوامل البيئية ، وقد يفقد الفرد هذا الدافع كلياً أو جزئياً ، نتيجة بعض العوامل المرضية . التى يشعر بها الإنسان إزاء زوجه تعتبر من الحاجات السيكوليولوجية التى لا يستغنى الإنسان عنها ولا يجدها فى غير الزواج ،

---

(٣) التربية الأخلاقية ص ٦٧ . دور كايم

(٤) المرجع السابق ص ٦٧

هذا السكن ليس هو السكن العقلي ، أي الخلو من المشكلات والمشاغل الذهنية وليس هو السكن المادي أي الاستقرار على شئ مريح بل هو سكن روحي وقلبي سكن روح إلى روح من جنسه وسكن قلب إلى قلب من جنسه ، فتصبح الروحان روحا واحدا ، ويصبح القلبان قلبا واحدا .

والمودة هنا ليست من نوع المودة بين الآباء والأبناء ولا من نوع المودة التي توجد بين الأصدقاء ، وكذلك الرحمة هذه الرحمة الخاصة بين الزوجين غيرها بين الناس الآخرين وإنما هي أمور خاصة بالحالة الروحية بين الزوجين وكلها تعبير خاص عن العلاقة الخاصة بين الزوجين ولا نستطيع الكشف عن ذلك فهي لذلك ، سر من أسرار الله ، ولهذا كانت آية من آياته يجدها آية من يفكر فيها ويتدبر ومن يتزوج ليجمع الروح بالروح لا الجسد بالجسد ، ومن يتزوج بمن يكون قلبها من نوع قلبه وروحها من نوع روحه ، يتزوجها باسم الله ، وغايته إتمام أمر الله وتحقيق حكمته وآياته ، ومن هنا قال بعض علماء النفس أن الاتصال غير الشرعي بين الرجل والمرأة يتم فيه اتصال الجسد بالجسد ولا يتم فيه اتصال الروح بالروح لأن الزانية تعطى بضعها ولا تعطى قلبها وروحها ،ولتتم السعادة لابد من الاتصال الجسمي والروحي معا ولهذا فالاتصال غير الشرعي اتصال ناقص بالإضافة إلى ما يعتوره من الخوف من العار ومن عدوى الأمراض والشعور بالذنب وتأنيب الضمير .

وهكذا نجد أن الزواج أمر فطرى فى الإنسان وسنة الإسلام الموافقة لسنة الحياة والكون ، فقال تعالى « الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » وقال الرسول – صلى الله عليه وسلم – « من أحب فطرتى فليستن بسنتى وأن من سنتى النكاح »(٥) .

وهكذا جاء الإسلام موافقا للفطرة ولسنة الكون ، وهكذا تلتحم سنة الإسلام مع سنة الكون .

---

(٥) الجامع الصغير جـ ص ١٦٠

ثالثا : تحقيق الوقاية من الأمراض والانحرافات :

لقد أقر جميع الأطباء أن هناك أمراضا كثيرة معدية تنتقل وتنتشر عن طريق الاتصال غير الشرعى أو بتعبير آخر عن طريق الفوضى الجنسية ، ويخصون انتقال بعض الأمراض بالزنا ويسمونها بالأمراض الزهرية أو السرية .

ولا أستطيع هنا تفصيل كل أنواع هذه الأمراض الأخيرة وأعراضها وأضرارها لأن مجالها واسع قد كتب فيها كتب متخصصة كتبها الأطباء المتخصصون . فمن شاء التوسع فيها فليرجع إليها ، ولكن سأعطى هنا فكرة موجزة عن واحد من هذه الأمراض ، وهو مرض السفلس (الزهرى) ليعرف الناس الأضرار اللاحقة بهم وبذرياتهم من ارتكاب جريمة الزنا واستفحال أمرها فى المجتمع التى لا وسيلة للقضاء عليها إلا بالزواج كما أمر الإسلام . وبمنع الفوضى الجنسية فى المجتمع ومرض السفلس من الأمراض الخبيثة لم يستطع الأطباء القضاء عليها ويتم انتقال هذا المرض وانتشاره فى ٩٠ ٪ من حالاته عن طريق الزنا ، و ٨ ٪ عن طريق القبلات و ٢ ٪ عن طريق استعمال أدوات المصاب به وجراثيم هذا المرض أدق ما يكون ، ولهذا تنتقل حتى من القبلات التى تحدث فى الجلد خدشات لا نراها بأعيننا ولا نحس بها ، ومن خبثه أيضا أنه قد لا تظهر أعراضه القاتلة أحيانا بسرعة إذ قد تظهر بعد عشرين سنة من إصابته مما يجعله فى هذه الحالة مستحيل المعالجة ، وكلما يتأخر كلما تصعب المعالجة ولا تظهر بسرعة حتى يعرض المريض نفسه للطبيب وبعض أعراضه الأولية قد يبدو بسيطا بحيث لا يرى المصاب بضرورة الرجوع إلى الطبيب وأهم أعراض هذا المرض تشويه الخلقة وظهور البثورات القارحة وآلام تفتت عظام الجمجمة وأحيانا يؤدى إلى التهاب الشرايين فى المرحلة الثانية من إصابته ، وفى المرحلة الثالثة إذا لم يداو يؤدى إلى الأمراض العصبية انحلال النخاع الشوكى والشلل العام . كما يسبب الجنون إذا انتقلت جراثيمه إلى المخ عن طريق الدم وأخيرا يكون سببا للإجهاض وقليل من الأطفال يعيشون إذا أصيبوا وهم أجنة فى أرحام أمهات مصابات به ، وهكذا لا يجنى هؤلاء الزناة على أنفسهم بل يجنون على أولادهم وعلى أزواجهم

وعلى المجتمع أخيرا ، وبالرغم من تقدم الطب ولا سيما فى أكثر الدول تقدما فى الأبحاث الطبية فلم يستطع وقاية المجتمع من انتشار مثل هذه الأمراض ، فالولايات المتحدة الأمريكية مثلا بالرغم من تشديدها الرقابة الطبية على بيوت الدعارة وعلى المومسات فهذه الأمراض تنتشر أيضا ويعانى الأطباء منها ويجدون الصعوبات فى الوقوف أمام انتشارها فى ضوء القوانين المدنية الخلقية ؛ لأن هذه القوانين تبيح الزنا بوجه من الوجوه أولا ثم إنها تفرض على المومسات عرض أنفسهن للكشف الطبى مرة فى الأسبوع فقط وهناك كشف طبى مفروض على بيوت الدعارة ولكن الكشف الطبى لا يتم على أى حال فى كل يوم ولو أنه تم فى كل يوم مرة فرضا فإنه لا يتم بعد كل اتصال » وقد علمنا سابقا أنه يمكن أن ينتقل فى الاتصال الواحد وبالقبلة الواحدة[٦] ولهذا جاء فى تقرير طبى حديث ما نصه « تزداد نسبة الأمراض الزهرية فى العالم يوما بعد يوم » وهناك ظاهرة تدعو إلى المزيد من القلق وهى أن الأمراض الزهرية : تعمل فى الخفاء فى بعض الحالات ولا سيما لدى النساء » ويبين أن فى فرنسا بلغت نسبة النساء اللائى يحملن جرثومة هذا المرض عشرة فى المائة[٧] .

وأخيرا فإن المصاب فى المرحلة الأولى لا يعرف أنه مصاب حتى يستطيع الآخر تجنب الاتصال ، وحتى ولو عرف بالإصابة فهل يقول للآخر ؟ وأين هذا الضمير عند هؤلاء ؟ ولهذا نجد الدكتور توماس باران يعبر عن كثرة انتشار تلك الأمراض الخبيثة فى المجتمع الأمريكى عندما يقرر بناء على إحصائية طبية بأن واحدا من كل أربعة أشخاص إنما يذهب ضحية الزهرى فقط بطريق مباشر أو غير مباشر[٨] .وهكذا تعجز هذه القوانين ويعجز الأطباء عن وقاية الأفراد بوجه خاص والمجتمع بوجه عام من هذه الأمراض القاتلة ، ولكن الإسلام بقوانينه الخلقية الصارمة يمنع أى اتصال غير شرعى ويجعله محرما كما يحرم على

---

(٦) انظر كتاب حياتنا الجنسية القسم السادس الخاص بالأمراض التناسلية للدكتور فريدريك كهن . ترجمة الدكتور جان بالزلى .

(٧) مجلة الحسناء عدد ٦٠١ عام ١٩٧٣ .

(٨) حركة تحديد النسل ص ٢٨ ، أبو الأعلى المودودى

العفيف الطاهر الزواج من الزانية وعلى العفيفة الطاهرة من الزانى ، فقال تعالى :
﴿ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٩) .

وربما أخالف فى ذلك أكثر العلماء إلا أن مالدى من الأدلة تدفعنى إلى تأييد القائل بعدم صحة هذا النكاح ، لأن الآية صريحة ومحكمة وغير منسوخة كما يدعى البعض ولأن الزواج من الزانى يؤدى إلى انتشار الأمراض وانتقال بعضها إلى الذرية فهذا ليس جريمة فردية فحسب بل هو جريمة فردية واجتماعية معا . وليس هذا دعوة مبالغة بل حقيقة واقعة وإذا ذكرت لكم حادثة شاهدتها بعينى جاءنى رجل ولما سأل عن تخصصى بدأ يبكى قلت ما يبكيك قال تزوجت امرأة فأنجبت خمس أطفال كلهم أصم وأبكم وأعمى . وذلك نتيجة لمرض الزهرى الذى يؤدى إلى مثل هذه الحالة ـ وذكر أنه لما عرض الأمر على الأطباء قالوا له أنك تزوجت امرأة كانت مصابة بمرض الزهرى فانتقل إليك مرضها منذ زمن وسيأتيك شلل بعد عشرين سنة ويقول والآن وقد مضت تلك المدة فبدأت أشعر ببوادر المرض كما أن امرأتى قد أصابها الصمم ، ونفس هذه النتائج لهذا المرض بينها الأطباء وأكدوها (١٠) ولهذا طالبوا بإلغاء البغاء فى معظم الدول لأن تحريم الفوضى الجنسية خير وقاية من انتشار هذا المرض (١١) وإذا أضفنا إلى ذلك رأى رول ديورانت بأن عدم الزواج يؤدى إلى الفوضى الجنسية والفوضى الجنسية تؤدى إلى ضعف النسل وهـــذا يؤدى ، بدوره إلى إخلال المجتمع وزوال الحضارة (١٢) عرف عندئذ حكمة الإسلام فإنه لا يفتح من البداية طريق انتشار هذه الأمراض الخبيثة أما تلك القوانين فتفتح هذا الطريق أولا ثم تحاول معالجتها بعد ذلك فمثلها كمثل من يعرض نفسه للجروح ثم يحاول معالجتها ، وأما الإسلام

(٩) سورة النور ٣ .

(١٠) حياتنا الجنسية ص ٢٦٩ للدكتور فريدريك كوهن

(١١) المرجع السابق ص ٢٨٥

(١٢) قصة الحضارة جـ ٨ . ول ديورانت

فلا يعرض للجروح وبالتالى لا يحتاج للمعالجة ، وأين حكمة هذا من ذاك ، فالأول لا يعرض الناس لضربات الطبيعة القاسية أما الثانية فتعرضهم ثم قد تستطيع معالجة ما ينجم عنه أو لا يستطيع .

وهكذا نجد أن رسالة الإسلام تتلاءم مع المبادئ الطبية ، لأن واضع هذه القوانين الإسلامية يعلم من البداية كل ما يضر الإنسان ثم نهاه عنه ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾(١٣) وكانت سنة الله أن بدأت الحياة الاجتماعية بالزواج بين آدم وحواء قال تعالى ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ﴾(١٤) .

فالزواج هو القانون الاجتماعى السليم ، ولن يجد الناس بديلا لهذا القانون ولهذا قد اتفقت الرسالات السماوية فى هذا المبدأ وفى تحريم الاتصال غير الشرعى .

وقد ينظر الشبان والفتيات إلى عدم الزواج نظرة الحرية وقد يحبذونه ويحبذهم مبدأ قضاء شهواتهم مع من شاءوا وكيفما أرادوا وفى أى وقت رغبوا ، هذه النظرة وتلك الفكرة قد تبدو لهؤلاء فى عنفوان شبابهم نظرة سليمة وفكرة لامعة إلا أن الأمر عند ما يئول إلى واقع عملى وبعد زوال طيش الشباب فإنهم يدركون عاقبتها الوخيمة ويدركون جيداً أنه ليس هناك فكرة أكثر فتكا بكيان الفرد والمجتمع من هذه الفكرة .

ولننظر إلى بعض المجتمعات التى تحولت فيها تلك الفكرة إلى حياة عملية لنرى النتيجة ، ولنضرب لذلك مثلا بروسيا التى سادت فيها تلك الفكرة وخاصة عند الشباب فى المراحل الأولى من حياة الفكرة الشيوعية وبوجه خاص شيوعية النساء والدعوة إلى أنه لا حاجة إلى الأسرة ولا حاجة كذلك إلى الزواج وليس هناك حب حقيقى روحى وإنما هو تعبير عن حياة جنسية مادية .

وعندما انغمس الشباب فى الحياة الجنسية دون قيد أو شرط وصرفوا كل

---

(١٣) سورة الملك ١٤

(١٤) سورة فاطر ١١

اهتمامهم فى موضوع الجنس والتفنن فيه أدرك الزعماء السوفيت خطورة العاقبة فعارضوا هذا الاتجاه ومن ضمن هؤلاء لينين الذى رأى أن هذا الاتجاه يتعارض مع اتجاه ماركس ثم « إن مسألة الحب مسألة اجتماعية وليست فردية كما يدعى الشباب أنها مسألة الجمهور تتناول حياتين ينشأ عنهما حياة ثالثة » وعاب لينين على الشباب لأنهم ضحوا وقتا ثمينا طويل المدى بغير مبرر فى موضوع العلاقات الجنسية فكان مثلهم مثل الفقير الهندى الذى يقضى حياته فى التأمل فى حرية والشباب الذين يجعلون همهم الحديث عن العلاقات الجنسية شباب لا يعول عليهم فى الاضطلاع بمهام المسئولية القومية » .

ولما خاف لينين على الشباب لضياع صحتهم وسط الهياج الجنسى وخاف أن يمتص الجنس قواهم نادى بوجوب انصراف الشباب إلى الأبحاث العلمية والرياضة البدنية ونتيجة لذلك بدأوا يقترحون الحلول لإعادة الشباب إلى صوابهم وقالوا إن الحب بين الجنسين حقيقى كما أن الحب بين الأقارب والأصدقاء والأحباب حقيقى أيضا والدليل على ذلك أن الجنس أمر حسى مرئى بينما الحب أمر تجريدى غير مرئى ثم إنه لا يمكن أن يكون الإنسان مخلصا فى حبه بين الأقارب والأصدقاء ولا يكون أيضا مخلصا فى حبه لشريكته فى الحياة ومن ثم يترتب عليه ضياع الأسرة وقالوا بالنص « إنه كلما اتسعت دائرة حبه المجرد من الجاذبية الجنسية كانت عاطفته الجنسية أشرف وعلاقته الجنسية مع شريكة حياته أنبل وأن الرجل الذى يحب بلاده ومواطنيه لا يرضى أن يكون إباحيا وتأبى نفسه أن ينظر إلى المرأة لمجرد كونها أنثى يتخذها أداة لقضاء شهواته ولذاته[١٥] .

وكذلك حين نادوا بمحاربة الغيرة بين الجنسين والأزواج لأنها تكون سبب الجرائم عجزوا عن تطبيق ذلك فى حياتهم العملية حتى الدعاة والذين تحمسوا لهذه القضية فقد انتحر كثير من الأزواج عندما وجد شريكته مع الغير وهذا نص أحدهم قبل الانتحار « زملائى وحكومتى لا أزال مؤمنا بتعاليمى وجهادى فى القضاء على الغيرة الجنسية ولكنى رغم تقدمى فى السن أحببت زوجتى الجميلة حباً مفرطا ولما كانت خيانتها الزوجية وارتماؤها فى أحضان سواى أمراً لم أعد

---

(١٥) انظر البحث بعنوان التربية الجنسية فى روسيا فى مجلة التربية الحديثة المجلد ٢١ ص ٢٥

أطيقه فقد ارتطمت سفينة حياتى بصخور صدعتها ولم يكن للحياة بعد ذلك معنى وكان لابد من أخذ حياتى بيدى فمعذرة الوداع »[١٦] .

ويقول كاتب المقال وهو أمير بقطر الذى استقاه من أبحاث باحث مختص فى شئون الأسرة وهو الأستاذ سالومون . م تيوتيلبا « لقد فطن الروس إلى أن تفكك الأسرة والإباحية يتبعها حتما تفكك الجنين وانعدام النظام والتقاليد المرعية فى الأسرة ، من هذا يتضح لنا . . هذا التحول فى سياسة روسيا حيال المبادئ الجنسية[١٧] .

والآن بعد هذا كله نؤكد للشباب مرة أخرى أنهم عندما ينساقون وراء هذه الفكرة فكرة الإباحية أو الفوضى الجنسية فانهم عند ذلك لن يجدوا حدوداً لقضاء شهواتهم من ناحية ولن يجدوا الاطمئنان النفسى من ناحية أخرى ولن يستطيعوا أن يحتفظوا بصحتهم من ناحية ثالثة ، لأن الشهوة طاقه للإنسان فإذا زالت الحواجز والضوابط لما تتبدد هذه الطاقه ، وتتلاشى ، والإنسان إذا تجرد من الضوابط والقيم المحافظة لن يستطيع أن يقف أمام شهوته الدافعة ، فكل امرأة يراها ويعجب بها يحاول قضاء وطره فيها وإذا هى لم ترغب فيه يجد الكآبة فى نفسه لأنه لم يستطع تحقيق غرضه واشباع دافعه وإذا تحقق مطلبه فى كل مرة فإنه يبدد قواه ويفقد صحته ثم يفقد إراداته والسيطرة أمام رغباته وشهواته الطاغية وبالإضافة إلى هذا يصبح همه وهم أمثاله السعى وراء النساء يلهثون وراءهن فى الشورع كالكلاب وقد تفعل النساء مثل ذلك ، وهكذا سيبحث كل واحد عن ليلاه . والتى يعتبرها ليلاه قد لا تقبل أن تكون ليلاه والعكس صحيح وهكذا دواليك .

يقرر هذه الحقيقه المفكر الاجتماعى الفرنسى دوركايم قائلا : « إن مجموع القواعد الأخلاقية تكوِّن حول كل إنسان نوعا من الحاجز الفكرى تتبدد على صخرته لجج الرغبات الإنسانية دون أن تستطيع تعديه وأن مجرد كون هذه الرغبات محصورة متحددة ليجعل إرضائها أمرا ممكنا .

---

(١٦) نفس المرجع السابق .

(١٧) المرجع السابق

فإذا ما اصطدم ذلك الحاجز بنقطة معينة ، فإن القوى الإنسانية التي ظلت حتى ذلك الحين محصورة حبيسة تنطلق من الثغرة ثائرة فائرة ولكنها لا تلبث أن تنطلق حتى يصبح من المستحيل وقفها عند حد ولا يعود في وسعها إلا أن تستمر في سعيها الأليم نحو هدف يبعد عنها على الدوام : فلو حدث مثلا أن فقدت قواعد الأخلاق المتصلة بالزوجية سلطتها أو ضعف احترام الزوجين للواجبات التي يلتزم بها كل منهما حيال الآخر لأفلت زمام الاتصالات والشهوات التي يحد منها وينظمها ذلك القسم من الأخلاق ولاضطرب تنظيمها وتمادت نتيجة لهذا الاضطراب وهي حين تعجز عن أن تهدئ من عنفها مادامت قد تجاوزت كل حد تولدت في النفوس حالة من اليأس وخيبة الأمل تتبدى على صورة واضحة في إحصائيات الانتحار ، وكذلك لو تزعزعت أركان الأخلاق التي تتحكم في الحياة الاقتصادية فإن المطامع الاقتصادية لا تعرف عندئذ حدا تقف عنده فتبلغ أقصى حدود الثورة والانفعال وفي هذه الحالة يظهر صدى تلك الثورة في ارتفاع النسبة السنوية لعدد المنتحرين(١٨) .

ثم إن تحكم الشهوات في حياة الإنسان يضيع السمو الروحي والاهتمامات اللائقة بالإنسانية فيضيع العمل الجاد المخلص من أجل المجتمع ومن أجل الوطن ومن أجل الإنسانية جمعاء ومن ثم لتختفي الجوانب الرفيعة من الحياة وتتحول الحياة إلى حياة نتنة وإلى وباء مستفحل وإلى ظلام دامس يقعون فيه ثم يحاولون الخروج فلا يستطيعون !

وقد يظن البعض أنني بذلك مبالغ في الوصف ، غير أنني أقول أن ما كتبته هنا لا يساوي عشر ما كتبه كبار الأطباء والاجتماعيين في الغرب عن مضار الزنا وآثاره وتحول الناس عن الزواج الطاهر وحياة البيت السليمة ثم ما آلت إليه الحياة الأسرية من عدم الاستقرار وما إلى ذلك وإني ما اختبرت من هؤلاء الذين سلكوا هذا الطريق الخاطئ إلا ورأيتهم نادمين على فعلتهم وغير راضين عن

(١٨) التربية الأخلاقية ص ٤٣ - دور كايم ترجمة الدكتور السيد محمد بدوي .

مسلكهم « يحسب الرائى من بعيد أنهم فى سعادة ولكن فى الحقيقة ظاهرهم سعيد وباطنهم جحيم .

ولهذا فلا نكون متعصبين للإسلام إذا قلنا إنه خير دين جاء بقوانين أو تشريعات ناجعة فى هذا المجال أنه جاء بنظام يحتفظ الناس فيه بصحتهم البيولوجية والسيكولوجية ، فلا يبددون طاقتهم لأنه منع من الافتتان وحرم الزنا وأباح الزواج » والزواج لا يهلك الطاقة لأنه ليس هناك مثيرات فاتنة » يلقاها الإنسان كل يوم فالزوجة مثيرة عادية ثم إنه وجه الإنسانية إلى الحياة الرفيعة والسمو والعمل من أجل الناس ومن أجل الدين ومن أجل الإنسانية .

ولهذا كان الإسلام نوراً أمام الناس ونهجا سليما للحياة الفردية والاجتماعية وصدق الله العظيم ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾[19] .

والزواج أخيراً فى نظر الإسلام ليس كله تكاليف وإنما إلى جانب التكاليف فيه متعة ، فالغنم بالغرم مبدأ من مبادئ الإسلام والأمل فى التمتع يدفع الإنسان دائما إلى النشاط والاستمرار فى العمل وتحمل المسئوليات والقيام بأعباء .

والإنسان بحاجة إلى التمتع فى الحياة ، أحيانا تكون الحاجة إليه جسمية وأخرى نفسية وثالثة روحية ولأنه يرفه عن الإنسان ويسرى عنه .

ولهذا أباح الإسلام التمتع فى جميع مناحى الحياة ولكن فى حدود الحلال أو التمتع الطيب لا الخبيث منه ، فقال تعالى ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾[20] وقال الرسول « الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة »[21] وقال تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[22]

---

(١٩) الأنعام ١٢٢ (٢٠) الأعراف ٣٢

(٢١) رواه مسلم ٢ / ١٠٩٠ كتاب الرضاع (٢٢) سورة الروم ٢١

رابعا : **إنجاب ذرية صالحة لبناء أمة صالحة :**

هناك غرضان هامان من الإنجاب ، الأول تحقيق حاجة فى نفس الفرد فالإنسان يحب أن يرى صورة نفسه فى ولده ويرغب أن يخلفه فى الأرض يرثه ويأكل ثمار أتعابه فمن هنا كانت الأولاد زينة كما أن المال والجاه زينة قال تعالى « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » والتمتع بزينة الدنيا مباح – كما قلنا – طالما تؤدى حق الله وحق العباد .

والغرض الثانى هو إنجاب ذرية صالحة لتعمير الأرض واستمرار الأمة ودوامها ، فإن الله خلق هذه الدنيا وخلق الناس وأمر بالزواج لتدوم هذه الحياة على نحو ما ويعيش الناس على نمط من الحياة الاجتماعية الصالحة وقد دعا الإسلام إلى تحقيق هذا الهدف النبيل بوسائل منها تشجيع الآباء على التربية الصالحة ، واعتبر تكوين ذرية صالحة صدقة جارية فقال : الرسول ﷺ « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة ، صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له »(٢٣) وقال أيضا « ما ورث والد ولداً خيراً من أدب حسن »(٢٤) وباعتبار أن البيت المدرسة الأولى لتعليم الأولاد دعا الرسول إلى تربية من ليس لهم من يربيهم من أبناء وبنات المسلمين فقال « من عال ثلاث بنات فأدبهن وزوجهن وأحسن إليهن فله الجنة »(٢٥) وذلك أمر لابد منه لبناء خير أمة صالحة .

خامسا : **تطبيق مبادئ إسلامية وسنة نبوية :**

من أجل كل ما سبق جعل الإسلام الزواج مبدأ من مبادئه وجزءا من شريعته . فمن عدل عن الزواج وتركه من غير عذر فقد ترك جزءا من الدين ، ولهذا دعا الرسول صلى الله عليه وسلم الشباب إلى الزواج فقال : « يا معشر

---

(٢٣) صحيح مسلم بشرح النووى ١١/ ٨٥ ، باب الوصية .

(٢٤) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٨/ ١٠٦ كتاب الأدب

(٢٥) سنن أبى داود ٤/ ٤٥٩ كتاب الأدب

الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطيع فعليه بالصوم فأنه له وجاء »(٢٦) .

ولقد حدد الرسول فى هذا الحديث الغاية الدينية من الزواج فى هدفين الأول : أنه يجعل الناس يغضون أبصارهم عن النظر إلى المحرمات .

والثانى : أنه وسيلة لحفظ الناس من الوقوع فى الزنا . غير أن الإسلام إذا كان قد شجع على الزواج فليس ذلك على الإطلاق بل إنه مقيد بشرط توفر الإمكانيات للقيام بأعباء الزواج وقد عبر الرسول صلى الله عليه وسلم - عن هذه الإمكانية بالباءة وهى الكفاية للقيام بالمسئوليات الزوجية ، ومن لم تتوفر عنده هذه الكفاية فليس مطالبا دينيا بالزواج ولا يكون مسئولا عن عدوله عنه ، بل إن الإقدام على الزواج بدون توفر الشرط لا يجوز وقد نتج عن زواج هؤلاء الذين لا يملكون هذه الكفاءة مشكلات اجتماعية فلم يضروا أنفسهم فقط بل أضروا أولادهم ومجتمعهم وزوجاتهم أيضاً فكم نرى من أولاد هؤلاء هائمين على وجوههم فى الشوارع لا يجدون مأكلا ولا ملجأ ثم يخرجون عالة على المجتمع . ولهذا فقد أمر الله هؤلاء بالاستعفاف وعدم الزواج فقال تعالى:

﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾(٢٧)

وهنا تحدث مشكلة عند عدم وجود المال وهى ماذا يفعل الشاب فى عنفوان شبابه ؟ وقد قلنا إن عدم إشباع هذا الدافع يضره فإذا منعناه عن إشباعه يحصل عنده كبت وهذا ضار وإذا أبيح من غير زواج فهذا ممنوع فى الإسلام لننظر إلى الإسلام ، كيف حل هذه المشكلة : وسنجد أنه قد حلها بثلاثة طرق :

الطريق الأول : الصوم ، فالصوم يقلل وطأة الشهوة ويضعف دافعها ، وقد يزول هذا الدافع مدة الصوم وبذلك لا تبقى هناك مشكلة لأن المشكلة تحدث عندما يرغب الإنسان فى الوصول إلى هدف ويحول بينه عائق يعجز عن إزالته » وبذلك لا يحدث عنده أى صراع نفسى .

---

(٢٦) فتح البارى بشرح البخارى ١١/ ٨ كتاب النكاح - صحيح مسلم ٢/ ١٠١٨ كتاب النكاح

(٢٧) سورة النور ٣٣

هذا من جهة ومن جهة أخرى ، فالصوم له إيحاء ذاتى لأن الصائم يشعر بأنه يتعبد لله ويرضى خالقه وأنه سيدبر له ما يحقق رغبته وأنه إن لم يتزوج فى هذه الحياة فانه سيتمتع فى الآخرة ، بما هو خير وأبقى » ومادام الإنسان يشعر بأن مشكلته ستحل إن عاجلا أو آجلا فإنها لا تسبب أمراضا نفسية ، وبذلك فالصوم يحل المشكلة من الناحية العضوية والنفسية معا .

والطريق الثانى : الاستعفاف والاستعلاء وهو كف النفس عن ارتكاب جريمة الزنا تساميا بالنفس واستعلاء على الرغبات الشهوية الدنيئة وحباً للفضيلة ويقول علماء النفس إن ترك إشباع الدافع الجنسى خوفا من السلطة يؤدى إلى الكبت ، أما إذا كان بسبب الاستعلاء أى عن طريق النظرة إليه على أنه أمر قبيح لا يليق به وأنه ضار بالصحة ، فهذا لا يضر لأنه فى هذه الحالة لم تبق مشكلة نفسية .

هنا نجد خطأ كثير من الدارسين فى فهم نظرية فرويد فى الكتب فظنوا خطأ بأنه عندما تكلم عن مضار الكبت قصد أن أى امتناع عن الإشباع الجنسى ضار يؤدى إلى المرض النفسى مع أنه أيد فكرة الاستعلاء بأنه خير علاج يقول هنا وليم مكدوجل «فالإعلاء عملية من عمليات تكوين الخلق ونتيجة من نتائجه ومع أن كتابنا الأوائل لم يغفلوا أمره إغفالا كلياً فإن فرويد وأتباعه قد أصروا على عظم شأنه » هذا وإنا لم نفهم الإعلاء بعد حق فهمه كافيا يساعدنا مساعدة فعالية على أن نتحكم فى هذه العملية ونوجهها ، ومع ذلك فهى بلا ريب عملية بالغة الأهمية فى تكوين الخلق »[٢٨] .

ويرد وليم مكدوجل على هذا الفهم الخاطئ بين الناس حول مبادئ فرويد قائلا « ولكن لسوء الحظ انتشرت بين الناس مبادئ فرويد بشكل غامض انتشارا واسعا وكذلك انتشرت استنتاجاته الخاطئة فيها وأيدها كثير من المؤلفين فمن بين هذه التأويلات الخاطئة كانت أخطار الكبت ومساوئه الضارة هى التى انتشرت بين الناس انتشارا واسعا وحظيت منهم بالقبول وذلك لأنها أجازت للناس

(٢٨) الأخلاق والسلوك فى الحياة ص ١١٢ . وليم مكدوجل

الانهماك فى إشباع رغباتهم بلا قيد وأعفتهم من كل جهد لضبط النفس . . .

وإنى لأؤكد للقارئ بأننى بذلت جهدى لكى أستوعب كل ما هو سليم فى تعاليم فرويد وقد جاهدت ببسالة لفهم الحقائق المتصله بنظرية الكبت وأحب أن أؤكد للقارئ أيضا أنه لا فرويد ولا غيره من المحللين النفسيين العقلاء يستصوب تلك الاستنتاجات الشائعة التى أشرت إليها بل هم يدركون أن قمع الانفعالات هو أساس المدنية كما قال أحد رجال التحليل النفسانى فى صيغة بليغة موجزة : « فبدون القمع بمعناه الواسع العام وبدون كبح النزعات وضبط النفس وبدون اختيار مقصود بين الخير والشر وبين الخير الأسمى وبين الخير الأدنى منه وبغير القوانين والتقاليد والآداب المرعية لا يمكن أن يكون هناك سوى الفوضى وتوحش فى أسوأ صوره[٢٩] .

وقد تكلم علماء النفس عن أثر العفة فى حياة الإنسان إذا وجهت تلك الطاقة الشهوية إلى الخير كان لها نتائج عظيمة فى ميدان الفن والآداب والتقدم فى العلوم ويقول وليم مكدوجل أيضا « وبدلا من أن ينغمس الإنسان فى نزعاته الجنسية مع أية امرأة تخطر لخياله الهائم فقد يمكن أن يصبح محبا وفيا باذلا الطاقة التى تنبع من قوة مشاعره فى إنتاج أعمال فنية رائعة ... وقد يبدأ فى أن يكوّن لنفسه مكانة فى المجتمع أو يقوم بانجاز عمل عظيم أو ينال من المجتمع شرفا له واعترافا ... وقد يضاعف جهوده فى فنون الرياضة أو فى عالم التجارة أو الفن أو فى دنيا العلوم وفى كل أوجه نشاطه هذه تكون الطاقة التى تدعم عملياته العقلية وتضاعف من حيويته هى نشاط نزعته الجنسية وعوضا عن أن يجد الدافع الجنسى منفذا عمليا مباشرا له تنتشر طاقته وتنصرف فى عدة مسالك للنشاط الأكثر سموا »[٣٠] .

ويتكلم الدكتور فريدريك كهن عن فوائد العفة فيقول : « تعتبر العفة من الناحية النظرية الصرفة أفضل حل للمشاكل الجنسية التى تهدد العزاب والبكم الأسباب :

---

(٢٩) الأخلاق والسلوك فى الحياة ص ٥٤

(٣٠) الأخلاق والسلوك فى الحياة ص ١١٣ — ١١٤

١ – تنجى من زلات الحب الرئيسية عدوى الأمراض الزهرية والحمل غير المرغوب وأخطار الإجهاض .

٢ – تنجى من خسائره الثانوية التدريج المتتابع الذى يؤدى إلى البغاء ومصاريف الحمل والولادة غير الشرعية والاضطرابات النفسية .

٣ – تستطيع العفة رفع شأن الأخلاق وتقوية الحياة الداخلية . إنها الطريقة الفضلى لإرضاء الذات بالذات وهى بلاشك ممتعة أكثر من متعة الشهوة الجنسية إنها متعة السيطرة على النفس فلا ارتماء فى أحضان المشبوهين ولا خطر يحيط بالصحة ، كما يتكلم عن مضار الحياة الجنسية الشاذة مثل الاستمناء ويقول « فالحياة الجنسية والاستمناء يسببان انحطاطا عصبيا[٣١]

ولهذا كله فقد رفع الإسلام شأن العفة والاستعلاء فقد وصف الزنا بالفاحشة فقال تعالى ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾[٣٢] فقد استقبح شأن الزنا أو عملية الزنا ونفر النفس الإنسانية منها وحثها على الاستعلاء على الغريزة وهذا الحل من الناحية النفسية أفضل لكن مع ذلك قد يعترض هنا بأن العفة تقلل من النشاط الجنسى نقول وليس فى ذلك ضرر إذ أنه سيعود إلى وضعه الطبيعى بعد الزواج .

الطريق الثالث : أمر الإسلام أولياء الأمور بتيسير تزويج بناتهم وأبنائهم إن كانوا فقراء لا يستطيعون الإنفاق فقال تعالى : ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[٣٣]

وقال الرسول : (ص) وإذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه[٣٤]

---

(٣١) حياتنا الجنسية ص ٣٣٣ – ٣٣٥

(٣٢) سورة النساء ٢٢

(٣٣) سورة النور ٣٢

(٣٤) صحيح الترمذى جـ ٣ ص ٣٠٥

وقال صلى الله عليه وسلم « ثلاثة حق على الله عونهم المجاهد فى سبيل الله والمكاتب الذى يريد الأداء والناكح الذى يريد العفاف[٣٥] .

وقال الفقهاء إن لم يعن أولياء الأمور على تزويج هؤلاء العاجزين عن المال فعلى بيت المال أن ينفق عليهم ويزوجهم ؛ لأن الزواج كما قلنا ضرورة فردية واجتماعية فلا ينبغى إهماله .

وعلى المجتمع أن يساعد الفقراء سواء بالبذل أو إيجاد عمل لهم حتى لا يبقوا بدون الزواج ويكون ذلك سببا لانتشار الزنا وبالتالى لانتشار الأمراض[٣٦] .

فالزواج كما هو ضرورة اجتماعية فهو كذلك من واجبات المجتمع نحو أفراده .

الطريق الرابع : أن يبذل الفرد كل إمكانياته وطاقته للحصول على مكسب حلال يستطيع به أن يقوم بنفقات الزواج ، ومن جد وجد ولو تأخر فى ذلك وعلى المرء أن يعمل لينفق لا ليأخذ فقال الرسول « اليد العليا خير من اليد السفلى » وقال أيضًا « إن الله يحب لكم معالى الأمور وأشرافها ويكره سفافها[٣٧]

ثم إن الحرمان من الحياة الزوجية وشعور المرء بأن الاتصال غير الشرعى حرام يدفعانه إلى الجد والمثابرة لإعداد حياة كريمة يستطيع فيها تحقيق متعة الحياة الزوجية الشريفة .

وهكذا نجد أن الإسلام لا يجد حلاً للمشكلات بل يجد ويقدم عدة حلول ليأخذ كل فرد بمايراه مناسباً ولائقا به حسب ظروفه وإمكانياته .

---

(٣٥) التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول – كتاب النكاح جـ ص ٢٧٩

(٣٦) رياض الصالحين – باب الكرم والجود/ ٢٤٥

(٣٧) الجامع الصغير جـ ١ ص ٧٥

الفصل الثالث

تنظيم حياة البيت السعيد إداريا وماليا واجتماعيًا

أولا : تنظيم الشئون الإدارية

ثانيا : تنظيم الشئون المالية

ثالثا : تنظيم العلاقات الزوجية

رابعا : تنظيم العلاقات الأبوية

خامسًا : مبادئ تعامل أفراد البيت

سادسًا : مظاهر الحياة فى البيت

سابعًا : تنظيم العلاقات الجيرانية

ثامنًا : نظام حماية البيت من الاعتدا

تاسعًا : المسئولية العامة عن نظام البيت

أولا : تنظيم الشئون الإدارية

البيت يعتبر أصغر وحدة اجتماعية وهو فى نفس الوقت يعتبر أهم مؤسسة اجتماعية يتكون منها أفراد المجتمع ، فمؤسسة البيت ليست كالمؤسسات الأخرى تؤسس من أجل أهداف اقتصادية أو إدارية وإنما تؤسس من أجل صناعة الرجال وتكوين مجتمع سليم البنية قوى الشخصية : ولكن البيت كمؤسسة لابد أن يكون له نظام ليؤدى دوره كما ينبغى ، هذا النظام لابد من أن يكون متكاملا من الناحية الإدارية والاقتصادية والتنظيمية والاجتماعية والتربوية باعتبار أن هدفه الأساسى هو التربية وتكوين شخصية إنسانية متكاملة .

إذا كان الأمر كذلك فكيف نظم الإسلام البيت من هذه النواحى السابقة ؟

ولنأخذ تنظيمه من الناحية الإدارية ، فمن هو مدير البيت أو رئيسه ؟ وما هو حدود سلطاته والهدف من إعطائه هذه السلطة وما هو المبدأ الذى ينبغى أن يسير عليه ؟

كل هذه الأمور سنبحثها فى هذا الموضوع :

أن من مبادئ الإسلام فى التنظيم الاجتماعى أن يكون لكل جماعة مدير أو أمير مهما كانت كبيرة أو صغيرة ولو كانت عبارة عن اثنين فقال الرسول – صلى الله عليه وسلم – « إذا خرج ثلاثة فى السفر أمروا أحدهم حتى الإثنان إذا خرجا أمرا أحدهما » [1] وإذا كان يأمر بجعل أمير فى أصغر مجتمع أو أصغر جماعة مهما كان الهدف من الاجتماع ومهما كانت مدة الاجتماع سواء كان قصيرا أم طويلا وإذا كان يأمر باختيار أمير أو رئيس فى مثل هذه الجماعة المسافرة ، فكيف لا يأمر باختيار مدير لإدارة شئون مجتمع دائم كمجتمع البيت طالما قد قدسه وقدس الروابط بين أفراده وعظم الميثاق بينهم .

---

(١) الجامع الصغير جـ١ـح. ١/ ٢٤

والرئاسة ضرورية لمجتمع البيت كي تدبر شئونه وتدبر كل ما يحتاج إليه وتدافع عن كيانه وتسوسه سياسة حكيمة عادلة وتقود أفراده قيادة رشيدة فيؤدى كل فرد واجبه كما ينبغي ، وتعطى كل ذى حق حقه وتعاقب المنحرف وتحل المشكلات لصيانة البيت من الزلل والتفكك وليحيا حياة هادئة مستقرة .

ولا شك أنه لا يصلح كل إنسان فى المجتمع لهذه الوظيفة إذ لابد أن يكون هذا الإنسان قوى الشخصية نافذ البصيرة حكيما فى تقديره وتدبيره يضع الأمور فى مواضعها لا تعميه عن رؤية الحقائق الظروف الشديدة ولا تعوقه عن استعمال الحكمة العواطف والمؤثرات النفسية والاعتبارات الشخصية ولا تزحزحه عن ثباته القوى المضادة .

فنحن لا نسند القيادة عادة فى أى أمر من الأمور إلا لمن نرى فيه توفر هذه الصفات . وإذا نظرنا إلى مجتمع البيت نرى الشخصين البارزين فيه هما الأب والأم باعتبارهما أساس هذا المجتمع .

ولا يمكن أن يكون فى مجتمع رئيسان أو مديران فى مستوى واحد من السلطة والمركز وليس هذا فى نظام المجتمع فقط بل فى نظام الكون أيضا وصدق الله العظيم « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » أى لو كان فى السموات والأرض إله مع الله لفسدتا واختل نظام الكون العام .

إذن لابد من أن يكون أحد الشخصين رئيسا ومديرا فى الدرجة الأولى من السلطة والمركز فأيهما أحق بهذا المنصب ؟ ولماذا ؟

إذا نظرنا إلى رأى الإسلام فى تنظيم البيت واختيار رئيس لهذا ، لتنفيذ هذا النظام وجدنا أنه اختار الأب لهذا المنصب واختار الرجل بوجه عام فى الرئاسة عن المجتمع الإسلامى الكبير .

قال تعالى : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ (٢)

---

(٢) سورة النساء آية ٣٤

وقال أيضا ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٣) .

والتفضيل فى الآية الثانية وإن كان مقيدا فى مجال الطلاق وإعطاء حق الرجعة للرجل فقد أعطاه على كل حال حقا زائدا للرجل وهو حق الطلاق والرجعة وهذه درجة فى السلطة أعطاها للرجل ولم يعطها للمرأة .

لا ينبغى أن نكون هنا من المتطرفين فى الميل إلى جانب الرجل ولا فى الذهاب مع المرأة وإنما يجب أن ننظر إلى هذه المسألة الاجتماعية الخطيرة نظرة موضوعية لنعطى كل ذى حق حقه ولنضع كل إنسان فى الموضع الذى يناسبه على حسب ما يوجهنا العلم لا على حسب ما يوجهنا التعصب لأحد الطرفين ولا على حسب ما توجهنا أهواؤنا ونزواتنا فهذا الموضوع يتعلق بالتنظيم الاجتماعى ولم يزل يعتبر من المشكلات الاجتماعية الهامة فى عصرنا كما كان مشكلة اجتماعية فى العصور القديمة وإن كانت هذه المشكلة تختلف من حيث الدرجة من مجتمع إلى آخر فى الماضى والحاضر .

ولننظر أولا إلى وجهة النظر الإسلامية فى تفضيله الرجل على المرأة فى بعض نواحى الحياة الاجتماعية وكيف راعى الفروق فى بعض التنظيمات ولم يجعل الرجل فى درجة واحدة مع المرأة فى الأحكام والموضوعات ولنعرف الحكمة فى ذلك .

ثم بعد ذلك ننظر إلى رأى العلم فى هذا الموضوع ونتائج الأبحاث التى أجريت لمعرفة طبيعة الفروق الفردية بين الأفراد بوجه عام والفروق بين الجنسين بوجه خاص ، وسوف نقتصر فى عرضنا على هذا النوع الأخير من الفروق ، لنرى هل تفضيل الإسلام الرجل على المرأة قائم على أمر دينى فقط لمصلحة تنظيم معين للمجتمع من زاوية دينية معينة أم هو قائم على أمر دنيوى ومصلحة اجتماعية وقضية علمية مسلمة أيضا .

---

(٣) سورة البقرة آية ٢٢٨ .

فإذا بحثنا عن سبب تفضيل الإسلام الرجل فى هذا الموضوع بالذات لوجدنا أنه يقوم على سببين رئيسيين :

الأول : تفضيله عليها فى أصل الخلقة بخلق بعض صفات وقدرات فيه وعدم خلقها فيها مما يجعله أنسب للقيام بوظيفة الرئاسة والإدارة كما فضل المرأة على الرجل فى أصل الخلقة بخلق بعض القدرات والصفات التى تجعلها أنسب للقيام بوظيفة أخرى . وسوف نبحث عن هذه القرارات ، والصفات فيما بعد .

الثانى : سبب تفضيل الرجل فى هذه الوظيفة هو الإنفاق « إنفاق الرجل على المرأة فقد خلق فى الرجل بعض القدرات العقلية والبدنية كما أشرنا وهى تجعله أقدر على كسب المال وجلبه وتحمل الصراع فى سبيله » من المرأة وبذلك كلف الرجل بأعباء لم يكلف بها المرأة فكان فى هذا المبدأ إرهاق للرجل وإراحة للمرأة ولابد من أن يكون لهذا التعب ميزة وحق مقابل وإلا كان الرجل مظلوما لأن التسوية فى جميع النواحى من عدم التسوية فى التكاليف تسوية لا تقوم على أساس من العدل .

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (٤) والإفضال يتبعه عادة عض تبعات على المتفضل عليه،فالله له علينا الفضل ولهذا فعلينا له الطاعة والشكر .

والرئيس عندما يدبر أمورنا ويحل مشاكلنا بحكمة وعدالة فعلينا أن نطيع أوامره . فافضال من جهة يتبعه طاعة من جهة أخرى ولهذا قال تعالى﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ (٥) أى صاحب الأمر والتدبير .

ثم إنه من مصلحة النظام الأسرى أن يطيع أحدهما الآخر وأولى أن تطيع المرأة الرجل لما قلنا ولما سنقول فيما بعد وينبغى أن يلاحظ أن الأفضلية هنا ليست أفضلية فى الإنسانية – كما فهمها البعض وعمل بمقتضى هذا الفهم بعض الشعوب وبعض الأفراد – فإذا كان الإسلام قد أمرنا بالطاعة لرئيس الدولة

(٤) سورة المائدة ٥٠ (٥) سورة النساء ٥٩

العادلة فليس ذلك لا فضليته علينا من الناحية الإنسانية بل للمصلحة الإدارية والاجتماعية لا أكثر ولا أقل ، وكذلك طاعة المرأة للرجل لا تقلل من إنسانيتها أو تغض من قيمتها الأدبية أو كرامتها الشخصية .

ولننتقل الآن إلى البحث العلمي فى طبيعة الفروق بين الجنسين من النواحي البيولوجية والفسيولوجية والسيكولوجية .

أما من الناحية البيولوجية ، فالأبحاث العلمية كشفت لنا عن وجود الفروق بين الجنسين فى طبيعة التكوين المادى لجسم كل منهما من بداية الخلقة .

فالخلية التي يتكون منها الرجل تختلف عن طبيعة الخلية التي تتكون منها المرأة وذلك بسبب الاختلاف فى بعض المواد الخاصة بالذكورة فى الخلية الذكرية والمواد الخاصة بالأنوثة فى الخلية الأنثوية وهي الكروموزومات والجينات التي تحتويها خلية كل من الجنسين وهذا الاختلاف فى الخلية الأولى التي يتركب منها الجسم ينشأ عنه اختلاف فى المظاهر الجسمية والشخصية ومن مظاهر هذا الاختلاف هو الاختلاف فى وزن الدماغ بين الذكر والأنثى فقد أجمع الباحثون – كما يقول العقاد – على أن معدل وزن الدماغ فى الأوروبيين يكون متوسطه فى الرجال ١٣٦٠ غراما وفى النساء ١٢٠٠ غرام[٦]

وأما الاختلاف من الناحية الفسيولوجية أى من ناحية الوظيفة العضوية للجسم فالبحث العلمي يثبت ذلك الاختلاف وهذا أمر طبيعي يترتب على الاختلاف البيولوجي منطقيا وعلميا ؛ لأنه إذا كان هناك اختلاف فى التركيب الجسمي فلابد من أن يكون هناك اختلاف فى وظائف الأعضاء من حيث النوع أو الدرجة .

وأخيرا يوجد هناك أيضا اختلاف سيكولوجي وهذا يشمل الجانب النفسي وجانب القدرات العقلية وغيرها .

أما فى الجانب النفسي فهناك اختلاف فى الدرجة لا فى النوع .

---

(٦) الإنسان فى القرآن – عباس محمود العقاد ص ١٥٦

وقد ذهب بعض العلماء إلى وجود اختلاف فى النوع حتى فى هذه الناحية أيضا مثل الشعور بالأمومة الذى يعتبر فى الدرجة الثالثة من قوة تركيب الحاجات الأولية الحيوية ويقابله عند الرجل الشعور بالوالدية .

ولننتقل **الآن إلى أهم** [redacted] **وهى الاختلاف** بين الجنسين فى الذكاء أو **القدرات العقلية** ولربما أطنب فى تناول هذه النقطة هنا لا لأهميتها فى هذا الكتاب ولكن لأهميتها فى هذا الموضوع بالذات . لأن النقاش قد طال فيه ، كما أن المغالطة قد زادت وقد أثر هذا وذاك فى نظر المرأة إلى الرجل ونظر الرجل إلى المرأة كما أثر فى تنظيم الأسرة وتنظيم المجتمع أيضا ، وبناء على ذلك قد وضعت الأمور فى موضعها أحيانا وفى غير موضعها أحيانا أخرى فلابد من معالجة هذه المشكلة علاجاً علميا وأن توضع الأمور كلها فى موضعها وأن تنظم تنظيما سليما بناء على ما يشير إليه العلم لا بناء على التعصب أوالأهواء النفسية والرغبات الشاذة .

وقبل بيان نتائج التجارب العلمية فى هذه المسألة يحسن بنا أن نحدد معنى الذكاء .

فقد عرف الذكاء سبيرمان « بأنه القدرة على إدراك العلاقات : العلاقات البسيطة والصعبة الخفية »(٧) .

وعرفه ركسنايت « بأنه القدرة على اكتشاف الصفات الملائمة أو الأفكار وعلاقاتها بعضها ببعض »(٨) .

وعرفه ستوارد بأنه نشاط عقلى عام يتميز بالصعوبة والتعقيد والتجريد والاقتصاد والتكيف الهادف والقيمة الاجتماعية والابتكار وتركيز الطاقة ومقاومة الاندفاع العاطفى وقد استقر مفهوم الذكاء أخيرا على يدى تيرستون على أنه قدرة القدرات وموهبة المواهب والمحصلة العامة لجميع القدرات العقلية المعرفية الأولية .

---

(٧) سيكولوجية الفروق الفردية للدكتور يوسف الشيخ ص ١٠٣

(٨) سيكولوجية الفروق الفردية للدكتور يوسف الشيخ ص ١٠٥

أما نتائج التجارب التى أجريت لمعرفة الفرق فى الذكاء والنمو العقلى بين الجنسين فكانت كالآتى :

أن الإناث يتعوقن على الذكور فى النمو العقلى فيما قبل المراهقة ، ويزداد النمو العقلى عند الذكور أكثر من الإناث خلال فترة المراهقة ثم يتقارب الجنسان فى المستوى العقلى العام وتبدو . الفروق فى المدى ودرجة النمو فيزداد عند الذكور ويقل عند الإناث ولذا تزداد نسبة العباقرة عند الرجال ، وضعاف العقول عند الإناث(٩) .

كما وجدوا تفوق الرجال فى بعض القدرات الطائفية وتفوق الإناث فى بعض القدرات الأخرى . فالرجال يتفوقون على الإناث فى النواحى الجسمية واليدوية والميكانيكية وفى تحصيل العلوم الطبيعية وفى نواحى الاختراع والابتكار والسياسة والاقتصاد .

وتتفوق الإناث على الذكور فى الأدب والموسيقى والفن والأعمال الكتابية والخدمة الاجتماعية والتدريس فى المراحل التعليمية الأولى كمدارس الحضانة ورياض الأطفال ، والمدارس الابتدائية .

وقد عملت إحصائية فى روسيا وأمريكا لمعرفة نسبة المدرسات فى المدارس فوجد أن نسبتهن وصلت إلى حوالى ٧٠ ٪ من القائمين بالتدريس فى المراحل الأولى من التعليم بينما تقل نسبتهن كلما ارتقى مستوى التعليم . فى الجامعة مثلا أقل من الثانوية . وفى الثانوية أقل من الابتدائية وهكذا(١٠)

ويرتبط بما سبق الفروق بين الجنسين فى الميول فقد أثبتت الأبحاث التى أجراها بعض العلماء مثل ترمان ومايلز وسترونج وغيرهم لمعرفة الفروق بين الجنسين فى الميول .

---

(٩) انظر كتاب الذكاء للدكتور فؤاد البهى السيد ص ١٤٨

(١٠) التربية المقارنة للدكتور وهيب سمعان . موضوع الوضع الاقتصادى والاجتماعى للمعلمين فى روسيا وأمريكا .

إن الذكور أميل إلى النشاط الجسمي والمسائل العلمية والميكانيكية والأمور السياسية والتجارية والاقتصادية والميل إلى المغامرة والإثارة والبطولات والجندية .

وإن الإناث أميل إلى الفن والأدب والموسيقى والأعمال الكتابية والتدريس والخدمة الاجتماعية وإلى أوجه النشاط المتعلقة بالمنزل والحياة الأسرية والاهتمام بنواحي الجمال والزينة والألوان .

وقد تبين من بحث العلاقة بين الميل وإتقان العمل أن معلومات الرجال كانت أدق فيما يميلون إليه ، كما أن معلومات الإناث كانت أدق فيما يملن إليه .

أما الفروق فى النواحي العاطفية والانفعالية :

فقد أثبتت الأبحاث التى أجريت لمعرفة الفروق فى هذه الناحية أن الإناث أكثر تعرضا للخوف وأكثر إظهارا للعطف من الرجال . فى حين أن الرجال يبدون أكثر قسوة من النساء فى الحالات العنيفة وأقل تعرضا للخوف منهن فى المواقف الخطيرة .

وفيما يتعلق بالانبساط والانطواء وجد أن الإناث أميل إلى الانطواء من الرجال كما وجد أن بعض الرجال يميلون إلى الأنوثة وأن بعض الإناث يملن إلى الذكورة[11] .

وأهم النتائج التى نخرج بها من هذه الأبحاث والتجارب والاختبارات نلخصها فى النقط الآتية :

أولا : إن الذكاء أو القدرة العقلية لها صفات هامة منها الإدراك بوجه عام ، واستيعاب المعلومات وحفظها والعمل بمقتضى هذا الإدراك وتلك المعلومات وهذه الناحية أميل إلى الحكمة لأن الحكمة هى العمل بالعلم كما تقتضى المواقف والأحوال .

ثانيا : أن الفروق بين الذكور والإناث فى القدرات العقلية فروق فى الدرجة

(١١) التوجيه التربوى والمهنى للدكتور عطية محمود هنا ص ١٦١

لا فى النوع وتختلف درجة هذه الفروق زيادة أو قلة بحسب مجالات الذكاء والتعقل .

ثالثا : أن الذكور يتفوقون على الإناث بوجه عام فى الأعمال المعتمدة على القوة الجسمية والأعمال العقلية المعقدة والعلوم التى تتطلب قدرات عقلية من الدرجة العالية .

رابعا : وجود العلاقة بين القدرات والميول من ناحية وإتقان الأعمال من ناحية أخرى .

خامسا : تفوق الإناث فى النواحى العاطفية والانفعالية على الرجال .

سادسا : إن هذه الأحكام تنطبق على المجموع لا على الجميع .

بعد هذا كله يمكننا أن نصوغ نتائج التجارب العلمية فى سيكولوجية الفروق بين الجنسين كالآتى :

إن وجود الفروق فى الخلية الأولى للذكور والإناث قد أدى إلى الفروق فى التكوين البيولوجى ، وكان لابد من أن تترتب عليه فروق فسيولوجية وأخيرا أدى هذا الأخير إلى الفروق السيكولوجية .

وأننى وإن لم أكن من أنصار تفسير السيكولوجية بالبيولوجية كلية إلا أننى لا أنكر كذلك وجود علاقة وثيقة فى بعض النواحى بين التكوين البيولوجى والسيكولوجى فى الفرد ولا سيا فيا يتعلق بالقدرات وخاصة القدرات العقلية .

أوردنا فيا سبق كلمة الدين وكلمة التجارب العلمية فى شأن الفروق بين الجنسين وبقى أن نذكر دليل الواقع المشاهد الملموس على تفوق الذكور فى بعض النواحى وتفوق الإناث فى بعض النواحى الأخرى .

لو نظرنا إلى الحاضر والماضى بل إلى تاريخ الإنسانية كله وتاريخ تقدمها العلمى لوجدنا أن أشهر العلماء فى جميع المجالات العلمية كانوا من الذكور وقد تقدم العلم ولا يزال يتقدم على أكتاف الذكور فأشهر الفلاسفة وأشهر الأطباء وأشهر الرياضيين كانوا من الذكور لا من الإناث حتى وقتنا الحاضر وذلك بالرغم من إتاحة الفرص التعليمية للإناث فى جميع المجالات منذ مائة عام أو يزيد ، وفى مجال الاختراع كذلك تجد أشهر المخترعين من الذكـــور ، وفيا يتعلق بالقوة

البدنية واليدوية نجد الذكور أقوى من الإناث فى حمل الأثقال والقدرة على الأعمال اليدوية والقيام بأعمال كبيرة .

وفيما يتعلق بقوة الشخصية نجد أعظم القواد والسياسيين والعسكريين من الذكور أيضا ولا نذهب بعيدا! فإننا لو نزلنا إلى المستويات الأدنى فى الحياة لوجدنا أشهر الطباخين والخياطين والصناع والعمال أيضا من الذكور ، وهذا دليل واقعى ملموس لا مجال للإنكار فيه وهذه الظاهرة ليست ظاهرة اليوم وإنما هى ظاهرة التاريخ الإنسانى ، فلو أن الطبيعة زودت الإناث فى هذه الميادين بقدرات أكثر من الذكور لتفوقن فيها فى هذه المجالات ، قد يقولون إن الذكور لم يتيحوا للإناث فرصة ، والحقيقة أنه لو كانت الإناث أقوى من الذكور لتفوقن على الذكور فى هذه الناحية أيضا لأن الطبيعة تظهر مهما كانت الأمور والظروف هذه المسألة ليست مسألة اليوم وإنما هى مسألة التاريخ كله .

أما الإناث فإنهن تفوقن على الذكور فى التاريخ ولا زلن يتفوقن فى صناعة الطفل وتربيته ورقة العاطفة وشدة الانفعال وفى الخدمات الاجتماعية والاهتمام بالنشاط المنزلى والاهتمام بالزينة والتزين وتعليم الطفل ولا سيما تعليمه لغته القومية وفى الميل إلى الموسيقى والفن والأدب وبذل الرحمة والعطف .

يتبين مما سبق أنه لا يصح أن نقول إن الذكور أكثر قدرة على الإطلاق من الإناث كما ذهب إلى ذلك بعض المتطرفين ، ولا يصح أن نقول أيضا إن الإناث يساوين الذكور فى كل شىء على الإطلاق –كما ذهب إلى ذلك بعض المتطرفين الذين لا يسترشدون بنور العلم فى إطلاق أحكامهم وإن كان يصح أن نقول إن مجالات نشاط قدرات الذكور أوسع من مجالات نشاط الإناث وإن قدرات الذكور تؤهلهم لأن يقوموا بالأعمال المعقدة الصعبة والشاقة فى نفس الوقت .

مناقشة بعض الآراء فى هذا الموضوع :

يدعى البعض أن الإناث يساوين الذكور فى كل مجال ويستطعن أن يقمن بما يقوم به الرجال ويستدلون على ذلك ببعض السيدات اللامعات فى ميدان السياسة والاجتماع والأدب والعلم .

ونفيد أن هذه الأحكام تصدق على المجموع لا على الجميع فمعنى ذلك أنه توجد هناك حالات استثنائية والقاعدة لا تبنى على الاستثناءات بل على الأغلبية .

إذ أننا نجد كذلك الحالات الشاذة والاستثناءات فى القوانين الاجتماعية ، والقوانين الطبيعية أيضا ومع ذلك فلا نبنى عليها حكماً عاماً ، ثم لقد قلنا إن الفروق بين الجنسين فى القدرات العقلية بوجه خاص والسيكولوجية بوجه عام فروق فى الدرجة لا فى النوع .

فلو أن الرجل قام بالعمل الذى يدخل فى مجال قدراته التى يتفوق فيها على الإناث لقام به أحسن وأفضل من المرأة بوجه عام إذا مر الإثنان بنفس العربية والتعلم .

بقى رأى آخر يدعى أن الفروق بين الجنسين لا ترجع إلى طبيعة الخلقة بل ترجع إلى الثقافة والتربية والبيئة والدليل على ذلك أن مرجريت ميد قد وجدت ثلاث قبائل يختلف فى أحدها مسلك الرجال عن مسلك الإناث وفى أخراها يتفقان وفى الثالثة وجدت القضية معكوسة .

ففى قبيلة « الأرابيش » يسلك الرجال والنساء فيها السلوك الذى يتوقع من النساء أى فيهم رقة ويميلون إلى الهدوء والدعة ، والقبيلة الثانية من قبيلة « موندا جمور » يسلك فيها الرجال والنساء السلوك الذى يتوقع من الرجال أى فيهم الخشونة والصلابة ، والقبيلة الثالثة هى قبيلة « التشامبولى » يسلك فيها الرجال مسلك النساء أى عندهم خبث ودهاء وميل إلى التحلى بالحلى وتصفيف الشعر بينما النساء أكثر نشاطاً وهن يوجهن الرجال ولا يتزين .

إذن ثقافة الفرد هى التى تحدد سلوكه بغض النظر عن جنسه أو سنه .[١٢] .

والحقيقة أن فى هذه القضية مغالطة وتشويهاً . ذلك أن تأثير الثقافة فى التعبير قاصر على الأداء وأساليب معاملة الناس والسلوك بينهم لا على الطبيعة الإنسانية

---

(١٢) مجالات علم النفس للدكتور مصطفى فهمى ص ٣٩

البيولوجية والفسيولوجية وهذا الذى يفيده المثال المذكور فى شكل الأخلاق. والأخلاق يكتسبها الإنسان عن طريق التربية والتقليد فمن الممكن أن يتخلق الرجال بأخلاق الإناث كما يمكن أن يتخلق الإناث بأخلاق الرجال وفقا لثقافة البيئة وتربيتها، كما نجد النساء المسترجلات والرجال المخنثين فى مجتمعاتنا العادية.

غير أنه ينبغى ألا ننسى شيئا هاما فى هذا الموضوع وهو أن هناك تربية سليمة وتربية غير سليمة: فالتربية السليمة هى التى تقوم على تنمية الاستعدادات الموجودة عند الأفراد إلى أقصى حد تؤهلهم له هذه الاستعدادات، فالتجارب العلمية أثبتت لنا وجود بعض الاستعدادات والقدرات الخاصة لكل من الجنسين فى بعض المجالات، والاختلاف بين الجنسين فى هذه الاستعدادات والقدرات –كما قلنا– اختلاف فى الدرجة، فإذا نحن عكسنا القضية فأردنا أن ننمى استعدادات معينة لدى المرأة لا توجد عندها بالدرجة التى توجد عند الرجل واستعدادات لدى الرجل لا توجد عنده بالدرجة التى توجد فى المرأة اعتبرت هذه العملية التربوية غير سليمة، لأن هذه العملية التربوية عملية تعويق للنمو لأنها غير قائمة على الأسس التربوية السليمة، فمثلا توجد عند الرجل قدرة فى العلوم الرياضية أكثر من قدرة المرأة فى هذه العلوم فاذا نحن علمنا الجنسين معا هذه العلوم بنفس المستوى فلا شك أن الذكور يتفوقون على الإناث، ويصلون إلى مرتبة من التقدم لا يمكن أن تصل إليها الإناث، وإذا علمنا هذه العلوم للإناث ولم نعلم الذكور فالإناث فى هذه الحالة يتفوقن على الذكور فى هذه القدرة لأننا نمينا هذه القدرة فى جنس ولم ننمها فى الجنس الآخر. ولكن هذه التنمية لا يمكن أن تصل إلى الدرجة المطلوبة ولا تنتج الإنتاج الذى ينتظر من الرجال، ولهذا فالتربية تعتبر هنا غير موجهة توجيها سليما.

وكذلك الأعمال العسكرية التى تتطلب القوة البدنية والشخصية، فالمرأة تستطيع أن تقوم بالأعمال العسكرية ولكنها لا تستطيع أن تقوم بها بالدرجة التى يقوم بها الرجال.

والعكس صحيح فى تربية الطفل فالرجل يوجد عنده استعداد لتربية الطفل

ونستطيع أن تنمى عنده أسلوب تربية الطفل ولكنه لا يستطيع أن يقوم بتربية الطفل بالدرجة التى تقوم بها المرأة ولا نستطيع أن ننمى عنده الأسلوب أو الكفاية فى هذا الجانب بالدرجة التى نستطيعها بالنسبة إلى المرأة لأن لديها استعدادات طبيعية مبنية على التركيب البيولوجى والتنظيم السيكولوجى أكثر من الرجل .

فإذا كانت التربية غير السليمة فى هذه القبائل والتقاليد الشاذة قد عكست القضية فدربت الرجال للقيام بأعمال كان أولى أن تقوم بها الإناث ودربت الإناث للقيام بأعمال كان أولى أن يقوم بها الرجال بحسب الطبيعة . والتكوين والقدرات والاستعدادات الموجودة عند كل من الجنسين فلا نستطيع من ذلك أن نستخلص قضية عامة ونقول إن كل الخصائص الخاصة بالذكور والخصائص الخاصة بالإناث نتاج التربية والثقافة والبيئة والعادات الاجتماعية .

ثم إننا لو قسنا الوضع فى هذه القبائل الثلاثة بالوضع فى المجتمعات الأخرى وتاريخ الإنسانية لوجدنا العكس هو الصحيح ، فنحن لا نحكم بالوضع السائد فى قبيلة أو ثلاث قبائل على الوضع السائد فى التاريخ وفى كل المجتمعات وإلا بنينا القضايا العلمية على الشواذ .

بل ينبغى أن نحكم بالأغلبية على الأقلية وعند ذلك يعتبر الوضع فى القبائل المذكورة شاذا عن القاعدة العامة ولكل قاعدة شواذ كما يقولون .

ونحن عندما نضع النظم والقوانين نأخذ دائما فى الاعتبار الأول الأغلبية وما يشذ عنها يعتبر استثناء .

والآن بعد عرض رأى الدين والعلم والعقل والواقع نستخلص النتائج الآتية : —

أولا : وجود اختلاف فى طبيعة الرجل والمرأة سواء كان هذا الاختلاف فى النوع أم فى الدرجة .

ثانيا : أنه لا يصح أن نسوى الرجل بالمرأة ولا المرأة بالرجل فى كل شىء .

ثالثا : هناك حالات شاذة فردية أو جماعية خارجة على القانون العام .
رابعا : هناك تربية خاطئة قد تقرب المسافة بين سلوك الرجل والمرأة إلا أن هذه التربية لا تؤدي إلى النمو السليم ولا تعتبر تربية سليمة .
خامسا : التوجيه السليم فى مجالات الحياة المختلفة هو توجيه كل جنس إلى المجالات المناسبة له .
فيجب توجيه الذكور إلى الميادين التى تؤهلهم قدراتهم واستعدادهم وإمكانياتهم لأن يتقدموا فيها ويقوموا بالأعمال الخاصة بها أفضل قيام . وأن نوجه الإناث إلى الميادين التى يؤهلهن استعدادهن وإمكانياتهن . للنمو والتقدم فيها والقيام بالأعمال الخاصة بها أفضل قيام . وبناء على ذلك يجب أن يوضع كل جنس فى الموضع المناسب .
سادسا : يجب أن تخضع عملية التربية والتعليم والتنظيم الاجتماعى لهذا الأساس العلمي والديني لتكون عملية تنمية القدرات وتوجيهها سليمة وليكون التقدم فى الميادين المختلفة والاستقرار فى التنظيم الاجتماعى مكفولا والاتفاق فى الأعمال المطلوبة مضمونا ومن ثم يجب أن تتعلم كل فتاة فى المدرسة العلوم اللازمة لها مثل التربية وعلم النفس والاجتماع والطب والأمور المنزلية.

بناء على كل هذه الحقائق كان تنظيم الإسلام لإدارة البيت على أساس أن يقوم الرجل بالإدارة والرئاسة والقيام بالأعمال الخارجية الصعبة مثل أعباء النفقة التى تتطلب العمل فى الخارج والأعمال البدنية والعمليات العقلية المجهدة ، وأن تقوم المرأة بتربية الأطفال وأعمال البيت الداخلية والخدمات الاجتماعية اللازمة للبيت حينا والضرورية للمجتمع حينا آخر.

بقيت بعض الأمور الهامة التى لابد من مناقشتها فى هذا الموضوع وهى :
أولا : أنه إذا كان الإسلام جعل الرجل قواما على المرأة ورئيسا لإدارة البيت فهل هذه سلطة مطلقة ؟
الحقيقة أن الإسلام قيد هذه السلطة بأمرين ، أولها أنه لا يحق له أن

يأمر بشيء يخالف الإسلام وإلا لم تجب طاعته فقد قال الرسول – صلى الله عليه وسلم – « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق »[١٣] وقال تعالى :

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾[١٤]

ثانيهما : إن تقديم الرجل على المرأة فى بعض النواحى مثل إدارة البيت ونحوها لا يدل على أفضلية الرجل من الناحية الإنسانية والدينية ، فمن الناحية الإنسانية يتساوى الرجل بالمرأة كل له حقوق وعليه واجبات ، فالأفضلية فى نظر الإسلام لا تقاس بالجنس ولا بالنوع وإنما تقاس بالتقوى والعمل الصالح فقال تعالى :

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾[١٥]

وقال الرسول « لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى إن أكرمكم عند الله أتقاكم »[١٦]

فقد فسر بعض الرجال وبعض المجتمعات القوامة بالأفضلية فى الإنسانية وبناء على هذه الفكرة الخاطئة استذلوا المرأة واستعبدوها .

كما أن المرأة فهمت المبدأ الإسلامى خطأ إذا اعتبرت أن تخفيف الأعباء عنها يعتبر تنقيصا من شأنها وبالتالى بدأت تعتبر – ولا سيما المتعلمات والموظفات – أعمال البيت أعمالا حقيرة فلا يتنازلن للطبخ وللإرضاع وتربية الأطفال وغيرها من أمور المنزل ، مع أن هذا يعتبر عدلا وتكريما لها ذلك أن العدالة هو تكليف كل فرد بما يطيق وما هو أنسب له وهذا هو ما فعله الإسلام ولأن تكليف الإنسان أكثر من طاقته ، يعتبر ظلما وإهانة أيضا .

فلو فرضنا مثلا وجود شخصين وكلفت أحدهما باحضار الأشياء من الخارج

---

(١٣) الجامع الصغير جـ ٢ح . لا/ ٢٠٣

(١٤) سورة لقمان ١٥

(١٥) سورة النساء ٣٢

(١٦) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٣٨

ولم أكلف الآخر بشيء وأبقيته مستريحا فمن الذى أكرمته هنا ، لاشك أننى أكرمت الذى أبقيته مستريحا فى البيت .

وكذلك لو كان هناك عملان أحدهما أشق من الآخر فكلفت أحدهما بالقيام بالأشق وكلفت الآخر بالأخف فمن الذى أكرمته هنا ؟ لاشك أننى أكرمت الذى كلفته بالعمل الأخف .

وهكذا نرى الإسلام عدل فى هذه القضية وأكرم فيها المرأة ، فيعتبر عمل الإسلام فيها عدلا إذا نظرنا إليه من زاوية تكليفه كل واحد بحسب قدراته واستعداداته . ويعتبر إكراما إذا نظرنا إليه من زاوية تخفيف بعض الأعباء عنها . فلو أن الإسلام كلف المرأة بالأعمال الشاقة ، مثل عمل المنشآت وحفر الآبار وفتح الطرق ، وحمل الأحجار إلى أعالى المنشآت لكان قد عكس القضية ولقلنا إن الإسلام ظلم المرأة وأهانها . ولو أنه كلف أيضا مقابل ذلك بالولادة والإرضاع والحضانة وما إلى ذلك لقلنا إن هذا الدين يكلف المرء بما لا يستطيع الأمر الثالث : ليس معنى القوامة والرئاسة فى البيت السطوة والسيطرة والاستبداد ونشر الرعب فى أرجاء البيت كما يفهم بعض الرجال ، بل هو إقامة الإعوجاج وتأديب الخارج على الإسلام والمنحرف عن الجادة وإرشاده إلى الاستقامة والدفاع عن الضعفاء وإقامة العدالة بين الأفراد فى البيت وتوجيهم الوجهة السليمة فى الحياة ، داخل البيت وخارجه ، والدفاع عن البيت والحفاظ على كيانه ضد العوامل الهدامة من الداخل والخارج ، وحل المشكلات التى يتعرض لها البيت بحزم وحكمة وصبر .

الأمر الرابع : إن الطاعة التى فرضها الإسلام على الزوجة وعلى أفراد البيت ليست هى من نوع طاعة الموظف لمديره ، فالطاعة هنا لمصلحة الإدارة فقط أما الطاعة هناك فهى لمصلحة البيت ، ولأمر دينى ثانيا ، فالخروج على طاعة الزوج أو الأب يعتبر خروجا على أمر دينى وترك جزء من الإسلام ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم « من ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة[١٧] » .

(١٧) التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول ٢/ ٣١٤ كتاب النكاح

وقال أيضا « إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت أن تجىء لعنتها الملائكة حتى تصبح »[18] وقال أيضاً « إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى ترجع[19] » .

وهكذا قدس الإسلام هذه الطاعة وهذه العلاقة بين الزوجين كما قدس الزواج من البداية . حتى إنه قال « لو جاز لأحد أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها[20]

كما أن هذه الطاعة هنا ليست استذلالا واستعبادا كما يفهم بعض السيدات فالإسلام منع الاستذلال والاستعباد للأشخاص « فالإسلام أمرنا بالطاعة لأولى الأمر ولم يأمرنا بالذلة لهم ولا نعتبر نحن هذه الطاعة استعبادا منهم لنا .

إذ لا يصح الاستذلال والاستعباد فى نظر الإسلام ، إلا من الله الخالق الرازق ، فمن تكبر واستعبد الناس وأذلهم الله وعذبه لأنه بذلك قد نازع الله فى صفته كما يقول الرسول فى الحديث القدسى معبرا عن الله سبحانه وتعالى« الكبرياء ردائى والعظمة ازارى فمن نازعنى واحدا منهما قذفته فى النار » وفى رواية لمسلم عذبته[21] وقال تعالى :

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾[22]

ثانيا : تنظيم الشئون المالية

أ - نظام النفقة :

إن مسألة النفقة فى البيت مهمة جدا ، ذلك أنها ضرورة من ضروراته وركن من أركان دوامه وبقائه « ولهذا لابد من تنظيمها وتبين لمن تجب وعلى من تجب وما مقدار الواجب ؟

(١٨) فتح البارى بشرح البخارى ٩/ ٢٩٤ كتاب النكاح - باب إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها .

(١٩) المرجع السابق ٩/ ٢٩٤ . كتاب النكاح

(٢٠) التاج.٢/ ٣١٤ . باب الحقوق الزوجية

(٢١) صحيح مسلم ١٦/ ١٧٣ . التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول ٥/ ٣٢

(٢٢) سورة الأعراف آية ١٤٦ .

ولنبدأ بتنظيمها أولا بين الزوجين باعتبارهما أول شخصين يتكون منهما البيت وتهمهما أمور البيت وتعتمد عليهما إدارته ويرجع إليهما إصلاحه وإفساده .

ولا شك أن كسب النفقة وجلبها من الأمور الشاقة التي تحتاج إلى عمل مجهد وشاق وتتطلب مسئوليات ضخمة والقدرة على أعمال إدارية وفكرية وتحمل ما يصيب المرء في سبيلها من نصب ووصب ، فعلى من ينبغي أن تفرض أعلى الزوج ؟ أم على الزوجة ؟ أو على الرجل ؟ أم على المرأة ؟

وقد عرفنا في الموضوع السابق قدرات كل من الرجل والمرأة والميادين المناسبة لكل منهما بحسب استعدادهما وميولهما ، فلو أوجبناها على الزوجة لثقلت عليها وأضنتها وأخرجتها عن طبيعتها وأزالت منها الصفات المرغوبة فيها من الجمال والرقة وأبدلتها منها ذبول الوجه وخشونة الطبع والشعور بالإرهاق وكآبة النفس وقد يعترض هنا بأن الوظائف الإدارية اليوم لا تسبب هذه الأعراض ، ولكن الأعمال لا تقتصر على هذه الوظائف فهناك عمل الفلاحين وعمل العمال والأعمال التجارية والصناعية إلى آخره ، فلو تجاوزنا عما يصيبها من الأعراض المذكورة وافترضنا قدرتها على تحملها وهنا على وهن فأنها لا تستطيع بسبب ذلك أن تقوم بأخطر عمل اجتماعي ولا يمكن أن يقوم به الرجل كما تقوم به هي وهو تربية الطفل فهذه العملية من أهم الأعمال التي تهم المجتمع ، كما تهم الأفراد وتؤثر في حياتهم الحاضرة والمستقبلية . كذلك قيام المرأة : بمثل تلك الأعمال الشاقة تضرها صحيا وتضر صحة الجنين في حالة الحمل وقد تؤدي إلى الإسقاط ، خاصة في حالة حمل الأثقال من أجل هذا كله أوجب الإسلام النفقة على الزوج في هذه الحالة أو على الرجل بوجه عام في الحالات الأخرى .

والنفقة التي أوجبها على الزوج للزوجة ثلاثة أنواع : نفقة السكن والملبس والمطعم . فقال تعالى :

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ ﴾ (١) ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (٢) وللزوجة أن تنفق على نفسها في هذه الأمور

---

(١) سورة الطلاق ٦ (٢) سورة البقرة ٢٣٣

من مال زوجها باعتدال ولو لم يكن الزوج حاضرا ، فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : **ألا إن لكم على نسائكم حقاً ،ولنسائكم عليكم حقا فأما حقكم على نسائكم فلا يوطئن فرشكم من تكرهون ولا تأذن فى بيوتكم من تكرهون ، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهم فى كسوتهن وطعامهن »** (٣)

وقال النبى لهند امرأة ابن سفيان « خذى من مال زوجك ما يكفيك ولولدك بالمعروف (٤)

قد يقول قائل : كثيرا ما يكون هناك فرق بين الزوجين فى الفقر والغنى ولنفرض أن الزوجة كانت غنية والزوج كان فقيرا فلو أنه أنفق نظرا إلى حالته فإن الزوجة الغنية التى عاشت فى بحبوحة من الثراء والرغد لا ترض بذلك ولا تقنع به وإذا كان الأمر عكس ذلك لم يخل الأمر من اضطراب .

هنا يرى أبو حنيفة أن يكون الإنفاق بحسب حالة الزوج لأن الله قال : ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾ (٥) وهناك رأى آخر وهو رأى الخصاف يرى أن يكون الإنفاق بحسب حالهما معا ولكن هذا الرأى يكلف الزوج فوق طاقته (٦)

وهذه المسألة ليست مسألة هينة حتى يستطيع أن يستدين ومن أين يدفع دين الحياة ، وخير مخرج من هذه المشكلة أن يتفق الطرفان قبل الزواج على نوع الحياة فإذا رضيت الزوجة بالحياة معه بحسب حاله فى السراء والضراء انتهت المشكلة أو إذا رضى الزوج على نفقة معينة فوق طاقته فليلتزم بما وافق عليه » ولهذا قلت عند اختيار الزوجة لابد من الإتفاق على نوع الحياة وذلك حسما لهذه المشكلات المتوقعة .

وليست النفقة مفروضة عليه أثناء الحياة الزوجية فقط بل عليه أيضا أن ينفق عليها إذا طلقها وهى فى العدة ، ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى

(٣) التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول ٢/ ٣١٤ كتاب النكاح والطلاق
(٤) فتح البارى بشرح البخارى ٩/ ٥٠٧ كتاب النفقة – باب إذا لم ينفق الرجل
(٥) سورة الطلاق ٧
(٦) فتح البارى بشرح البخارى ٩/ ٥٠٩ كتاب النكاح – باب إذا لم ينفق الرجل

﴿ الْمُتَّقِينَ ﴾[7] وأما إذا طلقها قبل أن يمسها ولم يسم لها مهرا فيجب عليه حينئذ المتعة قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾[8].

ونرى مما سبق أن الإسلام أكرم المرأة بجعل نفقتها على زوجها غاية الإكرام وصانها من الابتذال وأراحها من الإرهاق، فهو بذلك جعلها ملكة البيت وسيدته كما أن الملوك والرؤساء والحكام لا يجعلون زوجاتهم تعمل أى عمل خارج البيت تكريما لأنفسهم ولزوجاتهم، أما الإسلام فقد جعل كل الزوجات ملكات فى البيوت.

ومقابل هذا كله لم يكلفهن الإسلام إلا بالطاعة لأزواجهن والقرار فى بيوتهن قال تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾[9] **وبتربية أولادهن ولاحرج عليها أن تعمل إذا دعت لذلك الضرورات الفردية والاجتماعية.**

هذا ما فعله الإسلام بالمرأة ولننظر إلى المجتمعات الأخرى ماذا فعلت بالمرأة حين رفعت عنها النفقة وكلفتها بالعمل كالرجل أو تركت لها الحرية لكسب رزقها كما تشاء.

فماذا كانت نتيجة ذلك؟ لقد تزعزع بنيان البيوت وتفككت الأسرة وضعفت أو انعدمت تلك الروح العائلية وزالت العصمة والعفة والأدب والأخلاق وأصبحت المرأة تبيع نفسها بثمن بخس دراهم معدودة، فتتجول المسكينة فى الشوارع لتجد من يشتريها ليلة أو ليلتين لتكتسب قوت يومها وليست تجارتها كانت مستمرة إذا أنها بعد زوال جمالها وشبابها لن تجد بضاعتها الرواج عند ذلك تدرك عاقبتها الوخيمة ويزيد الطين بلة أنها عند ذلك لن تجد عملا تكسب منه رزقها. عندئذ تبقى بلا عمل ولا أهل وتصبح عالة على المجتمع.

(٧) البقرة ٢٤١ (٨) الأحزاب ٤٩. (٩) الأحزاب ٣٣

وهذا ما حصل بالفعل فى بعض البلاد لقد أصبحت المرأة سلعة فى يد غيرها يتاجر بعرضها فى الأسواق وفى أماكن اللهو واللعب ، فأصبحت رخيصة بعد أن كانت غالية » ومهانة بعد أن كانت شريفة ورقيقة بعد أن كانت ملكة ومبتذلة بعد أن كانت كريمة .

فأصبحت لا تؤمن بغير المادة ولا تعرف غير الشهوة ولا تقيم وزنا لدين أو قيم أو عفة أو أدب بالإضافة إلى النتائج السيئة الأخرى كانتشار الأمراض المعدية التى تقتل الناس وتقتل العمل .

وقد أدرك عقلاء الناس هذه الحقيقة المؤلمة وهذا المصير السيئ للمرأة ، والمجتمع كما أدركت المرأة ذلك أيضا بعد أن دخلت معترك الحياة وخبرت المسالك ، وكم رأينا منهن من يتمنين أن يجدن بيتا هادئا ينفق عليهن ويرعاهن ويسترحن فيه مما يعانين فى الحياة الصاخبة ، وكم نرى من المصلحين فى الشرق والغرب ينادون بإنقاذ المرأة من هذه العواقب الوخيمة وإنقاذ المجتمع من الفساد الذى أصابه من جراء ذلك .

ولكن كيف ذلك وهل إلى ذلك من سبيل ؟ وهل من السهل إنقاذ الإنسان بعد أن دخل الجحيم ووقع فى حفرة حفرها بيده وألقى بنفسه فيها ؟؟

هذا نظام النفقة بين الزوج والزوجة أما نظامها بين الأبناء والآباء ، فالأب تجب عليه نفقة أولاده الصغار والكبار العاجزين عن الكسب لعرض أو لمرض .

أما إذا كانوا كبارا فلا تجب نفقتهم عليه بل تجب عليهم نفقة الأب والأم إن كانا فقيرين وعاجزين عن العمل ،وكذلك تجب نفقة الصغار على الأخوة الكبار فى هذه الحالة الأخيرة .

ولا ينبغى أن يظن المنفق أن النفقة التى ينفقها على من تجب نفقته عليه أنه لا ثواب له من ورائها بل أنه سينال من ذلك ثوابا من الله سبحانه كما ينال الثواب على الصدقة بل أكثر من ذلك لأنها صدقة وصلة وبر بشرط أن ينوى عند العمل أنه أنما ينفقها لأنها واجب عليه من قبل الشرع وأنه بذلك يؤدى واجبا من واجبات الدين قال النبى – صلى الله عليه وسلم – « من أنفق على أهله وهو

محتسبا كانت له صدقة -وقال الرسول ﷺ وانك مها انفقت من [redacted] فإنها صدقة حتى اللقمة فرفعها إلى فى امرأتك

ب- نظام الميراث :

إن الإسلام لما أقر بأن مجتمع البيت مجتمع خاص له نظام وقوانين خاصة اعتبر المال الذى لديه ملكا خاصا له لا دخل لأحد فيه إذا لم يكن عضوا فى هذا المجتمع ووضع نظام التوارث بين أفراد هذا المجتمع فى حالة وجود المتوفى فيه ولا أريد التعرض لتفصيلات هذا النظام وحقوق كل فرد فى مال المتوفى إذ أنه أمر عريض واسع قد ألفت فيه كتب خاصة . وإنما أريد أن أتناول هذا الموضوع من ناحيتين :

الناحية الأولى : هى مدى أثر هذا النظام فى توطيد الروابط بين أفراد هذا المجتمع .

والناحية الثانية : هى النظريات التى يقوم على أساسها نظام الإرث .

أما من الناحية الأولى فإن الإسلام إنما اعترف بنظام التوارث لأنه يؤدى إلى تقوية العلاقات ودوام الصلات بين أهل البيت ولأن هذا المال حق طبيعى لهم إذ أن لهم كسباً فيه ولهم أتعاب فى جمعه لما عاونوه فى حياته وشاركوه فى عمله وناصروه عند ضعفه وعجزه .

ومن هنا يبين الإسلام أسباب الميراث وهى النسب والزوجية والولاء فمن لم ينتسب إلى الميت بأحد هذه الروابط الثلاث فلا يرث وقد يمنعه من الإرث إذا قطع هذه الرابطة وذلك إذا قتله أو إرتد عن دينه .كما أنه لا يحق لأحد أن يأخذ من ماله إذا ما كان له ديون أو وصية بالثلث أو أقل من ذلك ولم يزد المال الذى ترثه عن ذلك . وأما فى تقسيمه على الوارثين فقد اعتمد على النظريتين :

الأولى تعتمد على مقدار تكاليف الأفراد وحاجياتهم وهذه النظرية دقيقة إذ على أساسها أعطى للذكر مثل حظ الأنثيين لا على أساس أنها ناقصة الإنسانية كما ظن ذلك البعض فإن الإسلام رأى أن المرأة غير مكلفة بالعمل والإنفاق على

نفسها ولهذا فإنها لا تحتاج إلى مال لأن كل نفقاتها مفروضة على الرجل وكل الأتعاب والمشقات يتحملها الرجل .

إذن فإن الرجل أشد احتياجا إليه منها فمن أجل ذلك قدر الإسلام للرجل فى الإرث مثل حظ الأنثيين قال تعالى :

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴾ (١٠)

وبالرغم من عدم احتياجها فقد أعطى لها ذلك المقدار إكراما لخاطرها وإقرارا لحقها فى القرابة ، إذن فليس فى ذلك ظلم على المرأة كما يدعى البعض بل لو جعل نصيبها مثل نصيب الذكر لكان قد ظلم الرجل لأنه يكلفه بنفقته ونفقة المرأة ثم يسوى بينهما فى القسمة . فمن هنا كانت العدالة تقتضى تقدير التكاليف والاحتياج وبالتالى كانت العدالة تقتضى أن يجعل الإسلام نصيب الذكر مثل الأنثيين . وكذلك تفعل الدول اليوم عندما توزع الأرزاق والمساعدات فإنها تساعد كل فرد على حسب حاجتها ، أما عندما توزع الأجور والرواتب فإنها توزع على حسب أعمال الأفراد ، وكذلك لو عملت المرأة فإنها تأخذ عندئذ على حسب عملها .

أما النظرية الثانية فإنها تبنى على الأولوية وبها جعل بعض الوارثين أولى من بعض فقال تعالى :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ (١١) . ولهذا قد قدم بعض أقربائه على البعض ، أما فى الكل فى بعض الحالات أو فى المقدار فى بعض الحالات الأخرى . فبناء على هذه النظرية نظم التقسيم أولا بين أصحاب الفروض ثم الباقى بين العصبة النسبية وجعل بعض العصبة أولى من بعض فالبنوة أولى من الأبوة والأبوة أولى من الأخوة والأخوة أولى من العمومة . وإذا لم يوجد واحد من هؤلاء يليهم العصبة السببية ثم عصبته ثم من يرد عليهم ثم ذوى الأرحام ثم

---

(١٠) سورة النساء ١١ — (١١) سورة البقرة ١٨٠

مولى الموالاة ثم المقر له بالنسب ثم موصى له بجميع المال ثم خزانة الأوقاف أو الدولة . وبالرغم من أهمية نظام الإرث فان هناك بعض الناس يدعون إلى الغاء نظام الإرث وجعل المال الذى تركه الميت ملكا للجميع وحقا للمجتمع ولهذا ينبغى أن يوضع فى خزانة الدولة ويبررون دعواهم بأن الذى يرث من أقربائه أموالا سواء كانت قليلة أو كثيرة فإنه يأخذها بدون مقابل . هذه الدعوة تنقض نفسها بنفسها ذلك أننا إذا قلنا إنه حق لجميع أفراد المجتمع فبأى حق وبأى مقابل يأخذونه وهل تعبوا فيه وساهموا فى جمعه كما فعل هؤلاء الأقربون ؟ إذن يأخذونه بدون أى مقابل وقد أرادوا أن يمنعوا ورثته بحجة أنهم يأخذونه من غير مقابل وبذلك قد أبطلوا حجتهم بأنفسهم ووقعوا فى حفرة حفروها بأيديهم .

وإذا كان المجتمع يأخذه بدون مقابل فأهله أولى به من هذا المجتمع فى أخذه بدون مقابل . لما لهم من كسب ظاهر فيه . ومن جهة أخرى أننا لو ألغينا نظام الإرث لأستوى العامل لغده والذى لا يعمل إلا ليومه ، وهذا يورث الكسل إذ الإنسان لا يعمل لمن لا يمت إليه بصله كما يعمل لأبنائه ولا يعمل ليدخر للناس الآخرين كما يعمل ليدخر لأبنائه . إذن هذا يشجع على العمل الكثير والجد عن رغبة . وذلك لا يشجع إلا على العمل القليل . لأن القليل يكفيه .

يتبين لنا من هذا كله أن نظام الإرث حق طبيعى لأهل البيت وله دور فى تماسك مجتمع البيت كما له أثره فى تشجيع الآباء على العمل الجاد المثمر - ولهذا ينبغى أن يبقى وأن يستمر من الناحية التشريعية ومن الناحية الأولوية أيضا .

ثالثاً : تنظيم العلاقات الزوجية

هناك واجبات فرضها الإسلام على الزوج نحو زوجته ، كما أن هناك واجبات أخرى على الزوجة نحو زوجها ، فلابد من مراعاة هذه الواجبات وأدائها كما ينبغي ويجب لدوام الحياة الزوجية وبقاء الروابط بينهما وليتم بينهما التوافق على أحسن ما يرام .

وهذه الواجبات قد أشرنا إلى بعضها وأهمها فى ثنايا الكتاب إلا أنه لأهميتها البالغة فقد رأينا أن نخصص عنوانا خاصا لتنظيم علاقتها ونذكر فيه بايجاز ما شرحناه ونفصل ما أوجزناه لتكون الواجبات كلها واضحة أمام كل واحد منهما ، ولنبدأ أولا بواجبات الزوج باعتبارة المسئول الأول عن البيت وإدارته .

أ – واجبات الزوج نحو زوجته

وأهم هذه الواجبات هى الآتية :

أولا : إعطاء نفقتها اللازمة من المطعم والملبس والمسكن بقدر استطاعته وقدرته وباعتبار أن نفقة الزوجة من ضمن النفقات التى تجب على الزوج فقد عالجنا هذا الموضوع فى موضوع تنظيم نفقة البيت ، ولا داعى لعلاجه هنا مرة أخرى .

ثانيا : حسن معاشرتها واحترام مشاعرها وإحساساتها الأدبية والإنسانية .

إن المرأة إنسان لها مشاعر انسانية وأدبية مثل الرجل فينبغى أن يحترم مشاعرها وشخصيتها ولا سيا عند حضور الضيوف ووجود الغرباء لأن عدم احترامها فى هذه الحالات يؤثر فى نفسيتها أشد التأثير ولهذا أمر الإسلام بحسن معاشرتهن فقال

تعالى ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾[٢] وبيّن الرسول أن أحسن الناس خلقا أحسنهم خلقا مع نسائهم فقال « **أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وخياركم خياركم لنسائهم**[٣] » بالإضافة إلى هذا فقد نهى الرسول – صلى الله عليه وسلم – عن شتم المرأة وعن ضرب وجهها وعن هجرها أمام الناس ولو استحقت الضرب والهجران فقال عندما سئل « **ما حق الزوجة على الزوج ؟** » تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت ولا تضرب الوجه ولا تقبح[٤] **ولا تهجر إلا فى البيت** »[٥] هذا وقد توجد عند الزوجة صفة من الصفات لا تعجب الزوج فلا ينبغى فى هذه الحالة أن ينظر إليها من زاوية هذه الصفة فقط ؟ فتبدو فى نظره كل صفاتها فى هذه الحالة سيئة ، بل ينبغى أن يوازن بين صفاتها كلها فإذا كانت هناك صفة سيئة فقد توجد مقابلها صفة أخرى حسنة ، وهذا ما أشار إليه الرسول – صلى الله عليه وسلم – فى قوله « **لا يفرك**[٦] **مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقا رضى منها آخر**[٧] »

ثم أنه يجب أن يعرف أن المرأة لا تكون مثالية فى سلوكها وتصرفاتها كلها ، فالتكوين البيولوجى لها جعلها أكثر ضعفا فى عزيمتها وإرادتها وشخصيتها بوجه عام .

وهذا ما يجعلها تقصر فى أعمالها ولا تتمها ولا تقوم بواجبها كما ينبغى فى هذه الحالة تحمل هذا النقص منها ما أمكن ولكن لا ينبغى فى نفس الوقت أن تترك على حريتها فى كل تصرفاتها فتعوج أكثر وتهمل أعمالها ولا تؤديها بالدرجة التى تستطيع أداءها .. وإلى هذا المعنى أشار الرسول – صلى الله عليه وسلم – فى قوله

---

(٢) سورة النساء ١٩

(٣) رياض الصالحين – باب الوصية بالنساء ص ١٣٧

(٤) ولا تقبح أى لاتشتم .

(٥) التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول ج ٢/ ٣١٦

(٦) لا يفرك : يعنى لا ينفر

(٧) التاج ج ٢/٣١٥ باب حقوق الزوجة على زوجها

« إن المرأة خلقت من ضلع أعوج لن تستقيم لك على طريقة فإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج وإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها »[٨]

ويدخل فى حسن المعاشرة المحافظة على حياتها إذ أن جمال المرأة فى حياتها وكذلك المحافظة على آداب المعاشرة الزوجية .

ثالثا : المحافظة على حقوقها الزوجية من إعطاء حقها فى الفراش وعدم خيانتها ، إن هضم حقها فى فراشها ظلم على الزوجة كما أن خيانتها أشد ظلما وتأثيرا عليها .

ولقد شاهدت يوما مشهدا مؤلما مشهدا تشتكى فيه المرأة زوجها قائلة كيف تتركنى ليالى وحيدة فى البيت وتبيت عند غيرى ؟ وكيف تتركنى من غير مطعم ومشرب أين ضميرك وأين إيمانك ؟ وهى تقول هذا وعيناها تنذرف دموعا على خديها .

وبالرغم من هذا المشهد المؤثر كان زوجها لا يتأثر به وكان يقف أمامها وكأنه صنم لا يعقل ولا يبصر وكأنه ميت فى صورة حى ، حقا إنه ميت ، ميت الروح وميت القلب لقد فسد قلبه فبدا لا يحس بالألم مها كانت الحادثة مؤلمة ومهما كانت جريرته كبيرة وما ذلك إلا لأن قلبه قد فسد وضميره قد خرب وهكذا يميت الفساد القلب النابض بالحساسية الإنسانية ويزيل منه تلك المشاعر الحساسة الرقيقة ، وهكذا يفعل الزوج الفاسد بزوجته يخونها ويهضم حقها ويؤذيها فى معاملتها

فمن هنا يجب أن تدرك المرأة قيمة الرجل الصالح فتختاره دون الفاسد إذ أنه لا يزنى حتى يخونها ويخاف من الله من أن يهضم حقها لأنه منهى عن الأول ومأمور بالثانى .

إن الإسلام أمر بإعطاء حق الزوجة كما أمر بإعطاء حق نفسه وحق الله فى العبادة فقال الرسول – صلى الله عليه وسلم – لعبد الله بن عمرو بن العاص « يا عبد الله ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل قلت نعم قال فلا تفعل صم

---

(٨) التاج ٢/ ٣١٥ ، باب حقوق الزوجة على زوجها . وجاء فى صحيح المسلم باب الوصية بالنساء .

وافطر وقم ونم ، فإن لجسدك عليك حقا وإن لعينك عليك حقاً وإن لزوجك عليك حقاً »[9]

رابعا: عدم كشف سرها لأحد: لأن ذلك ينذر بالقطيعة ويخلق الحقد والضغينة ولأنه يعتبر من سوء الخلق ولهذا كله فقد منع الإسلام كشف سرها ، **فقال الرسول – صلى الله عليه وسلم – « إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضى إلى امرأته وتفضى إليه ثم ينشر سرها »**[10]. ويقول الإمام النووى فى شرح الحديث **« تحريم إفشاء الرجل ما يجرى بينه وبين امرأته من أمور الاستمتاع ووصف تفاصيل ذلك »**[11]

خامسا : السماح [redacted] بزيارة أهلها إذا أرادت ذلك والسماح لأهلها بزيارتها فى بيتها فى أوقات معلومة ،لأن ذلك من صلة الرحم وهى واجب فى الإسلام فإذا هى أرادت هذه الصلة فمعنى ذلك أنها أرادت أداء أمر من الأمور دعا إليها الإسلام ، وقد ذكر المحدثون كثيراً من الأحاديث وعالج بعضهم الموضوع تحت عنوان« تجب صلة الرحم ويحرم قطعه[12]

سادسا: مساعدتها ومعاونتها عند الحاجة ولا سيما فى الحالات المرضية.فكان الرسول (ص) يقول **« خياركم خياركم لأهله »**[13] ولهذا لما سئلت عائشة عن عمل الرسول فى البيت فقالت : **«كان يكون فى مهنة أهله »**[14]

سابعا : احترام ملكيتها الخاصة وألاّ يتصرف فيها إلا بإذنها .

لقد احترم الإسلام المرأة بعد أن كانت لا ترث ولا تمتلك فى الجاهلية بل كانت تورث وتُمتَلَك فقرر الإسلام لها نصيباً من الإرث وجعل المهر واجبا ، وقرر

(٩) فتح البارى بشرح البخارى ٥/ ١١٤ كتاب الصوم . باب صور الوصال

(١٠) صحيح مسلم بشرح النووى ١٠/ ٨ كتاب النكاح . باب إفشاء سر المرأة المطبعة المصرية ومكتبتها . القاهرة .

(١١) المرجع السابق ١٠/ ٨

(١٢) التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول . كتاب البر والأخلاق ٥/ ٩

(١٣) الجامع الصغير ٢/ ٨ (١٤)فتح البارى بشرح البخارى . كتاب النكاح ٩/ ٥٠٧

لها حق العمل فقال تعالى مثلا : ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾[١٥] ويجب أن تحترم هذه الملكية كما تحترم ملكية أى إنسان آخر.

ب- واجبات الزوجة نحو زوجها :

أما واجبات الزوجة نحو زوجها فهى الواجبات الآتية :

أولا : الطاعة : وقد أوجب الله تعالى الطاعة على الزوجة لزوجها لما يقوم به من تكاليف النفقة والرعاية لشئونها ومصالحها ثم إن التنظيم والإدارة تقتضى خضوع الأفراد لواحد وأولى أن تكون هذه الطاعة للزوج لما خلق الله فيه من قدرة زائدة وإمكانيات عليا للإدارة وتقويم الأمور وتسيير دفة الحياة بحكمة وأناة وصبر وعزم ، وأخيرا لأمر دينى.

فجعل الطاعة جزءا من تطبيق الإسلام فإذا خالفت الطاعة خالفت أمرا دينيا سيعاقب عليه يوم القيامة. فقد ذكرنا مجموعة من الأحاديث تثبت ذلك ومنها أيضا ماروراه البخارى « **إذا باتت المرأة مهاجرة فى فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى ترجع**[١٦] . وقال أيضا « **لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن لما جعل الله لهم عليهن من الحق** »[١٧] وكما أنذرهن بالعقاب يوم القيامة جزاء الخروج على الطاعة كما وعد اللاتى يرضين أزواجهن فى حياتهن بدخول الجنة فى الآخرة فقال الرسول « **أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة** »[١٨]

غير أن هذه الطاعة مقيدة بألا يكون فى ذلك معصية ومخالفة لأمر دينى فلا يصح أن يأمر زوجته مثلا بالمنكرات مثل شرب الخمر أو ترك العبادات أو الرقص مع الرجال وما إلى ذلك كما يحدث من بعض الأزواج ، فاذا أمر بذلك فرضا لا يحق لها أن تطيعه وإذا أطاعت تكون مسئولة أمام الله.

(١٥) سورة النساء ٣٢

(١٦) فتح البارى بشرح البخارى ، كتاب النكاح ٩/ ٢٩٤.

(١٧) التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول ، كتاب النكاح ٢/ ٣١٤

(١٨) التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول ، كتاب النكاح. ٢/ ٣١٤

ثانيا : المحافظة على شرفه فى السر والعلن فى حضوره وغيابه :

أن عدم المحافظة على شرفه بالخيانة وغيرها من أشد الأمور تأثيرا على نفس الزوج وإن أكثر المشكلات والخصومات تأتى نتيجة الخيانة بل إن الخيانة أكبر سبب لهدم البيت من أساسه . وتشريد الأبناء فليست هناك جريمة من الزوجة على الزوج أكبر من جريمة الخيانة ، كل جريمة يمكن أن يعفو عنها الزوج وتعود العلاقات وتتناسى الأخطاء إلا جريمة الخيانة حتى ولو عفى عنها لا يمكن أن تصفو العلاقة وتعود المحبة .

أنها لا تعكر العلاقة فقط بل تعكر الحياة الزوجية طوال الحياة ، وينبغى أن نعم أن الخيانة تضع قنبلة إن عاجلاً أو آجلاً فى البيت لابد من أن تنفجر ، وليس واجبها تتجنب الخيانة فحسب بل من واجبها أيضا أن تبتعد عن كل الأمور التى تؤدى إلى الشبهة ، وتثير الشك وتكون موضعاً للقيل والقال حولها فبقدر ما تحافظ على شرفه وتبتعد عن إثارة الشبهات وعن مواضع الشك بقدر ما تصفو العلاقات وتزيد المحبة .

ولهذا فإن الله عندما ذكر صفات الزوجات الصالحات ذكر من ضمنها صفة الحفاظ على شرف الزوج فى غيابه فقال تعالى :

﴿ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ (١٩)

ثالثا : عدم إدخال أحد إلى بيته إلا بإذنه ولا تخرج من بيت زوجها إلا بإذنه :

وهذه النقطة مهمة أيضا لأن إدخال الناس إلى البيت يثير الشبهة والشبهة تعكر الصفو وتقلق البال ، ولهذا إيثارا للسلامة ومحافظة على صفاء الحياة الزوجية فقد أمر الإسلام المرأة بالمحافظة على هذا الحق ، **فقال الرسول – صلى الله عليه وسلم – « لا يحل للمرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه ولا تأذن فى بيته إلا بإذنه »** (٢٠) والمراد بالصوم هنا صوم النافلة لأن الصوم المفروض لا يحتاج إلى

---

(١٩) سورة النساء آية ٣٤

(٢٠) فتح البارى بشرح البخارى . كتاب النكاح – باب لا تأذن المرأة فى بيت زوجها إلا بإذنه . ٩/ ٢٩٥

الإذن ولو منعه فعليها أن تصوم ، من هنا تدرك مدى ما تطالب به المرأة من مراعاة شعور زوجها حتى العبادات النافلة تحتاج للقيام بها إلى إذن زوجها .

لأن صوم المرأة يمنعه من الوقاع والوقاع من حقوقه فصوم المرأة من غير إذنه يعتبر تعديا لحقه . **وقال الرسول (ص) أيضا « أيما امرأة خرجت من بيتها بغير إذن زوجها كانت فى سخط الله حتى ترجع إلى بيتها أو يرضى عنها زوجها »**[٢١]

رابعا : حسن المعاشرة والاحترام ومقابلة الإحسان بالإحسان :

يجب أن تراعى الزوجة مشاعر زوجها ، وتعرف الأساليب الأدبية الرقيقة التى تستخدمها فى مقابلة إحسانه بالإحسان وأفضاله بالشكران الجميل . وينبغى أن تعلم المرأة أنه ليست لديها وسيلة تضيف بها حياة إلى حياة زوجها ونشاطا إلى نشاطه أحسن وأفضل من حسن معاشرتها ورقة أسلوبها وجمال مقابلتها . ولا توجد هناك وسيلة لدى المرأة تقتل بها نشاط الرجل وتميت حياته فى قلبه كالغلظة فى التعبير والخشونة فى المعاملة والعبوس فى المواجهة والمقابلة .

فالمرأة هى الرقة واللطافة أولا وأخيرا فإذا خرجت عن هذه خرجت عن طبيعتها ، ولا سيما إذا أصبحت لا تقدر الجميل ولا تعترف بالفضل ولا تعطى وزنا لآداب المعاشرة .

فإن حياتها عندئذ لا تطاق إطلاقا ، وقد حذر الرسول المرأة من كفران العشير ونكران الإحسان وبيّن أن هذه الخصلة ستدخلها النار يوم القيامة فقال « رأيت أكثر أهل النار النساء قالوا لم يا رسول الله ؟ قال بكفرهن ، قيل يكفرن بالله ؟ قال : يكفرن العشير ويكفرن الإحسان لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئا قالت ما رأيت منك خيرا قط[٢٢] .

حقا كم يكون على النفس شديدا ومؤذيا إذا أحسن الإنسان إلى إنسان مدة طويلة ثم ينكر هذا الإحسان كله لمجرد أن يرى منه شيئا تافها أو مؤذيا ولو حصل

---

(٢١) الجامع الصغير ١/ ١١٨

(٢٢) فتح البارى بشرح البخارى . كتاب النكاح . باب كفران العشير ٩/ ٢٩٨

ذلك منه من غير قصد ، ويكاد يتفق الأزواج فى وجود هذه الخصلة السيئة عند المرأة بوجه عام وقد رأيت فتاة كان يحسن أبوها معاملتها فى صغرها وكبرها وأراد مرة الإحسان فأخطأ طريقه ثم مرض وكان يلزم الفراش فى هذه الحالة كانت لا تسأل عنه ولا تواسيه ولا تخدمه لأنه أساء إليها مرة وإن أحسن إليها عشرين سنة ، فإنها قد نسيت كل حسناته طوال عمرها ، هذا الخطأ الوحيد قد أزال كل ما فى نفسها من بر وإحسان حتى بدأت تنظر إلى والدها كأنه إنسان غريب عليها أو هو عدو لها-إن الإنسان يكرم عدوه فى حالة المرض فنحن نداوى جرح عدونا فى الحرب إذا أصبح أسيرا لدينا ، أما هذا الأب فقد أصبح أشد من العدو فى نظرها .

ألا تستحق هذه الفتاة أن تنال غضب الله وتحرق فى ناره عقابا على قلبها القاسى فهو كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار . وكيف لا يكون أشد من الحجارة لأن الحجارة قد يتفجر منها الماء ويستفيد منه الناس أما هذا القلب فلا يتفجر منه مقدار ذرة من الرحمة ليرحم الناس فى أوقات الرحمة فيستفيدوا من رحمته عطفه وإحسانه ، وليتصور أحدنا هذا الموقف وهذه الحالة وقد وقع فيها وكان موقف زوجته أو بنته منه مثل ذلك الموقف كم يتفجر ألما وينزف قلبه دما ! فقد قال الرسول – ﷺ – « ارحم من فى الأرض يرحمك من فى السماء[٢٣]أما قسوة تلك الفتاة فليست لأنها لم ترحم عدوا ولا لأنها لم ترحم أى إنسان بل لأنها لم ترحم أقرب إنسان إليها وله أفضال عليها لاتقدر ، وليس عدم رحمتها فى أى حال بل فى حالة المرض ، مرض والدها فى فراشه فى بيته وهى معه فيه .

وهل تستحق هذه المرأة رحمة من الله وكيف يرحمها ؟ وكيف تنزل عليها الرحمة من السماء وهى لم ترحم والدها القريب منها فى الأرض ، لا أريد التشنيع هنا بالمرأة من حيث عدم وجود الرحمة والعطف والحنان فى قلبها بل إن المرأة بوجه عام أكثر رحمة وعطفا وحنانا من الرجل كما قلنا .

ولكنها أكثر نكرانا وكفرانا بالفضل والنعمة والإحسان من الرجل لأن المرأة

---

(٢٣) الجامع الصغير ١/ ٣٨

شديدة التأثر لا تملك نفسها عند غضبها ، فتكبر الصغير وتصغر الكبير بحسب موقفها وانفعالاتها .

هذه الانفعالات الشديدة تغطى عقلها وقلبها وضميرها فتنسى كل فضل فمن آذاها وأخطأ فى حقها ولو مرة واحدة فتقول فى هذه الحالة ما تقول ولا تسمع ولا تعقل ما تقول ، قد تأتى بأفعال وتأتى بمنكرات لا تقدر مداها ولا تزن نتائجها بميزان العقل والحكمة .

خامسا : ألا تشتط عليه فى طلب مالا يقدر عليه من النفقة ولا تمن بالإنفاق إذا أنفقت عليه فلقد بينا عند الكلام عن النفقة أن على الرجل الإنفاق على عياله وأهله على حسب حالته الاقتصادية ، ولا يصح للمرأة أن تطلب نفقة من الرجل مالا يستطيع عليها ، وذلك وفقا لقوله تعالى :

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ (٢٤) . بل شجع الإسلام المرأة أن تساعد زوجها بالإنفاق إذا كانت قادرة ، وهى فى هذه الحالة تنال ثوابا من الله لأن ما تقوم به فضيلة ، شريطة ألا تمن بذلك على زوجها ، إذ المن يبطل الصدقات ، كما قال الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ (٢٥) أما فيما يتعلق بالثواب فقد نص الرسول على ذلك عندما سألته أم سلمة عما إذا كان لها أجر من الإنفاق على أبنائها من مالها فقال الرسول : نعم لك أجر ما أنفقت عليهم » (٢٦)

سادسا : أن تكون أمينة على ماله وداره ومخلصة لتربية أولاده :

الأمانة مهمة جدا فى البيت وليست الأمانة فقط بل الثقة بالأمانة أيضا فإذا لم يثق الزوج بأمانة زوجته لا يمكن أن يستريح لها ولا يمكن أن يستريح قلبه إلى ما فى البيت بل لا يمكن أن يطمئن قلبه أبداً وهو فى داخل البيت أو خارجه ولا خير

---

(٢٤) سورة الطلاق ٧

(٢٥) سورة البقرة ٢٦٤

(٢٦) فتح البارى بشرح البخارى ، كتاب النكاح ٩/ ٥١٤ - باب وعلى الوارث مثل ذلك .

فى حياة الإنسان إذا لم يشعر فيها باطمئنان قلبى على نفسه وشرفه وماله ، وكم نرى من الأزواج يضعون أماناتهم عند أناس آخرين ولا يضعونها فى بيوتهم وما ذلك إلا لأنهم لا يأمنون على زوجاتهم ، فلو أنهم وثقوا بهن مثل ثقتهم بغيرهن لوضعوها عندهن وليس المفروض أن تكون ثقتهم بهن مثل ثقتهم بغيرهن فحسب بل المفروض ألا يثقوا بأحد كثقتهم بزوجاتهم .

ولا شك أن منشأ هذه الثقة مرتبط بالزوجة ومتوقف على سلوكها ومدى ما تبدى من الأمانة وتحافظ عليها وتبتعد عن مواضع الشبهة والتصرفات التعسفية فى ماله وفى داره وفى علاقاتها مع غيره ، ومدى ما تبدى من العلاقات الطيبة والروابط الوثيقة واحترام مشاعره وإحساساته الرفيعة حتى لا تكون هناك أى حركة منها تثير الظن وأى كلام يقلل الثقة وأى تصرف يثير الشبهة والشك .

فبقدر ما تتجنب الزوجة هذه الأمور وتبتعد عنها وبقدر ما تفعل تلك الأفعال المؤدية إلى الثقة والمقوية لها بقدر ما تزيد الثقة والرضى وبقدر ما تزيد الثقة والرضى تزيد الألفة بينهما والوشيجة الروحية بين قلبيهما .

ولهذا أمر الإسلام الزوجة بالأمانة على كل ما فى البيت وأن تكون مخلصة فى عملها وفى تربية أولادها وجعلها مسئولة عن كل هذا فى بيت الزوجية فقال النبى – صلى الله عليه وسلم – : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته والأمير راع والرجل راع على أهل بيته والمرأة راعية على بيت زوجها وولده فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته »[٢٧] .

وهكذا يربط الإسلام الزوج بالزوجة والزوجة بالزوج ثم يربطهما بالبيت وبحياة البيت وأخيرا يربطهما بالدين وبالدنيا وبالآخرة معا ، لأنهما أساس البيت وأساس الحياة فى البيت ومربيا الأولاد .

ولهذا فهما أساس الجيل وأساس المجتمع إذا نظرنا إليهما من هذه الزاوية ومن هذه الناحية .

---

(٢٧) فتح البارى بشرح البخارى . كتاب النكاح . باب المرأة راعية فى بيت زوجها ٩/ ٢٩٩

ثم إن تلك القواعد الأخلاقية التى يربط بها الإسلام بين الزوجين يجب أن ينظر إليها على أنها ضرورية لابد منها لدوام حياة الزوجية ولا يصح إطلاق أن ينظر إليها على أنها تطبيق للحرية وتقييد للسلوك لأن قدراً من تحديد السلوك أمر ضرورى لا مفر منه لأن الحرية المطلقة تبدد طاقة الإنسان وقواه وتؤدى إلى طغيان الإنسان على حقوق الآخرين . وهذا ما يقرره أيضا دور كايم المفكر الاجتماعى الفرنسى حيث يقول مثلا« وها نحن أولاء نرى فائدة ذلك لتحديد الضرورى . والواقع أن مجموع القواعد الأخلاقية تكون حول كل إنسان نوعاً من الحاجز الفكرى ، تتبدد على صخرية لجج الرغبات الإنسانية دون أن تستطيع تعديه ، وإن مجرد كون هذه الرغبات محصورة ، متجددة ليجعل إرضاءها أمراً ممكنا ، فإذا ما اصطدم ذلك الحاجز فى نقطة معينة فإن القوى الإنسانية التى ظلت حتى ذلك الحين محصورة حبيسة تنطلق من الثغرة ثائرة فائرة ، ولكنها لا تلبس أن تنطلق حتى يصبح من المستحيل وقفها عند حد ولا يعود فى وسعها إلا أن تستمر فى سعيها الأليم نحو هدف يبعد عنها على الدوام . فلو حدث مثلا أن فقدت القواعد الأخلاقية المتصلة بالزوجية سلطتها أو ضعف احترام الزوجين للواجبات التى يلتزم بها كل منهما حيال الآخر لأفلت زمام الاتصالات والشهوات التى يحد منها وينظمها ذلك القسم من الأخلاق ولاضطرب تنظيمها وتمادت نتيجة لهذا الاضطراب ، وهى حين تعجز عن أن تهدئ من عنفها مادامت قد تجاوزت كل حد – تولد فى النفوس حالة من اليأس وخيبة الأمل تتبدى على صورة واضحة فى إحصائيات الانتحار وكذلك لو تزعزعت أركان الأخلاق التى تتحكم فى الحياة الاقتصادية فإن المطامع الاقتصادية لا تعرف حينئذ حداً تقف عنده فتبلغ أقصى حدود الثورة والانفعال وفى هذه الحالة يظهر صدى تلك الثورة فى ارتفاع النسبة السنوية لعدد المنتحرين وإن الأمثلة على ذلك لعديدة[٢٨] .

(٢٨) التربية الأخلاقية ص ٤٣ . دور كايم . ترجمة الدكتور السيد محمد بدوى .

سابعا : القيام بخدمته البيتية :

وذلك لكي لا يلقي على الزوج جميع أعمال البيت وتكاليفه الداخلية والخارجية ولكي يتحقق مبدأ الغنم بالعزم ومبدأ عدالة توزيع الأعمال والمسئوليات .

ونحن نقول هذا مع علمنا باختلاف العلماء حول هذه الخدمة هل هي واجب أوفضيلة .

ويستدل الذين يذهبون إلى وجوب مثل هذه الخدمة بعدم استجابة الرسول (ص) لبنته فاطمة عندما ذهبت إلى الرسول تطلب منه خادما .[1]

ويذكر ابن حجر العسقلاني عند شرح موقف الرسول وعند بيان ما يمكن أن سنخلص من ذلك من الأحكام » ويناقش رأى بعض الفقهاء وذكر أيضا رأى الذين يذهبون إلى وجوب هذه الخدمة ويقولون « إن خدمة البيت تلزم المرأة ولو كانت الزوجة ذات قدر وشرف إذا كان الزوج معسراً ، ولذلك ألزم النبي فاطمة بالخدمة الباطنية وعليا بالخدمة الظاهرة »[2] ثم نقل رأى الظاهر قائلا « وقال أهل الظاهر ليس على الزوج أن يخدمها ولو كانت بنت الخليفة »[3] ولا يتعارض هذا مع وجوب نفقة الزوجة في المطعم والملبس والمسكن فتلك الأمور شيء وخدمة البيت شيء آخر كذلك لا يتعارض ذلك مع قوله تعالى ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ حيث إن الآية تدعو إلى معاشرتها بالحسنى والأخلاق الحميدة .

ثم إن هناك فرقا بين الوجوب والفضيلة ، فإذا تفضل الرجل وتبرع بإحضار خادم للزوجة عن طيب النفس فذلك فضيلة دعا إليها الإسلام . فقال تعالى ﴿ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾[5] وقال أيضا : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا

---

(١) فتح البارى بشرح البخارى . كتاب النكاح – باب خادم المرأة ٩/ ٥٠٦

(٢) المرجع السابق ٩/ ٥٠٧ (٣) المرجع السبق ٩/ ٥٠٧

(٤) سورة النساء ١٩ (٥) سورة البقرة ٢٣٧

﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٦) لأن التفاضل يورث المحبة والمودة .

ولكن ليس من العدالة أن يعمل الرجل فى الخارج من الصبح إلى المساء بحمل الأثقال وحفر الأراضى أو غيرها ويأتى مساء كالحاً مرهقا ثم بعد ذلك يعمل وهنا على وهن بعمل الطبخ والغسيل وتنظيف البيت وما إلى ذلك والمرأة تأكل وتشرب وتنام أو تقضى أوقاته هنا وهناك سدى . فالحياة الزوجية حياة مشتركة وكل واحد يعمل لدفع عجلة الحياة وتحمل أعبائها ومسئولياتها بقدر استطاعته وباعتبار أن الأعمال الخارجية تتطلب مجهودا أكبر والرجل عنده استعداد لتحمل المشاق أكثر من المرأة فحمل الإسلام هذه المسئولية على الرجل كما بينا .

ولقد ذهب بعض أهل الرأى أبعد من ذلك حتى قالوا إن الزوجة لا تلزمها خدمة الزوج ولا إرضاع أولادها .

ومن الذى يرضعه إذا امتنعت الزوجة بحجة أنها غير مكلفة بذلك شرعاً ولم يجد الزوج من ترضعه من النساء ! وهل توجد المرضعات الآن كما كن فى ذلك الوقت ، لم تبق سوى الرضاعة الصناعية ، وهى ضارة من الناحية التربوية ، فيرى رجال التربية أن الرضاعة الصناعية لا تعوض الرضاعة الأصلية خاصة فى الشهور الأولى من الولادة ، لا من الناحية الغذائية ولا من ناحية التربية العاطفية والاجتماعية والأخلاقية . حيث إنهم وجدوا لدى الأطفال الذين حرموا من إرضاع الأم الرحيم العطوف الحنون ، وتربوا فى أحضان الخادمات أو فى ملاجيء الأطفال بعض الجوانب التربوية الناقصة ومنها البرودة الاجتماعية والميل إلى الغلظة والجفوة والانعزال . لأنهم حرموا من غذاء لبن الأم ومن عاطفة الأم الضرورية للنمو السليم . ولهذا يقول أحد المربين عن اللبن الصناعى « مهاجما إياه وداعيا إلى تحريمه ومنعه فيقول فى هذا الصدد » وأنى لأرى أمة بأسرها تقوم ترتيبتها على التغذية الصناعية لابد من أن يتجلى فى أفرادها خشونة فى الطباع وفتور وصرامة فى علاقتهم ببعضهم ببعض وقصور فى تأثير عامل الحنان الذى يرقق الخلق ويهذبه ... وأنى لأقترح أن تصبح زجاجة الطفل موضع تحريم قومى عام يستند إلى أسباب أوجه بكثير

---

(٦) سورة النور ٢٢

مما يبديه الآباء من أسباب »[٧] ولهذا أيضا يهاجم المرأة العصرية التى لا تقوم بوظيفتها التربوية التى تقع عليها مسئوليتها ، ولا تتنازل أيضا لإرضاع ولدها بثديها وتحرمه من عطف حضنها »[٨]

أما الآيات التى يستدل بها القائلون بعدم وجوب خدمة البيت على الزوجة فهى خاصة بالمطلقات ، وهى صريحة فى ذلك مثل قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ۞ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ۚ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[٩]

فالمطلقة عليها أن ترضع ولدها ومن حقها أن تطلب أجراً على الإرضاع لأن النفقة سقطت عنها بالطلاق ، فنفقتها تجرى عليها فى هذه الحالة لإرضاع ولدها . فلو أنها تحصل على النفقة أيضا ، احتاجت إلى العمل فى الخارج ، أو أنها تضطر إلى كسب رزقها بإرضاع أطفال غيرها بالأجرة ، وإذا منعت من ذلك ، تضار ولا ينبغى أن تضار والدة بسبب ولدها وتمنع من كسب رزقها . ولكن لا ينبغى أن

---

(٧) الأخلاق والسلوك فى الحياة . ص ٦٧ . ولیم مکدوجل . ترجمة ، جبران سليم ابراهيم . مكتبة مصر ، القاهرة ١٩٦١ . (٨) المرجع السابق ص ٦٦ (٩) سورة البقرة ٢٣٢ - ٢٣٣

تطلب أكثر من حقها حتى لا يضار والد أيضا بولده . ولهذا ينبغى أن يتفقا على المعروف المتعارف بالتشاور .

يقول هنا بعض العلماء الذين يذهبون هذا المذهب « وأكثر أهل التفسير على أن المراد بالوالدات هنا المبتوتات المطلقات وأجمع العلماء على أن أجرة الرضاعة على الزوج إذا خرجت المطلقة من العدة . والأم بعد البينونة أولى بالرضاعة ، إلا إن وجد الأب من ترضع له بدون ما سألت . إلا أن لم يقبل الولد غيرها فتجبر بأجرة مثلها وهو موافق للمنقول هنا عن الزهرى . واختلفوا فى المتزوجة فقال الشافعى وأكثر الكوفيين يلزمها إرضاع ولدها ، **وقال مالك وابن أبى ليلى تجبر على إرضاع ولدها ما دامت متزوجة بوالده »**[١٠] ، وذلك لأن نفقتها مضمونة فى هذه الحالة من قبل زوجها .

وأما الآية الثانية فهى تبين النفقة فى حالة الزوجة المطلقة إذا كانت حاملة وتبين أيضا مسألة الرضاعة بعد الولادة . وهى قوله تعالى « **اسكنوهن من حيث**

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ۚ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾[١١]

إذن فعلى الأب فى هذه الحالة أن ينفق عليها حتى تضع حملها » وإذا أرضعت ولده بعد الولادة فعليه أن يعطيها أجرة الرضاعة . بقدر استطاعته وإذا لم يستطيع على ذلك فعليه أن يجد مرضعة أخرى ترضع ولده . لأنه بعد

---

(١٠) فتح البارى بشرح البخارى . كتاب النفقات ٩/ ٥٠٥

(١١) سورة الطلاق ٦ – ٧

الولادة – وهى مطلقة – من حقها أن تطلب الأجرة على الإرضاع . لأن نفقتها انقطعت من قبل الزوج .

يتضح من هذا كله أن المرأة ما دامت متزوجة بوالد الطفل وما دامت نفقتها جارية ، فهى يجب أن ترضع ولدها ، ولا يحق لها أن تتمنع أو تطلب أجرة على الإرضاع . إلا فى الحالات المرضية التى تصبح فيها غير قادرة على الإرضاع أو أصبح الإرضاع ضارا على الطفل ، فعلى الأب فى مثل هذه الحالة أن يجد من ترضعه .

رابعا : تنظيم العلاقات الأبوية

هذا التنظيم يأتى فى الأهمية الثانية بعد تنظيم العلاقات بين الزوجين ذلك أنه إذا كان التنظيم الأول يعتبر تنظيم أساس البيت فإن هذا التنظيم يعتبر تنظيم بناء البيت .

ولهذا كما يجب الاعتناء بالأول يجب الاعتناء بالثانى ولربما كانت صلة هذا الأخير بالمجتمع وبحياة المجتمع أكثر من صلة الأول به ، لأن هنا أولادا ينمون ويكبرون ويخرجون إلى الحياة العامة ، الحياة الاجتماعية فاذا لم يلقوا العناية التامة ولم يأخذوا نصيبهم من التربية المتكاملة فهذا بلا شك سوف يؤثر فى حياتهم الخاصة وحياة المجتمع عامة .

والعلاقة بين الآباء والأبناء هى عبارة عن تبادل الواجبات ، فلكل واجبات نحو الآخر ، فهناك واجبات الآباء نحو الأبناء وهناك واجبات الأبناء نحو الآباء ولنبدأ الآن بالطرف الأول لأهميته الكبرى .

أ – واجبات الآباء نحو الأبناء

هناك واجبات هامة على الآباء نحو الأبناء ، أهم هذه الواجبات هى النفقة .. وقد ذكرناها ، والتسوية بينهم فى المعاملة وأخيرا التربية والتعليم وفى الصفحات القليلة الآتية سنحاول شرح هذين الموضوعين الأخيرين بشىء من التفصيل .

١ – التسوية بين الأبناء فى المعاملة

أن تسوية الأبناء فى المعاملة من واجب الآباء ، وهذه نقطة مهمة ذلك أن التفرقة فى المعاملة تولد الحقدوالحسد فيا بينهم وتزيل المحبة والتعاطف فيما بينهم من جهة وفيا بينهم وبين الآباء من جهة أخرى إلى جانب هذا وذاك تكون هذه التفرقة سببا لنشأة بعض الأمراض السيكولوجية أو النفسية فى حالات كثيرة . ولهذا قال الرسول : **اتقوا الله واعدلوا فى أولادكم**[(١)]

إن إيثار بعض الأبناء على البعض ولا سيما إيثار الأبناء على البنات كما يحصل عادة فى مجتمعاتنا – هذا الإيثار من أقبح الأفعال وأرذل الخلال ، وقد كان ذلك من العادات الجاهلية وعادات بعض الشعوب البدائية ، وقد تجاوز الجاهليون إيثار الأبناء على البنات إلى وأد البنات وهن أحياء ، فلما جاء الإسلام حارب هذه الخصال وهذه العادة الشنيعة محاربة شديدة .

وشنع على جريمتهم هذه فقال تعالى ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾[(٢)] وقال ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾[(٣)] وقال ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[(٤)]

فعليهم أن يسووا بينهما فى المطعم والملبس والعطف والحنان وسائر الحقوق وترغيبا فى ذلك قال الرسول – صلى الله عليه وسلم – **« من كان له أنثى فلم يهنها ولم يؤثر ولده عليها أدخله الله الجنة**[(٥)]

---

(١) رياض الصالحين باب كراهة تفضيل الوالد بعض أولاده على البعض

(٢) سورة الإسراء ٣١

(٣) سورة التكوير ٨ – ٩

(٤) سورة الأنعام ١٤٠

(٥) التاج الجامع فى الأصول فى أحاديث الرسول ٥/ ٨ كتاب البر والأخلاق

فإن كثيرا من الناس مايزالون يؤثرون أبناءهم على بناتهم كما كان الأمر فى الجاهلية الأولى بالرغم من حرب الإسلام لهذه الفكرة السيئة والرأى الخاطىء الشنيع والعادة الجائرة ورغم إيعاد فاعله بألوان العذاب والعقوبة فى الآخرة وبالرغم من ترغيبه فى المساواة والعدالة الاجتماعية . ولا أدرى كيف تزين لهم أنفسهم ترجيح الأبناء على البنات ألا يعلمون أن كلا العنصرين انفصلا من صلبه وأحدهما صنو للآخر ، وكيف سولت لأحدهم نفسه أن يجعل أحد فلذتى كبده برأى عينه مسرورا سعيدا والآخر كئيبا محزونا من غير ذنب ، تذرف عيناه دما وينفجر من الحرقة قلبه ، أليس الذى خلق الذكر خلق الأنثى وأليس كلاهما من ماء واحد فمن أين أتى الترجيح والإيثار ، أنزل عليه كتاب يقرأه وهو على بينة منه وقد تجاوز البعض هذا الحد إلى إيثار بعض أبنائه على البعض بدون مرجح فيخصص لأحدهم مالا أو يزيده من العطف والحنان مالا يقابل بمثله الآخر .

نعم الحب أمر قلبى قد يحصل لأحدهم أكثر من الآخر بسبب أو بغير سبب فهذا عمل القلب ولا طاقة لنا به وهذا ليس بقاصر على الأبناء بل يشمل الزوجات والأقارب إلا أن عمل القلب شىء والمعاملة الخارجية شىء آخر فنحن أمرنا بالعدالة فى معاملاتنا لمن نحب ولمن نكره ولا جناح فى الحب ولـــكن الجناح فى المعاملة بمقتضى الحب .

وقد كان الرسول يحب عائشة أكثر من غيرها من زوجاته ومع ذلك كان يعدل فى القسم والإطعام والنفقة وغيرها من الحقوق الزوجية وكان يقول اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك[٦] وكان يقصد العمل القلبى فى حبه لعائشة .

فالإيثار وعدم العدالة فى المعاملة بالإضافة إلى إزالته المحبة من بين الأفراد والسعادة من البيت فإنه يخلق كذلك جوا مشحونا وظلما قاتما فى سماء البيت ونتيجة لذلك تتحول الحياة فيه إلى جحيم لا يطاق .

---

(٦) التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول باب القسم بين الزوجات .

وما أحسن ما قالته فاطمة الانمارية عندما سئلت أى ولدك أحب إليك ؟ فأجابت هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها .

هذه هى الأم التى تمثل الأمومة المثالية العادلة بين أبنائها ، وهذه هى المعاملة التى يرضى عنها الصغير والكبير والتى أمر بها الإسلام إنما أمر بذلك لتزداد المحبة والترابط بين أفراد البيت جميعا وليعيشوا فى عشهم متحابين متكاتفين متعلقين بعضهم ببعض كتعلق المحب بالمحبوبة .

٢ – التربية والتعليم

إن التربية والتعليم فى غاية الأهمية فى البيت لعل إحساسى بهذه الأهمية جعلنى أعالجها بشىء من التفصيل لكى يكون الآباء والأمهات على بينة من أهم مبادئها على أقل تقدير وليعرفوا مغازيها وأسرارها والنقط الهامة التى يؤدى الخطأ فيها إلى أخطار قد لا يمكن علاجها فيما بعد .

فالتربية تبدأ كما يقول كثير من التربويين قبل الولادة أى منذ بدء الحمل ولهذا فهم يقسمون مراحل التربية إلى مرحلة ما قبل الولادة ومرحلة ما بعد الولادة ثم يقسمون هذه الأخيرة إلى مراحل متعددة وذلك بناء على تقسيمهم الطفولة إلى ما قبل الولادة وإلى ما بعد الولادة[٧] .

وأهمية المرحلة الأولى إن لم تزد على الثانية فلا تقل عنها ذلك إن الأولى هى الأساس فإذا لم يكن الأساس سليما فإن ما بنى عليه لا يمكن أن يكون سليما بل قد لا يمكن البناء عليه إذ أن الطفل كالنبتة فإذا أردنا أن تنبت نباتا حسنا لابد من اختيار بذرة صالحة ولابد مع ذلك من أن نزرعها فى أرض صالحة للزراعة وقت الزراعة ذلك أنه مهما كانت البذرة صالحة فإذا كانت الأرض غير صالحة فلا يفيد الزرع أو لا يكون كالذى يرجى منه ثم لابد مع هذا وذلك من إعطاء العناية والرعاية اللازمتين لتنبثق النبتة من الأرض وينمو كل ما فيها من إمكانيات النمو حتى تستوى على سوقها ويعجب الزراع بمنظرها ولقد أثبت العلماء ان الصفات

(٧) انظر الأسس النفسية للنمو ص ٩٢ . دكتور فؤاد البهى السيد وانظر كذلك سيكولوجية الطفولة والمراهقة ص ٢٨ دكتور مصطفى فهمى .

الجسمية والنفسية والخلقية والعقلية تنتقل كلها إلى الذرية كميول عن طريق الوراثة فيقول هنا العالم الفرنسي الدكتور الكسيس كارل الذى نال جائزة نوبل الدولية « نحن نعرف اليوم أن الزواج بين أولاد الأشقياء أو السكيرين أو المصابين بالزهرى أو حاملى العيوب العقلية أو الوراثية يعتبر جريمة جديرة بالعقاب »[٨] .

وكما بينا فيما سبق من نتاج الزواج بين شخصين مصابين بالأمراض النفسية والجسمية وجاء فى تقدير المجلس المختص بالجرائم فى نيويورك أنه كلما زادت خطورة الجرم زاد احتمال وجود أقارب جناه من أرباب السوابق وقد تبين من إحصائيات هذا المجلس أن ٥٠٪ من الأحداث من عائلات المجرمين كما أن ٦٠٪ منهم من عائلات المتهمين بالجرم و ٨٣٪ منهم من عائلات المجرمين الخطيرين[٩] ومن قبل اهتم بهذا الموضوع أيضا أرسطو الفيلسوف اليونانى الكبير ونصح بالاختيار الحسن عند الزواج وحدد وقت الإنجاب ليأتى الأولاد أقوياء ولهذا أيضا نصح بالابتعاد عن الأقارب فى الزواج وحدد سن الزواج بثمانى عشرة سنة للنساء وبسبع وثلاثين أو أقل قليلا للرجال لأنهما يكونان فى أوج القوة عندئذ[١٠] وقد عملوا احصائية حديثة للعباقرة فى العالم فوجدوا أن عمر آبائهم وقت الحمل كان ما بين سبع وثلاثين وتسع وثلاثين إذن كان أرسطو مصيبا فى هذا الرأى .

أما بعد الحمل فيجب أيضا العناية بحياة الجنين من الأغذية ومن تهيئة مناخ نفسى وروحى سليم لأن حالة الأم النفسية فى أثناء الحمل تؤثر فى حالة الطفل النفسية والخلقية أيضا . هذا ما يقرره العلماء والمربون المحدثون يقول رونيه أوبير « إن حياة الكائن الجديد ما زالت وثيقة الاشتراك والامتزاج بحياة الأم التى تحمله ومهما يكن من أمر فيمكن التفكير بأن هذه التجربة الخاصة التى يحصل الجنين عليها أثناء تطوره والتى يجلبها معه حين يأتى إلى الدنيا تشكل أساسا لا يمحى تدخل فيه جميع الانطباعات »[١١]

---

(٨) تأملات فى سلوك الإنسان ص ٨٧ . دكتور الكسيس كارل « ترجمة د . محمد القصاص .

(٩) علم النفس والتربية الحديثة ١/ ٤١١

(١٠) كتاب السياسة لأرسطو ص ٢٧٨ – ٢٧٩ – ترجمة أحمد لطفى السيد

(١١) التربية العامة ص ١٦٠ – رونيه أوبير . ترجمة د . عبد الله عبد الدائم .

وبناء على هذه النتائج العلمية وضع الدكتوركاربتيه عميد أكاديمية العلوم فى بلجيكا قواعد عامة لإنجاب ذرية صالحة ونسل قوى وجيل صالح سعيد فى مؤتمر زورنين وفيما يلى أذكر هذه القواعد العامة لتكون مبادىء مرشدة للآباء والأمهات ولتكون للتربية قبل الولادة وتلك القواعد هى الآتية :

١ – الصفات الخلقية والمواهب والجمال تنتقل بالوراثة .

٢ – العيوب تنتقل بالوراثة .

٣ – فى بعض الأحيان يحصل شذوذ عن القاعدتين الأولى والثانية فالشجاع ينجب جبانا والعكس بالعكس .

٤ – محصول الزرع البشرى يتوقف على الحالة الزوجية والنفسية للرجل .

٥ – انشغال البال والهم فى الرجل يخلق ولدا متشائما وسيء الظن ومخوافا ومترددا

٦ – من يقترب من زوجته ويخيل إلى نفسه بأنه مصاب بمرض خطير فيأتى بولديه مركب نقص .

٧ – السكران يأتى بولد أحمق والمنفعل يأتى بولد عصبى المزاج .

٨ – السكير المدمن ينجب مخبولا فى معظم الحالات .

٩ – ضحايا المخدرات ينجبون أولادا ضعاف البنية وجبناء ومعتوهين .

١٠ – المصاب بالزهرى يكون أولاده غير متحلين بالرجولة الحقة .

١١ – المتفائل ينجب أولاداً متجردين من الخوف والهواجس والعادات السيئة .

١٢ – الغضب ينجب طفلا عصبى المزاج .

١٣ – حالة المرأة الجسمية والنفسية تؤثر على الحمل .(١٢)

والتربية المباشرة بعد الولادة مها استطاعت أن تصلح بعض تلك العيوب الآتية بالوراثة أو المكتسبة أثناء الحمل فإنها لا تستطيع أن تصلح كل شيء.ولهذا من الأهمية بمكان ومن التربية الأساسية مراعاة الآباء والأمهات تلك القواعد الأساسية لإنجاب أطفال سعداء .

(١٢) أسس الصحة والحياة ص ٣٣٥ – ٣٣٦

ويؤكد الدكتور الكسيس كارل فى كثير من أقواله ما قاله الدكتور كاربنتيه عندما يقول كارل « إن جودة الصفات الوراثية لا تكفى لإنجاب أطفال جيد النوع بل يجب فضلا عن ذلك ألا يكون الأبوان نفسها مصابين بالزهرى أو من المدمنين للخمر أو المورفين أو الكوكايين ، فسكر الزوج أو الزوجة فى لحظة التلقيح جريمة حقيقية لأن الأطفال الذين يولدون من مثل هذا التلقيح كثيرا ما يعانون أمراضا عصبية وعقلية لا يرجى لها شفاء »(١٣) وخاصة إذا أضفنا ما يقوله هنا إلى ما قاله سابقا عند بيان نسبة الأولاد المجرمين من الأسر المجرمة .

وإذا رجعنا إلى رأى الإسلام فى هذه الحقائق وجدناه يقررها أحيانا بالإشارة وأخرى بالصراحة وقد ذكرنا كثيرا من الآيات والأحاديث المتعلقة بهذا الموضوع خلال الموضوعات السابقة

وهذا ما يوحى إليه الله قوله تعالى الذى يحكى نشأة الأنبياء الصالحين من ذرية صالحة وكيف اختارهم الله من ذرية صالحة وكيف أنبت مريم نباتا حسنا لتنتج ثمرة صالحة مرجوة وهى النبى الصالح عيسى عليه السلام فقال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾(١٤) ثم لما وضعت مريم وليدها عيسى استنكر الناس هذا الوضع بتلك الصورة غير المألوفة وغير المنتظرة منها لأنها مشهورة بالعفة

---

(١٣) تأملات فى سلوك الإنسان ص ١٠٩

(١٤) سورة آل عمران ٣٣ – ٣٧

ومن سلالة مشهورة بالطهر فقالوا ﴿ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا (٢٧) يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ (١٥).

فالآية لا تشير فقط إلى أن الفجور ينتقل بالتقليد والمحاكاة من الآباء إلى الذرية بل تشير إلى جانب ذلك إلى أنه ينتقل بالوراثة وهذا شديد الوضوح فى هذه الآية والآية التى سبقت والتى تعبر عن الذرية الصالحة بالنبات الحسن.

ونتذكر أيضا هنا أحاديث الرسول التى أوردناها فى المناسبات السابقة من ذلك تشبيه الرسول الناس بالمعادن من حيث صحتهم الجسمية والنفسية والعقلية والخلقية فكما أن هناك معادن صافية وأخرى مخلوطة وهناك معادن قيمة وأخرى رديئة فكذلك الناس فى كيانهم استعدادات وميول وسجايا خلقية مختلفة بعضها قيمة وأخرى رديئة فمنهم ذكى وآخر معتوه ومنهم سليم الجسم والنفس وآخر عليل الجسم والنفس ومنهم ميال إلى خلق حميد وآخر ميال إلى خلق ذميم وكل ذلك معروف. وراثياً فكما أن الحقائق الجسمية وخصائصها تنتقل إلى الذرية بواسطة الكروموزومات والجينات كذلك الحقائق النفسية والعقلية والروحية وخصائصها تنتقل بالوراثة إلى الذرية وإلى هذا أشار الرسول بأقواله بتعبير موجز وآية فى الدقة فى موضوع اختيار الشريك الصالح عندما قال تخيروا لنطفكم (١٥) وعندما قال «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة فى الخير والشر والعرق دساس (وفى رواية نزاع) وأدب السوء كعرق السوء» (١٦) وأخيرا عندما حذر من زواج المرأة الحسناء فى المنبت السوء وأنها تلد . مثل أصلها (١٧) ، وقال تعالى مشيرا إلى ذلك أيضا ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ (١٨)

ولهذا وذاك أيضا أمر الله تعالى بانكاح الصالحين فقال : ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ (١٩)

---

(١٥) سورة مريم آية ٢٧ – ٢٨ (١٥) المستدرك على الصحيحين ٤/ ١٦٣ كتاب النكاح
(١٦) كشوف الخفاء ١/ ٤٣٢ – ٣٢٠ (١٧) كشف الخفاء ٢/ ٤٣٢
(١٨) سورة نوح ٢٧ (١٩) سورة النور ٣٢

وبعد أن وضع الإسلام أسس التربية السليمة فى مرحلة ما قبل الولادة وجه الآباء والأمهات إلى الرعاية والعناية بأبنائهم وتربيتهم وتأديبهم بأساليب تربوية إن لم تزد قيمة مبادئها التربوية على أحدث المبادىء التربوية فلا تقل عنها بأى حال من الأحوال ثم إن الإسلام لا يكتفى بتقرير تلك الحقائق التربوية ، ولا يكتفى بتشجيع الآباء على تعليم وتربية أبنائهم فى ضوئها بل يشجع أيضا على تعليم وتربية خادماتهم فقال الرسول **ثلاثة لهم أجران .. وأحدهم رجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها** »[٢٠]

بل أكثر من هذا يشجع على أن يعلم الرجل الصبيان الذين ليس لهم من يعلمهم ويؤدبهم فقال الرسول « **من علم ثلاث بنات فأدبهن وزوجهن وأحسن إليهن فله الجنة** »[٢١]

وما ذلك إلا لتسود التربية والتعليم كل أفراد المجتمع الإسلامى .

ثم إن تربية الأبناء وتعليمهم وخاصة فى المرحلة المبكرة للتربية الصحيحة من أهم واجبات الأباء أو واجب البيت عموما نحو المجتمع باعتباره مدرسة الأطفال الأولى فاذا لم تقم بوظيفتها فلا تعوضها أى مدرسة أو مؤسسة أخرى كما يقول المربون[٢٢] لأن المربين يعدون ثلاث مؤسسات عامة للتربية وهى البيت والمدرسة والمجتمع ويعدون البيت أهمها[٢٣] وخاصة إذا أخذنا فى الاعتبار وأن الأخلاقيين بأن عوامل الأخلاق من الوراثة والبيت والمدرسة وعامل الوراثة متعلق بالبيت أيضا وعلى ذلك عاملان من الثلاث يرجعان إلى البيت.[٢٤]

وقد أدركت هذه الحقيقة الدول المتقدمة كما أدركها رجال التربية وعلماء النفس فبينوا أن خطأ التربية فى هذه المرحلة يعتبر كارثة فى حياة الأطفال ولا

(٢٠) فتح البارى بشرح البخارى ١/ ٢٠٠ كتاب العلم باب تعلم الرجل أمته .

(٢١) سنن أبى داود ٤/ ٣٣٨ حديث ٥١٤٧

(٢٢) الأسس الاجتماعية للتربية ص ٨٦

(٢٣) التربية وطرق التدريس ص ٢٦٩ وما بعدها

(٢٤) المرجع السابق ص ٢٧٠

تقتصر مضار التربية الخاطئة على حياة الأطفال بل تتعدى إلى حياة الأمة لذا يجب أن يعلم الآباء أنه ليست المهارة فى إنجاب الأطفال بل المهارة حقا فى تربيتهم تربية سليمة وتكوين رجال المستقبل منهم ، وليس الفخر فى كثرة الأطفال وإنما الفخر فى صناعة الرجال . وهكذا ينبغى أن يفكر الآباء فى طريقة التربية قبل أن يفكروا فى إنجاب الأطفال وهذا يوجب عليهم أن يتعلموا طرق التربية السليمة أولا وقبل كل شىء هنا يقول الدكتور الكسيس كارل « **فالوالدان اللذان لا يحرصان على أن يتعلما كيف يربيان أولادهما بطريقة علمية يرتكبان خطيئة كبرى** »[٢٥] وقال أفـــلاطون من قبل « وقد تتم الجرائم الكبيرة والانحطاط الصرف من خلق رائع أتلفه التدريب غير الصالح »[٢٦]. إن إنجاب الأطفال دون أن يتزود الوالد بالكفاية المالية ومعرفة طرق التربية المطلوبة يعتبر جريمة فى حق الأطفال ولهذا قال الرسول – صلى الله عليه وسلم – **من استطاع منكم الباءة فليتزوج**[٢٧] والباءة كما فسرناها بالواجبات الزوجية ومن ضمنها الكفاية المالية والتعليمية والتربوية وكم نرى من هؤلاء الذين لا يملكون هذه الكفاية لا يأتون إلا بالأطفال التعساء فيصابون بأمراض عضوية بسبب النمو غير الطبيعى نتيجة [illegible] الأغذية وبالأمراض النفسية نتيجة سوء التربية وسوء المعاملة فيخرجون إلى الحياة معوقين نعانى منهم فى مجال التربية ويعانى منهم الأطفال الأسوياء وأخيرا المجتمع كله ويخرجون إلى الحياة مجرمين منحرفين . فقد وجد الباحثون أن الغالبية العظمى من المجرمين من هؤلاء الذين إما عاشوا بعيداً عن حياة البيت فى ملاجىء الأطفال أو المؤسسات الأخرى أو الذين عاشوا فى البيوت ولكنهم لم يتلقوا التربية أو تلقوا التربية الخاطئة وهكذا فإن هؤلاء الآباء يخطئون فى حق أنفسهم وفى حق أبنائهم وفى حق مجتمعهم ، يخطئون فى حق أنفسهم لأنهم يعانون من سوء سيرة أبنائهم ويشعرون بالكآبة عندما يرون أنفسهم عاجزين عن إعطاء أبنائهم ما يحتاجون من التغذية والملبس والتربية والتعليم وهذا

---

(٢٥) تأملات فى سلوك الإنسان ص ٨٧

(٢٦) الجمهورية للأفلاطون ص ١٠٤

(٢٧) صحيح البخارى ٧/ ٣ كتاب النكاح

يضرهم أكثر من ضرر العزوبة ويخطئون فى حق أبنائهم لأنهم يعيشون تعساء فى الحياة لا ملجأ يأويهم ولا مال يعلمهم ولا إعداد للحياة يصلحون به للحياة السليمة.

ويخطئون فى حق المجتمع لأنهم يخرجون ناساً للمجتمع لا ينفعون الناس ولا ينتجون بل يستهلكون فقط فصحتهم بحاجة إلى المعالجة وهم بحاجة إلى الغذاء مع أنهم لا يستطيعون كسب أثمانه وكثيرا ما نرى من هؤلاء الأطفال وأكبادنا تنزف دما حينما نجدهم فى الشوارع فى حالة يرثى لها، فماذا يصنع هؤلاء الأطفال لابد من أن يتحولوا إما إلى شحاذين فى الطرقات وإما إلى سارقين أو مجرمين قساة القلوب لأنهم لم يروا عطفا يعطفون به على الناس ولم يروا رحمة يرحمون بها الناس ولم يروا خيرا ليعملوا الخير ولم يتلقوا التربية الإنسانية ليصبحوا ناسا بين الناس ولا يستطيعون التكيف لا فى المجتمع ولا فى المؤسسات التى يعملون فيها ومع الناس الذين يتعاملون معهم، ومن كانت خصالهم هكذا لا يمكن أن يجدوا السعادة فى الحياة والبهجة والسرور فيها فيصبحون تعساء ومن منا يرضى أن يكون أبناؤه هكذا!

إذن تبدو هنا أهمية تربية الأطفال فى البيت واضحة.

ولهذا فقد أعطى الإسلام العناية الكبرى لتربية البيت وشجع الآباء على تربية أبنائهم وخاصة التربية الخلقية فقال الرسول «أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم»(٢٨) ولما نزل قوله تعالى «قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً» قال مجاهد «قوا أنفسكم وأوصوا أهليكم وأدبوهم»(٢٩) وقال الرسول: «ما نحل والد ولدا خيرا من أدب حسن»(٣٠) لأن التربية الأخلاقية أهم من تعليم العلوم فى المرحلة الأولى خاصة وهذا يؤكده الفيلسوف الألمانى كانط يقول «إن النقص الحاصل من إهمال التهذيب أشد وطأة وأضر بالإنسان من نقص التسليم فإن العلم يمكن تداركه فى الكبر أما التهذيب وتحسين الخلق فهيهات هيهات يصلح شأنه بعد فوات فرصته فى الصغر إن الخطأ فى تهذيب الطفل لن يصلح أبد الدهر»(٣١) ويؤيد ذلك أيضا

(٢٨) سنن النسائى ٢/ ١٢١ كتاب الأدب

(٢٩) فتح البارى بشرح البخارى ١٠/ ٢٨٥ كتاب التفسير

(٣٠) سنن الترمذى ١٢/ ٢٢٧ كتاب البر – مسند الإمام احمد ٣/ ٤١٢

(٣١) كتاب التربية لكانط ١٥

الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو يقول «إن مأساة الحياة البشرية وأنواع نكباتها التي تبدأ كلها من هذا الخطأ الأول خطأ ترك الرذيلة تتسرب إلى الطفل»[٣٢] بل إن أفلاطون يرى الأخلاق أهم من العلم يقول «**ليست المعرفة وإن احتوت جميع العلوم هي التي تخلق السعادة وتجلب الرفاهية ولكن الله يخلقها هو فرع واحد لا أكثر من فروع المعرفة وهو علم الخير والشر**»[٣٣]

ومن أهم ميزات التربية في المرحلة المبكرة أيضا أنها تؤثر في الأطفال تأثيرا كبيرا وتصبح خبراتهم هذه عادات لا يتركونها ولهذا فإننا نرى الكفار لم يؤمنوا برسالة السماء بالرغم أن الاقناع العقلي وقد برروا موقفهم بأنها تجعلهم يتركون عادات وتقاليد آبائهم، فقالوا: ﴿ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾[٣٤] ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ ﴾[٣٥] وقالوا استنكار للوحي لأنهم لم يسمعوا من آبائهم ﴿ مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[٣٦] وقال التربويون إن الطفل يتقبل من آبائه أكثر مما يتقبل من معلمه وأن ماتعوده وتربى عليه في صغره من الصعب إزالته عنه في كبره، ولذلك يجب الاعتناء والمحافظة على تعليمه بحيث لايلقن إلا صحيح الاعتقاد ولايفعل والداه بمرآى منه مايخالف الدين والآداب والأخلاق القويمة وآداب المعاشرة السليمة.

وهناك خطأ تربوى يرتكبه الآباء في حق أبنائهم لا نتيجة الضائقة الاقتصادية ولكن نتيجة الجهل الذي يدعوهم إلى الغياب عن البيت وقضائهم أوقاتهم خارج البيت فلا يحضرون للبيت إلا للنوم وللراحة فالأم تقضي أوقاتها مع صديقاتها وأصدقائها في مواطن اللهو واللعب وأماكن الترفيه والأب كذلك وبذلك يهملون تربية أبنائهم والإشراف عليهم ويحرمونهم من الجو العاطفي والروح العائلية الدافئة.

وقد يكون سبب هذا أحيانا عمل الأم في ميادين العمل وبذلك تعجز عن القيام بدورها التربوي الذي هو أهم وظيفة لها.

---

(٣٢) اميل لروسو ص ١٠٦ (٣٣) التربية لعالم حائر جـ ٣٣. سير رتشرد نفجستون

(٣٤) سورة هود ٨٧ (٣٥) سورة سبأ ٤٣ (٣٦) سورة المؤمنون ٢٤

ولهذا وذاك قد تحولت البيوت إلى فنادق كما يقول الدكتور زكريا إبراهيم ، يقول « ونظرا لانشغال عدد كبير من النساء المتزوجات بأعمالهن اليومية فى المصنع أو المكتب أو فى مقـــر آخر فقد انصرفت الكثيرات منهن عن الاهتمام بشـــئون البيت مما جعل من البيت مجرد فنادق للنوم ولاشك أنه إذا كان فى تقييد المرأة الحديثة بالمنزل حجر على حريتها فإن فى صرفها عن الحياة المنزلية قضاءاً مبرماً على الأسرة .

هذا إلى أن فى انشغال النساء المتزوجات بالمصانع والمحلات عددا كبيرا من الساعات إهمالا مؤكدا لواجب الأم نحو الطفل وهو ما أدى إلى تزايد عدد الأحداث الهائمين على وجوههم فى الشوارع وارتفاع نسبة الجرائم بين الأحداث عموما وليس من شك فى أن الأم التى تجد نفسها مضطرة إلى أن تقضى عددا كبيرا من الساعات بعيدا عن بيتها لا يمكن أن تجد متسعا من الوقت للإشراف على شئون بيتها وإعطاء أبنائها الصغار القسط اللازم من العناية والرعاية وكيف يتسنى للأبناء أن ينعموا بعطف أمهم وأن يتلقوا عنها تربية صحيحة إذا كان جل وقتها ضائعا بين المصنع والنادى أو بين المكتب وحلقات الميسر.. الخ .

وفضلا عن ذلك فإن الملاحظ فى كثير من البلاد الأوروبية والأمريكية أن تزايد الفرص أمام النساء للعمل فى المصنع والمحلات قد فوت على الكثيرات منهن فرص تعلم الفنون المنزلية وتلقى علوم التدبير والحياكة والتربية وخلافه .

والواقع أن نساء كثيرات منهن أصبحن يتوهمن أنهن أسمى بكثير من أن ينزلن بأنفسهن إلى هذا المستوى ، ولذلك فإن الواحدة منهن حينما تصبح زوجة إما لا تلبث أن تجد نفسها بإزاء مهمة لم تعد لها أو بإزاء تبعة لا طاقة لها على النهوض بها ونظرا لحاجة مثل هؤلاء النساء إلى الإلمام بشئون البيت فانهن يجعلن من الحياة المنزلية جحيما لا يطاق »[٣٧]

وقد أدرك هذه الحقيقة كبار رجال التربية فى روسيا بعد أن قاموا بفتح دور الحضانة ورياض الأطفال للاستغناء عن البيوت والأمهات لأنهم ظنوا فى البداية

(٣٧) الزواج والاستقرار النفسى للدكتور زكريا ابراهيم ص ١٠٨

أنهم يستطيعون الاستغناء عن حياة البيوت باستلام الأطفال من الأمهات بعد الولادة وتنشئتهم فى هذه الدور.

وبالرغم من أنهم اضطروا أخيرا إلى الاعتراف بالأسرة والحياة المنزلية وبدور الأم فى التربية وخاصة فى المراحل الأولى وتقديرهم هذا الدور وتشجيع الأمهات على الاهتمام بالأمومة والآباء بالأبوة فإنه نظرا لانشغال المرأة فى المصانع والمكاتب اضطروا إلى فتح دور حضانة فى كل مؤسسة للعاملات بها ، وقالوا أخيرا نحن نتمنى أن يأتى يوم تتحسن فيه اقتصاديات البلاد وتستغنى الأمهات عن العمل ويتفرغن لتربية الأطفال والحياة المنزلية[٣٨] .

تلك حقيقة أدركوها بعد التجربة فى دور الحضانة لأن المربيات فى هذه الدور لا يمكن أن يعطين العطف والحنان لمجموعة من الأطفال ولا يمكن أن يقمن برعاية الأم حتى ولو فرضنا أننا قد وجدنا لكل طفل فى هذه الدور مربية مستقلة فإنها لا تستطيع أن تشبع الطفل من الحنان وعطف الأمومة بالدرجة التى تستطيعها الأم ذلك أنها ليست أمه فلابد من أن تكون باردة فى عواطفها ومشاعرها نحوه . لأن هذه العواطف والمشاعر لا تنبع من قلبها ونفسها ودوافعها الأساسية أما الأم فلا تستطيع أن تمنع نفسها من العطف والحنان والرعاية لأن هذه الأمور نابعة من نفسها وقلبها وروحها لأن ما فى حضنها جزء من قلبها وروحها ولحمها ودمها .

وهكذا كان الإسلام حكيما عندما دعا إلى تكوين البيت والأسرة على أن تكون أساسا لتكوين المجتمع وأن تكون مدرسة الأطفال وأن تكون مدرسوها أمهات وآباء وعندما أعطى لحياة البيت وللروابط بين أفراد البيت القداسة الدينية .

والتربية ليست مجرد تهذيب الأخلاق فقط كما يفهمها البعض من الناس وإنما هى بوجه عام إعداد الفرد للحياة وهذا لا يكون إلا بتكوين شخصيته متكاملة تستطيع التكيف مع الظروف المختلفة ومع المجتمع الذى يعيش فيه وتستطيع مواجهة مشكلات الحياة المختلفة وتحمل صعوباتها وتكون راضية عن أعمالها ويكون المجتمع راضيا عنها ويثق فى نفسها ويثق فيها المجتمع .

---

(٣٨) الزواج والاستقرار النفسى للدكتور زكريا ابراهيم ص ١١٢

الشخصية الكاملة التي تتكامل فيها جوانب النمو العقلي مع النمو الاجتماعي والعاطفي والروحي والخلقي والعلمي والصحي والإبداعي والاعتقادي .

أسس التربية السليمة

ولكي تحقق التربية هذا الهدف الأساسي منها فلابد من أن تقوم على أسس وفيما يلي سأشير إلى أهمها :

الأساس الأول :تأسيس التربية على أساس مراحل النمو فنحن لا نستطيع أن نلقن أي فكرة في أي مرحلة من مراحل النمو. وإن ادعى ذلك البعض – لا نستطيع أن نطالب الطفل بالقيام بأي سلوك في أي سن ، ولا نستطيع كذلك أن نعلم كل شيء في أي مرحلة وكذلك تهذيب الأخلاق وغيره فعملية التربية لابد من أن تساير عملية النمو الطبيعي وأن تساير نمو الميول عند الطفل ، وإلا فستؤدى التربية إلى أضرار بالغة الخطورة لا يدركها إلا التربويون . وقد ذكر هؤلاء مراحل النمو وكيف يرتبط سلوك الطفل بهذه المرحلة ولا أستطيع بيان كل ذلك بالتفصيل هنا لأنني لا أكتب كتابا في التربية ولكن أحب إعطاء بعض المعالم الهامة ليسترشد بها الآباء والأمهات ولأثير اهتمامهم بهذا المجال ليتوسعوا في قراءة الكتب الخاصة بالتربية إن أرادوا أن يربوا أولادهم تربية سليمة .

وفيما يتعلق بمراحل نمو الطفل فقد ذكر التربويون أن الطفل في المراحل الأولى من حياته إلى حوالي السنة السادسة من عمره يقوم سلوكه وتربيته وتعليمه على أساس اللذة والألم الحسيين فإذا ترتب على سلوكه لذة حاول فعله مرة أخرى وإذا ترتب عليه ألم حاول تجنبه مرة ثانية . ومن هنا نجد الطفل عند تعرفه على العالم المحيط به يحاول أن يعرف كل شيء بلمسة بيده أو بفيه لأنه لا يملك وسيلة أخرى لمعرفة قيمة الشيء غير ذلك ، ونجده كذلك يقفز من العالية لأنه لا يقدر قيمة المسافة بالإدراك والنظرة « فليست عنده طريقة للتعرف على قيمة العالم المحيط

به إلا طريقة اللذة ، والألم أو بتعبير آخر طريق الحس والاختبار الحسى .

وفى المرحلة التى تليها توجه سلوكه المنفعة فإذا رأى فيه المنفعة فعله وإذا لم ير تركه وهذه المرحلة تستمر إلى حوالى السنة التاسعة .

وفى المرحلة التى بعدها يبدأ يبنى سلوكه على أساس ما تكون عنده من القيم فيقوم سلوكه على أساس أن هذا حسن وذاك قبيح وأن هذا فعل إنسانى وذاك فعل حيوانى .

هنا نجد صلة بين النمو وبين السلوك كما نجد مثل هذه الصلة بين النمو وبين عملية اختيار المهن ونوع المدرسة ونوع العمل إلى آخره .

ففى عملية الاختيار يمر الفتى بثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : مرحلة التخيل وتستمر إلى ما قبل البلوغ أو المراهقة . فى هذه المرحلة يبنى الفتيان اختيارهم للأعمال على الخيال لأنهم لا يقدرون الصعوبات المترتبة على هـــذا الاختيار أو ذاك ولا يستطيعون أيضا أن يوفقوا بين سلوكهم وقدراتهم لأنهم لا يستطيعون أن يقدروا مدى ما عندهم من استعدادات وقدرات ولأن قدرات الإنسان فى هذه المرحلة فى نمو مستمر إذ أنها لا تكتمل إلا بعد مرحلة المراهقة .

المرحلة الثانية : مرحلة الاختيار المبدئى وتبدأ عند بدء مرحلة المراهقة ، وفى هذه المرحلة يشك المراهق فى قدراته بالرغم من إحساسه بنمو هذه القدرات نموا سريعا وبالرغم من بدء إحساسه بالتأكد من ذاته إلا أن تقديراته للأمور ونظرته إلى الأوضاع تنبع من أفكاره الذاتية وتخيلاته الداخلية فتقديره للأمور يخضع غالبا للأفكار الذاتية لا الموضوعية وينظر إلى الأوضاع من زوايا ذاته لا من زوايا الوقائع الخارجية الموضوعية ولهذا يحس بأخطائه عندما تحول إحساساته وأفكاره إلى وقائع ويجد

الفرق بين ما يحس وبين ما هو واقع بين ما يفكر فيه داخل نفسه وبين الحقائق الخارجية . وهذا ما يجعله يختار مهنة اختيارا مؤقتا ومبدئيا إلى أن يحس فى قرارة نفسه باستقرار آرائه وقدراته وتصوراته عن ذاته وإلى ذاته وإلى أن يحس بالتلاؤم بين هذه التصورات ، والمدركات الذاتية من جهة وبين الحقائق الموضوعية الخارجية الواقعية من جهة أخرى .

المرحلة الثالثة : مرحلة الاختبار الموضوعى الواقعى وهى تبدأ بعد مرحلة المراهقة . ففيها يبدأ اهتمامه بالاعتبارات الموضوعية الواقعية فى اختياره لنوع الدراسة أو المهنة أو العمل وفى مواجهته للمشكلات ويستقر فى آرائه واختياراته وفيها يحاول أيضا أن يلائم وأن يوفق بين ما يحس فى قرارة ذاته وبين ما يدرك من الحقائق الخارجية وبين ما يواجه من وقائع فى حياته الراهنة .

إذن فى هذه المرحلة تتدخل فى سلوكه العوامل الذاتية والعوامل البيئية وما يدركه من الحقائق وما يؤمن به من القيم ، ونهاية المرحلة السابقة وبداية هذه المرحلة تعتبر من أهم مراحل القلق والاضطراب فى حياة الفرد إذ التوفيق بين هذه العوامل . واتخاذ اتجاه معين ثابت واختيار طريقة للحياة الفكرية والعملية من أصعب الأمور كما أنها تعتبر أخطر مرحلة من حيث كونها ملتقى الطرق التى يختار فيها المرء بين مسالك الحياة والاتجاهات المختلفة من جهة وبين الدوافع الذاتية والأهداف من جهة أخرى . ولهذا فمن السهل أن يتوه الشباب ومن السهل أن ينحرف ومن أجل ذلك يجب على الآباء أن يتفهموا أولادهم ويقدروا مراحل نموهم ويساعدوهم فيها على الاتجاه السليم بالإقناع وحسن الإرشاد، وأن يبرروا ما يقع منهم أحيانا من بعض الأخطاء دون أن يوافقوا عليه وأن يتحملوه دون أن يتقبلوه .

وأخيرا أود أن أنبه إلى أن هذه المراحل السابقة سواء فيما يتعلق بالنمو أو فيما يتعلق بالاختيار هي مراحل لا توجد بينها حدود قاطعة وفواصل حاسمة بل فيها تداخل وفيها ارتباط ويختلف فيها الأفراد من حيث سرعة النمو وبطؤها ، ولهذا لا ينبغي أن يتخذ ما نقوله هنا أساليب روتينية دائما وإنما هو مجرد فكرة عامة ولابد من معرفتها أيضا كمعالم فى طريق التوجيه والإرشاد .

الأساس الثانى : وجود الفرق الفردية بين الذكور والإناث من جهة وبين أفراد الجنس الواحد من جهة أخرى ، ولهذا فعلى المربى أن يلاحظ هذه الفروق وأن تكون تربيته وتوجيهه مبنية عليها ، هذه الفروق قد تكون فى الإحساس وقد تكون فى القدرات العقلية وقد تكون فى الميول وغيرها ، هذا وأهم وسيلة لنجاح التربية هى التوفيق بين القدرات ، والاستعدادات من جهة وبين الميول والاتجاهات من جهة أخرى .

الأساس الثالث : إن الطبيعة الإنسانية طبيعة بيولوجية سيكولوجية معا ، أى هى مركبة من العنصر المادى والروحى أو النفسى والصلة بينهما وثيقة للغاية إلا أنهماليسا شيئا واحدا فى الحقيقة ونفس الأمر ، بل هما شيئان جوهريان مختلفان وأنا أخالف فى هذا القائلين بالوحدة البيولوجية . ولكنهما بالرغم من اختلافهما يتبادلان التأثير والتأثر ، فالأمراض البيولوجية مثلاً تؤثر فى الحالة السيكولوجية والأمراض السيكولوجية قد تكون سببا للأمراض البيولوجية وقد تعالج هذه بتلك ، هذه النقطة مهمة فى عملية تربية الأطفال ذلك أن بعض الآباء قد يكون اتجاههم روحيا صرفا فلا يهتمون بجانب التربية الجسمية كعدم الاهتمام بالتغذية والترويح والوقاية اللازمة ويكون ذلك سببا للإصابة بالأمراض والنقص فى النمو الجسمى ، وقد يكون بعض الآباء عكس هؤلاء فيهتمون بالجانب المادى من التربية فقط ويهملون الجانب النفسى والروحى فتتكون عندهم

الأمراض النفسية والروحية وهذا بالتالى يكون سببا للإصابة بالأمراض العضوية ويؤثر أيضا فى حياة الفرد الداخلية ونشاطه الخارجي .

ولا أريد هنا ذكر جميع الأدلة الواردة فى الشرع بشأن وجود الروح والنفس فى الطبيعة الإنسانية وتركيب الإنسان من المادة والروح معا ولهذا سأقتصر على دليل قرآنى ودليل واقعى مشاهد أما الدليل القرآنى فهو قوله تعالى:

﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (1)

﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (2)

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (3)

أما الدليل المشاهد الحسى فهو أن الإنسان عندما يموت من غير أى إصابة ومن غير أى مرض نجد أن جميع أجهزة جسمه سليمة فما الذى حصل حتى تعطلت الحياة ، فالذى حصل هو فقدان طاقة الحياة التى تحركه ، فهذا المحرك هو الروح ، ولكن ما حقيقة الروح نحن لا ندرك حقيقتها وعدم إدراكنا لها لا يدل على عدم وجودها لأن علمنا لا يكفى لإدراك كل شيء إذ أن هناك أشياء كثيرة فى الوجود لم ندرك حقيقتها بعد. ولم نستطيع مشاهدتها وبالرغم من ذلك نعترف بوجوده ، مثل المغناطيس ، والهواء والكهرباء معا إلى ذلك .

---

(1) سورة السجدة ٧ ـ ٩

(2) سورة الإسراء آية ٨٥

(3) سورة الزمر ٤٢

الأساس الرابع : إن الطبيعة الإنسانية ليست خيرا محضا كما يقول البعض وليست شرا محضا كما يقول البعض الآخر بل هي شيء خال من هذا وذاك وقابلة لأن تكون شريرة وأن تكون خيرة ومصداق ذلك قوله تعالى وهو أعلم بمن خلق﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[٤] أى خلقنا فيه استعداداً للخير وللشر معا ، وقال تعالى﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[٥] وقال الرسول – صلى الله عليه وسلم – ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه «كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء»[٦]

أى أن الإنسان يولد خاليا من أى اعتقاد ومن أى مسلك فأبواه هما اللذان يجعلانه يعتقد هذا أو ذاك ويسلك هذا المسلك الخير أو ذلك المسلك الشرير وأدل من كل هذا قوله تعالى﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[٧] إذن الخير والشر يأتيان إلى الإنسان من التربية ، فالتربية الخيرة تطبع الإنسان بالطابع الخير والتربية السيئة تطبعه بالطابع الشرير.

الأساس الخامس : مرونة الطبيعة الإنسانية ، فالإنسان قابل للتشكيل بأشكال مختلفة وتكوين عادات جديدة وإزالة عادات قديمة . وسهولة ذلك وصعوباتها تختلف بحسب عمر الإنسان ومدى قابليته للتشكيل من جهة وبين أساليب التغيير والتبديل من جهة أخرى ، كما تحكم فى استعداد الإنسان بعض العوامل الوراثية التى أشرنا إلى بعضها فيما سبق .

الأساس السادس : تختلف أساليب التربية والتعليم ووسائلها بحسب مراحل النمو فمثلا الأساليب المناسبة لمرحلة الطفولة والوسائل المستعملة لعملية التعليم غير الأساليب والوسائل التى ينبغى أن تستعمل فى مرحلة المراهقة إذ أنها ينبغى أن تكون حسية بقدر الإمكان فى المرحلة

---

(٤) سورة البلد آية ١٠ (٥) سورة الشمس ٧ – ٨

(٦) التاج جـ ٥ ص ١٩٦ (٧) سورة الشمس ٩ ١٠

الأولى وأن تكون عقلية إدراكية فى المرحلة الثانية ، وقد يقتضى الأمر الجمع بين الوسيلتين فى بعض الموضوعات التعليمية .

الأساس السابع : التربية الأخلاقية والاجتماعية ينبغى أن تتم فى وسط اجتماعى وفى وسط بيئى فيجب تهيئة بيئة للطفل ، يطبق فيها المفاهيم الملقنة وأن يعيش فى بيئة لا تخالف الأوضاع فيها لما يلقن من المفاهيم والآداب السلوكية فمثلا إذا أردنا أن نربى أولادنا بالتربية الأخلاقية والآداب الاجتماعية السليمة لا ينبغى أن نتركهم يصاحبون الرفقاء الأشرار الفاسدين الفاشلين وأن نجد لهم الرفقاء الصالحين وأن نجعلهم يطبقون ما نلقن لهم من المبادىء والمفاهيم الصحيحة فى الأوساط الاجتماعية المختلفة . كذلك ينبغى أن نهيىء لهم بيئة طاهرة من المفاسد والمظاهر المفسدة حتى لا تتسرب إلى نفوسهم الرذائل والخبائث من حيث لا يشعرون .

الأساس الثامن : تحقيق مطالب النمو عند الأطفال ، يجب أن تحقق التربية مطالب النمو الإنسانية فى طبيعة الإنسان إذ أن هناك مطالب النمو الجسمى والنمو العقلى والنفسى والاجتماعى والخلقى فلابد أن تكون التربية متكاملة متناسقة بحيث تتكامل فيها هذه الجوانب وأن تتم كلها على مستوى واحد وأن يكون هناك أيضا تناسق فيما بينها فلا يتعارض هذا الجانب مع الجانب الآخر ، وهكذا وفيما يلى سوف أحاول بقدر الإمكان توضيح بعض المبادىء العامة فى تربية كل جانب من الجوانب السابقة .

جوانب التربية المتكاملة

التربية الصحية :

وتشمل : الصحة الجسمية والصحة النفسية . وفيما يلى نشرح كلاً منهما على حدة :

أ - التربية الجسمية :

للتربية الجسمية طريقتان لابد منهما إذ أن لها جانبين : جانب البناء وجانب الوقاية .

فالجانب الأول يتحقق عن طريق تطبيق عوامل البناء ، من هذه العوامل : عامل التغذية الكاملة ، فيغذى الطفل بجميع الأغذية والفيتامينات التى يحتاج إليها إذ أن نقص التغذية اللازمة يعرض الجسم للإصابة بالأمراض ويخلق استعدادات لها ، بالإضافة إلى هذا يؤدى إلى النقص فى النمو الجسمى والعقلى ، والنقص فى وظائف الأعضاء والنشاط العام فى الحياة . ذلك أن الغدد الموجودة فى الجسم تؤثر فى نمو الجسم تأثيرا كبيرا وكل غدة لها وظيفة معينة فاذا نقصت إفرازاتها نتيجة النقص فى الأغذية أو الفيتامينات التى تحتاج إليها فإن ذلك يؤدى إلى النقص فى جانب من جوانب النمو :

فمثلا نقص إفرازات الغدد الأدرينالية يؤدى إلى النقص فى النشاط العقلى والجنسى والعضلى ، كما يؤدى نقص إفرازات الغدة النخامية إلى تأخر النمو الجسمى والعظمى ويؤدى نقص إفرازات الغدة الدراقية إلى تأخر المشى والكلام وإعوجاج الهيكل العظمى وعدم انتظام الأسنان .

كما أن زيادة إفرازات هذه الغدد المذكورة وغيرها يؤدى إلى أعراض أخرى . ولا أستطيع ذكر ذلك كله هنا ، فمن شاء أن يتوسع فيها فليرجع إلى كتب الطب وإنما تعرضت لها هنا بهذا القدر لبيان مدى أهمية نظام التغذية فى بناء الجسم السليم . وليس تغذية الطفل فقط بل تغذية الأم أيضا . لأن نقص غذاء

الأم أثناء الحمل والرضاعة يؤثر على نمو الطفل نموا سلبيا ، بل قد يؤدى إلى تشوه الخلقة الكاملة .

وهناك عوامل أخرى تؤثر فى بناء الجسم مثل الأنشطة الرياضية المختلفة والترويح والتنزه فى المتنزهات ذات الجمال والهواء الطلق ، ومثل صحة الوالدين والعوامل الوراثية الموجودة فيهما فإذا كانت صحتهما جيدة والعوامل الوراثية حسنة ، فلاشك أن كل ذلك يؤثر فى بناء جسم الطفل وعقله بناء سليما ويكون الأمر خلاف ذلك إذا انعكست هذه الأمور . وقد ذكرنا طرفا من أساسيات الصحة السليمة التى ترجع إلى صحة الوالدين من الناحية الجسمية والعقلية والنفسية .

الجانب الثانى من تربية الجسم هو الوقاية ، فالوقاية خير دواء ، فإن الوقاية وبناء الجسم السليم يمنعان الاستعدادات المرضية من أن تلعب دورها ، فمثلا إذا كان عند الطفل استعداد لمرض السل فالأمران السابقان يمنعانه من الإصابة بهذا المرض .

والوقاية تكون عن طريق تعويد الطفل على النظافة وعلى العادات الصحية السليمة وإبعاده عن الأماكن الموبوءة وعن مصاحبة الناس المرضى والمشبوهة بالمرض ، ولاسيما الأمراض المعدية ، واتباع النظام العلمى فى الملبس والمسكن .

ب- الصحة النفسية :

هدف الصحة النفسية هو خلق الشعور بالسعادة والشعور بالسعادة لا يتم إلا إذا اتخذ الإنسان مسلكاً فى الحياة وله فيها هدف أو أهداف يسعى لتحقيقها وهى بدورها تتلاءم مع اعتقاداته ومع ما يؤمن به من القيم الدينية والاجتماعية . ويعمل فى مسلكه باخلاص بحيث يشعر بالرضى عن نفسه وعن عمله ويرضى المجتمع عنه وبذلك يشعر أنه إنسان خير ويعمل للخير وأن مصيره إلى الخير . وأنه يعمل ويسلك المسلك الذى يرضى ضميره ويرضى مجتمعه ويرضى ربه وهذا الرضى وهذا الشعور بخيرية الذات وخيرية الحياة وخيرية المصير هو السعادة فى نظرى وفى اعتقادى ولكن هذا لا يمكن أن يحصل إلا بتوفر الشروط الآتية :

الشرط الأول : الشعور بالأمن والطمأنينة النفسية

الشرط الثانى : القناعة بما فى يد الإنسان وعدم الطمع فيما فى أيدى الناس .

الشرط الثالث : التخلص من القلق والاضطراب والخوف والأمراض الأخرى .

الشرط الرابع : اتخاذ مسلك فى الحياة يتفق مع قيم المرء الدينية والاجتماعية .

وكلما زاد مقدار تحقق هذه الشروط كلما زاد مقدار شعور الفرد بالسعادة . وهذا هو الطريق الوحيد إلى الصحة النفسية .

غير أنه لا يمكن تحقيق السعادة بهذه الصورة لدى الأولاد فى كل مرحلة ، إذ أنه توجد هناك أساليب مناسبة . وخاصة لكل مرحلة وأساليب عامة للمراحل كلها ، ولهذا ينبغى تطبيق المبادىء العامة الآتية للصحة النفسية :

أولا : سلامة الجو العائلى من الخصومات المستمرة وتصدع الحياة العائلية . إذ أن الخصومة المستمرة بين الوالدين تؤثر تأثيرا كبيرا فى نفسية الأطفال ، قد يكون السبب فى ذلك أن اتجاه أحد الوالدين أو كليهما إلى الوالدية غير سليم كأن يشعر بأنها عملية إرهاق أو مسئولية لا تطاق أو أنها قيود على حريته ، فهذا الاتجاه وذلك الشعور يؤديان إلى الضيق من الحياة المنزلية ومن الأولاد وهذا بدوره يمنعه من إضفاء الجو العاطفى والحنان الأبوى على حياة البيت . بالإضافة إلى هذا فأنه يملأ البيت بجو مشحون بالانفعالات النفسية الساخطة . عندئذ لا يشعر الأبناء لا بالمحبة ولا بالعطف ، بل يشعرون بالنبذ والإهمال والسخط وهذا يؤدى إلى الشعور الباطنى بالحرمان التام من العاطفة الوالدية ومحبتها وهو من أهم أسباب الاضطراب النفسى الذى يحدث عند الأطفال لا فى حياتهم الحاضرة بل فى حياتهم المستقبلة أيضا .

وقد يكون السبب فى الخصومة المستمرة الزوجة المسترجلة أو الزوجة المستيرية أو الزوج الطفل الذى ينتظر من الزوجة ما كان ينتظره من أمه حين كان طفلا .

وأخيرا قد يكون السبب فى ذلك الحالة الأخلاقية لدى أحد الوالدين مثل الإدمان على المخدرات أو المجون فى السلوك وكل ذلك يؤدى إلى ما تؤدى إليه المشاعر الوالدية الخاطئة .

ثانيا : تحقيق الحاجات النفسية الأولية للأطفال .

من أهم هذه الحاجات الشعور بالأمن والشعور بالأمن ، مشروط بأن يلقى الطفل المحبة والقبول من الأبوين وأن يجد الاستقرار فى المعاملة فالتناقض الشديد فى المعاملة يؤدى إلى الاضطراب الانفعالى الشديد لدى الأطفال .

ثالثا : تجنب استعمال الأساليب الخاطئة فى التربية .

وقد ذكر الدكتور مصطفى فهمى أهمها وهى الآتية :

– الحرمان من رعاية الأم .

– شعور الطفل بأنه غير مرغوب فيه أو منبوذ ، وذلك نتيجة الإهمال وعدم تحقيق رغباته والتهديد المستمر بالطرد من المنزل أو عقابه على الأمور التافهة ، وهذا هو السبب فى بعض الحالات المرضية التى تجدها عند بعض الأطفال مثل الثورة والعناد والعدوانية ومخالفة السلطة والنظام باستمرار وتعريض نفسه أحيانا للصدمات والجروح وذلك ليفرغ انفعالاته الحاقدة على الناس الناشئة من حقده على مجتمع البيت وليثير اهتمام الناس والعطف عليه بجروحه وآلامه لأنه محروم من هذه الرعاية الضرورية له .

– إفراط الأبوين فى التسامح والتساهل والصفح عن الأبناء . وهذا يؤدى إلى عدم نضجهم الانفعالى وعدم أخذهم الأمور بجدية وتحملهم نتائج الفشل فى الحياة لأنهم عندئذ ينتظرون من الناس أن يكونوا كالأبوين فى الصفح وعدم العقاب والحساب .

– الإفراط فى رعاية الأطفال وحمايتهم .

– الصرامة والقسوة من جانب الوالدين فى معاملة أطفالهم إذ أن الإفراط فى القسوة والرعاية كلاهما يؤديان إلى نتائج سيئة .

– الطموح الزائد من الآباء .

فقد يرغب بعض الآباء فى أن يتخرج ابنه دكتورا كبيرا أو عالما فيلسوفا دون مراعاة استعدادات وإمكانيات ابنه وميوله وقدراته ونتيجة لهذا يضغط عليه فى العمل والمذاكرة فيضجر الطفل من هذه العملية ويتكون عنده انفعال مضاد لهذا الاتجاه ، وبالتالى يتكون انفعال عدوانى على الوالد ثم أخيرا يسقط هذه الانفعالات المضادة العدوانية على غيره فى المجتمع .[8]

بعض المبادىء العامة فى تربية وتوجيه المراهق

لعل أصعب مراحل التربية هى تربية المراهق كما أن أصعب المراحل التعليمية هى المرحلة الثانوية لأن المتعلمين فيها فى مرحلة المراهقة ، وقد وجد المربون صعوبات شتى لِمَ فى أمر التربية فى هذه المرحلة ، وقد أشرت إلى بعض أسباب ذلك عند ذكر مراحل النمو . وأهمها أن المراهق يمر بمرحلة بين الطفولة والرجولة وأن قدراته فى مرحلة نمو سريع ولهذا فهو يشعر بحالة تغير مفاجىء غير مستقرة فشعوره عن ذاته يصبح مترددا بين الطفولة والرجولة ومعاملة الناس له تتردد كذلك بين الأمرين .

ولهذا اعتنى التربويون بتربية المراهق وذكروا المبادىء والطرق والأساليب التربوية الصحيحة لذلك ، وفيما يلى أشير إلى بعض هذه الأساليب العامة وأحيل المستزيد منها إلى قراءات متخصصة فى هذا الموضوع .

ولننتقل الآن إلى ذكر هذه المبادىء وشرحها التى وعدنا بيانها .

أولا : يجب أن يفهم الآباء مشاعر أبنائهم المراهقين وإحساساتهم .

معروف أن المراهقين يميلون إلى تأكيد ذاتيتهم ويحبون أن يظهروا شخصياتهم وأن يظهروا بالمظهر المثالى ويميلون إلى مقاومة السلطةوالضغط ويرون فى أن تحترم شخصيتهم وآراؤهم ويضيقون من

---

(٨) الصحة النفسية ص ٦٧ . الدكتور مصطفى فهمى .

النقد الصارخ والسخرية منهم والتنقيص من شخصياتهم ولا شك أن هذه الصفات موجودة بدرجة من الدرجات فى أى إنسان الا أنها تكون ملحوظة وملحة عند المراهقين بدرجة زائدة عن العادة وهى توجد بدرجة أقل من العادة فى مرحلة ما قبل المراهقة .

وكلما كانت الرغبات شديدة وملحة كلما تركت أثرا أكبر عند تحقيقها وعدم تحقيقها .

ولهذا فعلى الآباء أن يفهموا أبناءهم ويفهموا مشاعرهم فى هذه المرحلة على ما هى عليه وإلى جانب فهم مشاعرهم فعليهم أيضا أن يتعرفوا على الخبرات الماضية التى مر بها هؤلاء فى المراحل السابقة ، فهذه الخبرات الناتجة عن معاملاتهم سواء أكانت مؤلمة أم سارة تؤثر فى سلوكهم الحاضر وفى معاملاتهم لأفراد البيت وتؤثر فى اتجاههم عن طريق اللاشعور

ثانيا : أن يكون الآباء صرحاء وأمناء مع أبنائهم .

فلا يظهرون مالا يبطنون فاذا شعر الأبناء بعدم مصارحتهم بإبداء آرائهم فى المواقف التى يقفون فيها وفى الاتجاه الذين يسلكونه فإنهم يرتبكون فى المواقف الأخرى عندما يحاولون أن يعرفوا آراء آبائهم لأنهم لا يطمئنون إلى صراحة مواقفهم وصدقهم فى إبداء آرائهم .

ثالثا : أن يحيوا مع أولادهم ويعيشوا مع مشاعرهم ورغباتهم وخبراتهم . فيعرفوهم بما هم عليه وبما طبعوا عليه من ميول واستعدادات لتكون تربيتهم أو توجيهاتهم فى ضوء تلك المعرفة الأساسية .

رابعا : أسلوب مقابلة مشاعر الغضب عند المراهقين . إن مرحلة المراهقة أكثر المراحل توترا من الناحية الانفعالية ولهذا فسلوك المراهق ومواقفه واتجاهاته لاتكون مستقرة وانفعالاته الشديدة تجعله يكبر الصغير ويصغر الكبير ، قد يغضب لأتفه الأمور أشد الغضب وقد لا يبدى أى اهتمام لأهم الأمور ، ولهذا لا يزن الأمور بالقسطاس المستقيم فى أغلب تصرفاته ومواقفه .

فبناء على هذا ينبغى أن يتيح الآباء فرصا لهؤلاء ليفرغوا شحنات انفعالاتهم ويسقطوا ما فى نفوسهم من مشاعر مكبوتة ويستقبلوا كل هذا منهم بصدر رحب وحكمة وأناة ثم يشرحوا لهم لماذا يغضبون هذا الغضب ويسقطون هذه الانفعالات الثائرة .

خامسا : أن يعيشوا مع أبنائهم فى جو أبوى عاطفى تسود فيه المحبة والمودة والعطف والحنان هذه الأمور تجعل الأبناء لا يستريحون إلى مجالسة الناس كما يستريحون إلى مجالسة الآباء ولا يتمتعون بمصاحبة الغير كما يتمتعون بمصاحبة آبائهم وأمهاتهم ؛ لأنهم لا يجدون أحداً يفهمهم ويوجههم ويخلص فى توجيههم كالوالدين وهذا يمنعهم من مصاحبة الرفقاء الأشرار والفاسدين وكل هذه الأمور أهم فى هذه المرحلة من غيرها .

وأهم شروط التربية للصحة النفسية للأولاد فى مرحلة ما بعد المراهقة هى توفير الشروط التى ذكرناها لتحقيق السعادة النفسية ، فما دام الإنسان لا يشعر بالسعادة فى قرارة نفسه فإنه لا يمكن أن تحقق عنده الصحة النفسية وإذا لم توجد الصحة النفسية فإنه معرض للأمراض النفسية والعضوية معا لوجود الروابط الوثيقة بينهما ، وقد أشرنا إلى هذا الارتباط وهذه العلاقة سابقا فلا داعى لذكرها مرة أخرى .

التربية العاطفية

العاطفة تكوين سيكولوجى مكتسب وقوة دافعة تدفع الإنسان إلى القيام بسلوك إيجابى أو سلبى إزاء أشياء مادية أو معنوية وتختلف من شخص إلى آخر من حيث موضوعها وعددها ونوعها ودرجة قوتها أو ضعفها ويمكن تغييرها وتبديلها وتكوين عاطفة جديدة للطرق التربوية .

وللعاطفة جانبان أو مظهران : مظهر المحبة ومظهر الكراهة .

إن كل إنسان يحب أشياء فى الحياة ويكره أشياء ، سواء أكانت هذه الأشياء مادية أم معنوية ، غير أن هذه المحبة وتلك الكراهية لا تنشآن عبثا أو بدون سبب

ولا تنشآن كذلك بين يوم وليلة وإنما تتكونان عند الفرد نتيجة خبرات متوالية سارة أو مؤلمة أو بدافع فطرى كامن فى طبيعة الإنسان.

فلا تتكون عاطفة المحبة مثلا عند إنسان إزاء آخر إلا إذا رأى منه ما يسره مرات متوالية أو رأى منه منافع متعددة متوالية، كما لا تتكون عاطفة القرابة أو عاطفة الأسرة إلا بهذه الطريقة، فالإنسان يحب أقرباءه عادة لأنه رأى منهم أشياء سارة من النفع والعطف والرعاية زمنا طويلا.

وقد تتكون نتيجة واقع فطرى مثل عاطفة الأبوة والأمومة نحو البنوة.

وقد تتكون نتيجة التربية مثل تلقين الآباء للأبناء بعض الاتجاهات وبعض الأفكار على أنها قيمة أو مقدسة، وتلقينهم بعض الأمور الأخرى على أنها مكروهة قبيحة وضارة.

هذا ويمكننا أن نلخص أهم أهداف نستطيع تحقيقها عن طريق التربية فى مجال العاطفة فى الأهداف الآتية:

الهدف الأول: تكوين العواطف الجديدة فى مختلف موضوعات الحياة القيمة.

الهدف الثانى: إزالة العواطف الضارة المتعلقة بالموضوعات التافهة غير اللائقة بالحياة الانسانية. وذلك عن طريق خلق عواطف مضادة لها وأقوى منها لأن القوى يمحو الضعيف، فالعاطفة تحارب بالعاطفة ولا تحارب بشىء آخر كما أن الأفكار تحارب بالأفكار.

الهدف الثالث: التحقيق من حدة بعض العواطف القوية الشديدة التى تضر صاحبها وذلك بحذف بعض عناصرها. أو إضافة عناصر أخرى مضادة لها. وأهم الطرق لتحقيق هذا وذاك هى الطرق الآتية:

أولا: طريقة الخبرة، أى نجعل الطفل يمر بخبرات سارة إزاء إنسان أو موضوع أو فكرة أو عقيدة أو مذهب إلى آخره إذا أردنا أن نكون عنده إزاءها عاطفة المحبة ونجعله يمر بخبرات مؤلمة إذا أردنا أن نكون عنده إزاءها عاطفة الكراهة.

ثانيا: طريقة التلقين والإيحاء: أى أن يلقن الآباء أو التربويون عموما الأبناء

الأمور التي ينبغي أن يفعلوها ، وذلك بالتحسين والتحبيذ والإيحاء بجمالها وقيمتها وأن يلفتوا نظرهم إلى قيم الأمور التي ينبغي أن يتجنبوها وأن يبتعدوا عنها .

ثالثا : طريقة الجمع بين الأمرين معا إن أمكن ذلك ، أي أن نجعل الطفل يمر بخبرات سارة أو مؤلمة إزاء أمور ويصحب الأولى الإيحاء بالتحبيذ والتحسين ويصحب الثانية الإيحاء بالتقبيح والتنفير.

وينبغي أن يبدأ في ذلك كله من الصغر لأن الخبرات كلما زادت والإيحاءات كلما توالت أدى ذلك إلى تكوين عاطفة قوية ولاسيما الإيحاء فإنه في الصغر يؤثر أكثر مما يؤثر في الكبر. وعلى الآباء أن يحددوا الاتجاه الذي ينبغي أن يسير عليه أبناؤهم في الحياة وأن يحددوا العقيدة الإسلامية الصحيحة التي ينبغي أن يعتنقوها والقيم الإسلامية الصافية التي ينبغي أن يسيروا عليها وأحسن مجالات الحياة التي ينبغي أن يعملوا فيها .

كما ينبغي أن يضعوا أمام أعينهم في الاعتبار الأول خلق عاطفة الحب الاجتماعية والإنسانية وعاطفة حب الجمال والعلم والحق والعدل وأن يخلقوا فيهم عاطفة كراهة الظلم والجهل والقبيح من السلوك وكل ما هو مكروه ومنفر وضار في الحياة وفي الطبيعة .

إن العاطفة مهمة للإنسان في حياته لأنها تدفع الإنسان إلى فعل الأشياء التي يتعاطف معها وتدفعه إلى ترك الأشياء التي يكرهها بدافع داخلي ، بشرط أن تكون العاطفة وراء العقل وأن يكون العقل قائدها وإلا ستكون تصرفات الإنسان غير معقولة تسيره العاطفة لا العقل ، والعاطفة بدون العقل قد تسوق الإنسان إلى المهالك وتجعل حياته في شقاء.

وكم نرى هؤلاء الذين تسيرهم عواطفهم لا عقولهم يقضون حياتهم في الحزن والبكاء لا لشيء إلا لأن أحداً من الأقرباء قد توفي أو إحدى محبوباتهم قد فارقتهم ، وكم نرى منهم من ينتحر ومنهم من يقبل على ذلك من أجل حب أو كراهية . وما ذلك إلا لأنهم قد جعلوا عاطفتهم قائدة لهم . في الحياة فلكي تكون

حياة الإنسان متزنة لابد من أن توضع العاطفة وراء العقل ، ثم إن العاطفة تعتبر روح الحياة لأن الأعمال والسلوك بدون عاطفة تعتبر قوالب صورية روتينية بدون روح . فهى لذلك تكون مملة ومتعبة أما العاطفة فإنها روح الأعمال وروح النشاط تضفى بهجة على حياة الإنسان .

كما أن القيام بأعمال بدون عاطفة تكون مملة فإنه بالإضافة إلى ذلك لا يمكن أن تترك من ورائها الشعور باللذة ولا عند القيام بها ، وكذلك عند الابتعاد عن الأعمال التى ينبغى أن يتجنبها فإنه إن لم يكرهها بقلبه لا يجد فى تجنبها أى لذة أو سرور .

أما العمل مع العاطفة أو مع المحبة فإنه يجعل الإنسان يشعربالارتياح واللذة ولو شعر أثناء العمل بالإرهاق والتعب من جهة أخرى .

وهكذا يجب أن يهتم الآباء بتكوين العاطفة عند أبنائهم ، عاطفة المحبة نحو الأسرة ونحو المجتمع ونحو الإنسانية ونحو الدين ونحو القيم الإنسانية وأخيرا نحو جميع جوانب الحياة القيمة وأن يكونوا عندهم إلى جانب ذلك عاطفة الكراهة للأفكار الهدامة والاتجاهات الخبيثة والنزعات العدوانية والسلوك البغيض وأن يكرهوا كل جانب من جوانب الحياة المنفرة والدنيئة ومناظرها القبيحة أيا كان لونها وشكلها وبذلك تعود الأبناء على حسب كل ما هو جميل وحسن ونافع لهم وللناس ويفعلونه ويدعون الناس إلى فعله كما يكرهون كل ما هو قبيح ومنفر وضار للفرد والمجتمع ثم يتجنبونه ويدعون الناس إلى تجنبه والابتعاد عنه .

وهذا من أهم الأمور فى تربية الأبناء وإعدادهم إعدادا سليما للحياة السعيدة .

وهكذا نجد أن التربية العاطفية تحقق السعادة للإنسان فى حياته ، ذلك أن الإنسان إذا تجنب كل ما هو قبيح وضار وغير جميل بدافع العاطفة الصحيح يكون قد أبعد نفسه عن المضار وما يؤذى نفسه وجسمه وشعوره . وإذا فعل إلى جانب ذلك كل ما هو نافع وجميل بدافع المحبة يكون بذلك قد جلب إلى حياته الأمور المفيذة النافعة وإلى نفسه السرور والبهجة .

وهل السعادة أكثر من الشعور بالسرور والراحة الجسمية والنفسية فى الحالات كلها ؟؟

ولا يمكن أن ينال هذا إلا إذا فعل بمحبة كل ما هو جميل ونافع كما فى اعتقاده وكما هو الواقع فى نفس الوقت وأن يتجنب من الأمور ما هو قبيح وضار كما فى اعتقاده وكما فى الواقع أيضاً .

التربية الاجتماعية

إن أهمية التربية الاجتماعية للأطفال فى البيت ترجع إلى أساسين هامين فى التربية الاجتماعية

الأساس الأول : هو أنه كلما كان الطفل صغيرا عند خضوعه لعملية التربية الاجتماعية كان أثر التربية أكثر تأثيرا وإفادة . لأنه يكون فى تلك الحالة أكثر قابلية للتطبيع الاجتماعى وأكثر مطاوعة له .

الأساس الثانى : إن أثر أول تفتح الطفل للحياة الاجتماعية له دور كبير فى تحديد وتنظيم الجانب السيكولوجى من شخصية الطفل الاجتماعية فى حاضره ومستقبله ، فإذا كان هذا الاتصال أو هذا التفتح الأول للحياة الاجتماعية سلبيا كان اتجاهه . للجماعة سلبيا وإذا كان إيجابيا كان اتجاهه إزاءها إيجابيا أيضا . أى إذا كان هذا الاتصال محققا للحاجات السيكولوجية والبيولوجية للطفل كان تجاوبه مع المجتمع واتجاهه نحوه سويا ومقبولا متعاطفا ، أما إذا كان غير محقق لهاتين الحاجتين كان اتجاهه نحوه شاذا منحرفا عدوانياً .

وأهم أهداف التربية الاجتماعية هو جعل الناس أسوياء اجتماعيا ، أسوياء فى المواقف الاجتماعية المختلفة أى أن يقف فيه كل فرد بحسب المعايير الاجتماعية العامة السائدة فى مجتمعه وهذا يظهر بوضوح فى احترامه للقيم الاجتماعية واحترامه لمشاعر الناس وإحساساتهم الأدبية والإنسانية ، ثم مراعاته مصلحة الجماعة بوجه عام ومصلحة الأفراد الذين تجمعهم حياة مشتركة بوجه خاص .

فالخروج على هذه المعايير الاجتماعية وعدم مراعاة هذه الأمور السابقة فى حياته يعتبر انحرافا عن السلوك الاجتماعى وشذوذاً فيه .

هذا جانب هام من السلوك الاجتماعى بالنسبة للمجتمع وبالنسبة للفرد أيضا لأن عدم استطاعة الفرد أن يقف فى المواقف الاجتماعية كما ينبغى أن يقف فيها كإنسان من الناس أو كفرد من المجتمع مثل عدم استطاعته مخاطبة الناس فى محفل اجتماعى أو عدم قدرته على إبداء آرائه وأفكاره للناس بالطريقة المرضية لنفسه ولغيره سواء كان ذلك لخجل منه أو لعدم إعداد أسرته له للوقوف فى هذه المواقف إن مثل هذه الحالات قد تؤدى إلى الفشل فى مناحى الحياة الاجتماعية .

فمثلا يوجد هناك من الناس من لا يستطيع أن يدخل بين الناس المجتمعين ويخاف من التجمعات لأنه لم يعود وهو صغير على مخاطبة الناس والدخول فى تجمعات بشرية بل انه يتجنب الناس الغرباء ومثل المدرس الذى لا يستطيع التكيف مع التلاميذ فى المدرسة . فهو فى هذه الحالات لا يرضى عن مواقفه ولكنه لا يستطيع تغييرها أيضا إلى حيث يرغب ويريد لأنه لا يعرف السبب فى ذلك ولأنه لا يعرف كذلك أساليب تغيير السلوك عن طريق تغيير التنظيم السيكولوجى لشخصيته .

وهكذا يكون شعوره عن نفسه غير راض فى الحياة الاجتماعية لأنه يشعر أولا أن الناس غير راضيين عن مواقفه ولأنه لا يستطيع قضاء مصالحه فى هذه الحالات ، المصالح التى يتوقف تحقيقها على الوقوف فى هذه المواقف كوقوف السوى اللائق بالفرد الاجتماعى فكم من كبار الناس فشلوا فى حياتهم الاجتماعية بعد أن رقوا إلى المناصب العالية فى المجتمع لأنهم لم يستطيعوا أن يقفوا فى تلك المواقف كما تتطلب منهم أن يقفوا فيها .

وأهم الشروط التى يجب مراعاتها فى عملية التربية الاجتماعية لتكوين إنسان سوى هى الشروط الآتية :

أولا : أن يشعر الطفل منذ تفتحه للحياة الاجتماعية فى البيت بالأمن والاطمئنان والاستقرار ولكى يشعر بهذا ينبغى تحقيق حاجاته الأولية وعدم تهديده

بالحرمان أو التشريد أو غير ذلك ثم استقرار معاملة الأسرة له ، فلا تتناقض معاملة الأفراد له بين يوم وليلة مثلا .

وإذا لم يشعر الطفل بالأمن والاستقرار فى حياته الاجتماعية وفى علاقته بغيره فى هذه المرحلة وفى هذه العملية فلابد من أن يكون قلقا فى علاقته بالناس والقلق عامل قاتل لنشاط الإنسان وحيويته فى الحياة وهو من عوامل فشل الإنسان فيها بالإضافة إلى هذا فإنه لا يترك الإنسان ليشعر بالسعادة فى حياته ، ليس هذا فحسب بل إنه لا يشعر بالراحة ولا يستريح إطلاقا لأحد ولا للحياة ، وقلقه هذا لا يقتصر على يقظته فقط بل فى نومه أيضا ومن هنا نجد بعض الأطفال لا ينامون نوما هادئا ، فنجدهم يبكون ويصرخون فى منامهم ويستيقظون فجأة وهم فى ذعر ورعب وخوف وتقلق الأمهات على هذا الوضع ويتزعجن منه ولكنهن لا يعرفن السبب ولا يعرف الأطباء السبب فى ذلك أيضا وإنما يعرفه علماء النفس ورجال التربية .

ثانيا : عدم القسوة فى معاملته فى طفولته . لأن هذه المعاملة القاسية تخلق فى نفسه العدوانية لا على أفراد أسرته فحسب بل على المجتمع كله . ولهذا يكون هذا الطفل فى كبره شاذاً فى سلوكه منحرفا فى أخلاقه عدوانيا على المجتمع يتعدى على هذا وذاك بسبب أو بغير سبب أو لأمور تافهة لا تكون عادة سببا للتعدى بل أنه يبحث عن وسائل يتذرع بها للتعدى على الناس وعلى المجتمع ويحاول أن يخرج باستمرار على القانون وعلى السلطة وعلى معايير المجتمع وعاداته .

ثالثا : عدم تدليله والإفراط الزائد عن الحد فى رعايته :

لأن الطفل المدلل فى حياته الأسرية يخرج على المجتمع وينتظر منه التدليل وتحقيق جميع متطلباته والصفح والعفو عن جميع زلاته ولا يستطيع مواجهة الصعاب والمشكلات فى الحياة لأنه تعود العفو عن جميع زلاته ، وتعود كذلك على أن يحل له جميع مشكلاته وعلى ألا يواجه أى صعوبة فى الحياة . وعندما لا يرى هذا ولا ذاك إطلاقا أو قد

يرى ولا يرى أحيانا فانه ولا شك لا يستطيع تحمل مثل تلك الأمور وبالتالى يفشل فى الحياة الاجتماعية وفى حياته العامة ، إذن فإن هذه التربية المدللة تؤدى إلى انحراف معين كما أن التربية القاسية تؤدى إلى انحراف آخر .

وإن كان أحد الانحرافين أقل ضررا على المجتمع من الآخر إلا أنهما سيان بالنسبة للفرد المنحرف لأنه لا يمكن أن ينجح المعتدى المنحرف فى حياته الاجتماعية كذلك لا يمكن أن ينجح المدلل المنحرف فى نفس الحياة ، وأخيرا لا يمكن كذلك أن ينجح الإنسان القلق فى هذه الحياة .

إذن فالإنسان الاجتماعى هو إنسان سوى فى المجتمع وهو لا يكون قلقا فى حياته الاجتماعية ولا يكون قاسيا فى معاملة الناس ومعتديا عليهم ولا يكون كذلك مدللا كالطفل لا يستطيع مواجهة صعوبات الحياة ومشكلاتها إلى جانب هذا وذاك يقف فى المواقف الاجتماعية كما ينبغى أن يقف فيها ويكون هادئا فى معاملته للناس ووازنا للأمور بموازين القسط والعدل ، ويعالج الأمور بصبر وأناة ولا يكون كذلك عاطفيا زائدا عن الحد ولا يكون منفعلا يخرجه انفعاله من رزانته ويزيل عنه عقله وحكمته .

ثم لا يكون لواما يؤاخذ الناس حتى على هفواتهم البسيطة ويحاسبهم عليها حسابا عسيرا ، بل يكون متسامحا فى أمور لا ينتج عن التسامح فيها الضرر على المجتمع ولا يكون سببا لتمادى المخطىء فى أخطائه ، ويكون لينا مع الناس الذين ينفعهم اللين ويكون حازما مع الناس الذين لا ينفعهم إلا الحزم والشدة ، يعرف الناس على سجيتهم ويضعهم فى منازلهم .

وهو فى ذلك كله يراعى المعايير الاجتماعية العامة ويراعى مصلحة الناس ويحترم مشاعرهم وحقوقهم .

لهذا فعلى الآباء والأمهات أن يضعوا أمام أعينهم هذه الصورة للسلوك الاجتماعى ويربوا أولادهم فى ضوئها ويجعلوهم يطبقونها ويتدربون عليها فى البيت حتى تكون كالطبيعة والسجية لشخصيتهم وينبغى أن يعلموا أنهم إن لم يربوا

أولادهم على ذلك النحو فلن ينتظروا من أحد تربيتهم من غيرهم بعد ذلك .

فالبيت أهم مدرسة لتطبيق المبادىء الاجتماعية وتطبيع الأفراد تطبيعا اجتماعيا .

وينبغي أن يعلموا أن الشر يأتي إلى المجتمع من البيت وكذلك الخير يأتي إلى المجتمع من البيت وعليهم أن يجعلوا بيوتهم منبع خير لا منبع شر.

التربية الخلقية

اتفق التربويون على أن التربية الأخلاقية تعتبر أصعب جانب فى التربية عموما ولعل صعوبة الأمر ترجع إلى أن التربية هنا تعتمد على تربية النفس وتربية النفس أصعب من تربية الجسم لأن العلم بشأن هذا الأخير تقدم واكتشف الكثير من قوانينه بخلاف الأولى فان معظم قوانين علم النفس لا تزال مجهولة وما اكتشف منها لا شيء بالنسبة لما لم يكتشف بعد .

كما اتفقوا على أن التربية الخلقية ألزم تربية للحياة الإنسانية ، فحياة الجماعة ومدى نجاحها وسعادتها واستقرارها مرتبطة بحياتها الأخلاقية ، والأخلاق من أهم الصفات التى تميز الإنسان من الحيوان والحياة الإنسانية من الحياة الحيوانية .

والإنسان الخير هو الإنسان المتخلق وبناء الشخصية الأخلاقية أهم من تكوين العالم . فى ميدان بناء الإنسان ذلك أن الإنسان الجاهل المتخلق خير من العالم اللاأخلاقى، لأن الثانى أضر بالناس وبالمجتمع من الأول والعالم الفاسد أكثر فتكا بالمجتمع من الجاهل الفاسد ولأن الجاهل مهما كان فتاكا فضرره محدود لا يتجاوز حدود أفراد معينين.أما العالم الفاسد فيستطيع أن يفسد المجتمع بأسره بل المجتمعات بأسرها حتى وإن لم يرد إفساد المجتمع فأنه بلا شك يفسد نفسه «يفسد بيته ولهذا يقول هنا أرسطو « إن التربية الطيبة هى أكبر خير يمكن أن يسدى إلى الأولاد » . ويقول أيضا « إن نقل المرء لورثته ثروة .. ليس شيئا بجانب اتحافهم بهذا الميراث الأخلاقى الذى يعلمهم التصرف بحكمة فى الثروة متى وضعوا اليد عليها وتحديدها متى فقدوها والصبر عنها بلا أسف حين لا يستطيعون تحصيلها » ومن ثم

(٩) مقدمة علم الأخلاق لأرسطو جـ ١٥٠

يعطى كل الأهمية فى التربية الأخلاقية قائلا « إن العناية الأخلاقية هى فى غاية الدقة وإن أكثر الناس حتى أولى الألباب لا يفهمونها حق فهمها ، ويظنون أنهم فعلوا كل ما يجب عليهم أن يفعلوه متى تركوا لأولادهم سعة مادية »(١٠)

وفى مجال التربية والتعليم إما أن نربى إنسانا متعلما متخلفا أولا نربى ولا نعلم لأننا إذا علمنا إنسانا ولم نعلمه أخلاقا ثم عيناه فى أحسن المراكز موظفا كأن يكون مديرا لبنك أو لخزانة الدولة أو قائدا للجيش فإنه يمكن أن يسرق مال الدولة أو يبيع الوطن عن خيانة بدراهم معدودة ، فإذا فعل هذا أو ذاك فماذا فعلنا نحن فى التربية والتعليم لم نفعل شيئا سوى أن ربينا متعلما يستطيع أن يكون لصا أو خائناً يبيع الوطن » ولهذا يقول الدكتور ألكسيس كارل« إن الإنحطاط الخلقى يؤدى إلى كوارث أفدح من تلك التى يؤدى إليها الإنحطاط العقلى »

وبالرغم من إدراك التربويين لهذه الحقيقة فان التربية الأخلاقية لم تأخذ مكانها اللائق فى مجال التربية والتعليم » ليس فى مجتمعنا فقط بل فى المجتمعات كلها وان اختلفت فيا بينها بدرجة الاهتمام فى ناحية معينة من الأخلاق . وليس المسئول عن هذا وزارات التربية والتعليم فى الدرجة الأولى فقط بل الآباء مسئولون أيضا عن التربية الاخلاقية بدرجة لا تقل عن مسئوليات وزارات التربية والتعليم أو بعبارة أعم أن مسئولية البيت عن تربية الأبناء لا تقل عن مسئولية المدرسة . وربما تزيد مسئولية المدرسة عن البيت فى شىء واحد وهو التسوية بين التلميذ المتخلق والتلميذ الفاسق الفاجر المشاغب ، إذ أنها تعطى الشهادة نفسها للتلميذين بنفس الدرجة إذا تساويا فى الدرجة العلمية ولو كان أحدهما متخلقا والآخر فاجرا ثم ينظر الناس إلى هذه المسألة بشىء من التهاون فتقديرهم ينصب غالبا على الدرجة » وهذا خطأ كبير تربويا ، إنه قد لا يكون مقصودا إلا أنه يؤثر فى التربية الأخلاقية تأثيرا كبيرا بطريق غير مباشر.(١١)

والخطأ الثانى للمدرسة فى هذا المجال هو التناقض إذ أنها تقرر أحيانا مادة الأخلاق ضمن المواد المقررة . ثم تسوى بين الجميع إهمالاً فى إعطاء الشهادة إذا كنت لا تعطى أى أهمية للأخلاق فلماذا تقررها وإذا كنت تعطى الأهمية فلماذا لا

(١٠) المرجع السابق ص ١٤٩
(١١) تأملات فى سلوك الإنسان ص ٧٩

تفرق بين التلاميذ فى إعطاء الشهادة كما تفرق بينهم فى التقديرات الأخرى، فى المواد المقررة الأخرى.

هذا الخطأ لا يمكن أن يغتفر للمدرسة لأنه خطأ أخلاقى وخطأ علمى معا، خطأ أخلاقى لأنه لا تعطى الأهمية للأخلاق التى هى الزم وأهم مادة للحياةالاجتماعية بصفة عامة وحياة المتعلمين بصفة خاصة، وخطأ علمى لأنها تناقض نفسها وهى فى أرق مركز علمى كمؤسسة علمية وتربوية وتعليمية معا.

ولا نقول إن الأخلاق أهم للحياة الاجتماعية فحسب بل نقول إنه لا يمكن أن توجد الحياة الاجتماعية بدون الأخلاق إذ لو سادت فى الحياة الاجتماعية الخيانة والرشوة والفاحشة والغش والكذب والظلم وعدم الإخلاص والتعاون وعدم المحبة والمودة والرحمة فكيف تستقيم حياة الجماعة والحالة هذه، وكيف يشعر الأفراد بالاطمئنان وكيف يستريح بعضهم إلى بعض فى المعاملة والمصاحبة.. لاشك أنها لا تستقيم بأى حال من الأحوال.

ولو شرحنا نقطتين هامتين فى هذا الصدد فلربما ظهرت أهمية الأخلاق والتربية الأخلاقية بشكل أوضح.

النقطة الأولى: مجال الأخلاق أو ميدانه وهذا الموضوع ربما يختلف باختلاف النظريات الأخلاقية ولا أستطيع بيان هذه النظريات المتعلقة به هنا، ولكننى بينت ذلك فى كتاب بعنوان الاتجاه الأخلاقى فى الإسلام، ولهذا أرى أنه من الأفضل أن أقتصر هنا على النظرية الأخلاقية الإسلامية فقط فمجال الأخلاق فى الإسلام هو هذا الكون كله هو علاقة الإنسان بالكائنات فى هذا الكون، وهذه العلاقة المرسومة من قبل الإسلام فى ضوء عقيدته. تدخل فى نطاق الأخلاق الإسلامية علاقة الإنسان بالله وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان ثم علاقته بالحيوانات أيضا، وقد عالج هذا الموضوع بعض العلماء تحت العنوان «الآداب العامة لأن الإسلام يأمر بالأدب مع الله ومع الناس ومع الحيوانات ومع الملائكة وربما كان أوضح دليل على هذه النظرة قول الرسول - ﷺ - «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»(١٢)

(١٢) أخرجه أحمد والحاكم والبيهقى من حديث أبى هريرة وذكره الغزالى فى الإحياء - كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق. جـ ٣

نحن نعرف أن أداة « إنما » فى البلاغة العربية تعد أداة حصر ، فالرسول – صلى الله عليه وسلم – يحصر هدف رسالته فى الأخلاق ثم كلمة لأتمم مهمة أيضا لأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – ذكر فى حديث آخر أنه جاء ليكمل الرسالات السماوية فقال « **مثلى ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى دارا فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون لولا موضع اللبنة فأنا موضع اللبنة فختمت الأنبياء** »(١٣)

وإذا كان هدف رسالته هدفا أخلاقيا وأنه جاء لإتمام الرسالات السابقة فإن هدف الرسالات السابقة هدف أخلاقى أيضا وأن الإسلام جاء ليكمل البناء الأخلاقى الذى بدا به آدم – عليه السلام – وأكمله محمد – صلوات الله وسلامه عليه .

وإذا كان هدف الأخلاق – كما قال معظم الأخلاقيين – هو سعادة الإنسان إذن فهدف الرسالات السماوية هو سعادة الإنسان ليست سعادة الإنسان فى الدنيا فقط بل فى الآخرة أيضا ومن هنا جاءت هذه الرسالات بنظم تشريعية تنظم الحياة على ضوء فلسفتها الخلقية وتضع منهجا للحياة الإنسانية السعيدة ، وقد شرحت بإيجاز منهج الإسلام للحياة السعيدة أو فلسفته فى الحياة السعيدة فى الفصل الأول من كتابى « منهاج الدعوة إلى الإسلام فى العصر الحديث » فمن شاء فليرجع اليه .

وإذا كان هدف أخلاق الإسلام أو الإسلام بوجه عام هو السعادة وهدف الصحة النفسية فى علم النفس هو السعادة أيضا فإنهما يتفقان فى الهدف . والحق أنى ما رأيت مبدأ من مبادىء الصحة النفسية سواء كانت هذه المبادىء متعلقة بتخليص الإنسان من الأمراض النفسية أو الوقاية منها أو كانت متعلقة بإدخال السعادة فى نفس الإنسان ، فما رأيت مبدأ من هذه المبادىء إلا وجدته فى الإسلام نفسه ، بل بالإضافة إلى هذا وجدت من مبادىء الإسلام فى ميدان الصحة النفسية مالم يصل إليها علماء علم النفس بعد .

(١٣) صحيح مسلم – باب ذكر كونه صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء جـ ١٥ ص ٥٢

وكم أتمنى من الله أن يتيح لى فرصة لإبراز هذه الجوانب فى الإسلام يوما ما

النقطة الثانية : أن التربية الأخلاقية تهدف إلى بناء شخصية خلقية أو بعبارة أخرى شخصية إنسان كاملة .

وإذا كان الأمر كذلك فإن أهميتها تظهر بوضوح فى تربية الأطفال وهم صغار لأن بناء الشخصية ينبغى أن يبدأ مع بداية بناء الشخصية المتكاملة وأن ينمو هذا البناء ويكتمل من اكتماله حتى تصبح الأخلاق طبيعة ثانية للطفل فى كبره .

ومن هنا يبدو بوضوح دور الآباء فى بناء هذه الشخصية ومسئولياتهم إزاءها ولا سيما فى مرحلة ما قبل المدرسة .

ولكن ما هى الأسس والمبادىء العامة للتربية الخلقية ، وفيما يلى نحاول إعطاء فكرة عامة عن هذه المبادىء ولا نقول إن ما نذكره هو كل شىء فى التربية الأخلاقية إذ أن أسلوب التربية الأخلاقية يختلف من مرحلة إلى أخرى ولهذا فأنها وحدها تحتاج إلى كتاب خاص وقد كتبت فى ذلك كتبا فمن شاء الاستزادة فليرجع إليها [١٤]

مبادىء التربية الأخلاقية :

هناك مبادىء فى التربية الأخلاقية لابد من تطبيقها فى عملية التربية الخلقية أهم هذه المبادىء هى المبادىء الآتية :

المبدأ الأول :خلق الثقة فى نفسية الطفل ويشمل الثقة بنفسه والثقة بغيره ولا سيما بالمربى ، والثقة بأن الإنسان صانع سلوكه ويستطيع تغييره وتبديله إذا شاء ويكون صاحب إرادة وعزيمة .

المبدأ الثانى :خلق المحبة والتعاطف بين الطفل وبين أفراد البيت من جهة وبين الناس من جهة أخرى .

المبدأ الثالث :إشعار الأطفال أن المبادىء الخلقية نابعة من داخل الإنسان وليست قوانين مفروضة عليهم من المجتمع لأنها مبادىء إنسانية يتميز بها

(١٤) التربية الأخلاقية الإسلامية . مكتبة الخانجى ، القاهرة .

الإنسان عن غيره من الحيوانات ، وإنما ضرورة اجتماعية لا تقوم للمجتمع قائمة بدونها .

المبدأ الرابع : أن التربية الخلقية لا تتم ولا تقوم لها قائمة بدون تربية قوة الإرادة فتكوين قوة الإرادة هى المبدأ الأساسى فى التربية الأخلاقية ولا يستطيع الإنسان أن يطبق المبادىء الأخلاقية فى كل المواقف وفى كل الظروف بدون أن يملك قوة الإرادة ، ومظاهر قوة الإرادة هى الشجاعة فى مواجهة الحياة وألوانها المختلفة حلوها ومرها ، والثبات على المبادىء التى يؤمن بها والاستمرار فى تطبيقها مهما تكلفه من العناء والمشقة ، أينما كان وحيثما وجد .

المبدأ الخامس : خلق إحساس خلقى عند الأطفال .

وهذا يتم عن طريق إشعار الطفل بإنسانيته وعدم زجر الطفل وعقابه وتهديده بكثرة ، وإذا كان لابد من زجر وعقاب فينبغى أن يكون ذلك بأخف ما يمكن وبالطرق الأدبية الرقيقة والإرشادات الموحية بعدم رضائه عن سلوكه . وأنه ينبغى أن ينبه عند عقابه إلى أن العقاب وسيلة للتنبيه وليس الهدف منه الانتقام وأنه بذلك لمصلحته ولخيره ؛ لأن كثرة العقاب والتهديد والزجر يخلق عند الطفل البلادة وفقدان الإحساس الأدبى ويؤدى إلى عدم نموه النمو السليم من الناحية الشعورية والإحساس الأدبى فيكون كما يقول الشاعر

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

المبدأ السادس : أن التربية الأخلاقية ينبغى أن تهدف إلى بناء الشخصية الخلقية من الداخل أى من داخل الفرد ذاته .

وهذا يتم عن طريق تشرب الطفل المبادىء الخلقية وهذا لا يمكن أن يتم عن طريق التلقين الصورى المتبع عادة فى بلادنا فالآباء والمدرسون عادة يلقنون الأطفال المبادىء الخلقية بطريقة افعل هذا وأترك هذا وهذا حسن وذاك قبيح ، وهذه الطريقة قد يقبلها الطفل أولا يقبلها وقد يقبلها ظاهرا ولا يقبلها باطنا .

أما التربية الخلقية الداخلية فإنها تتم عن طريق الخبرة التى يباشرها الأطفال ويصلون إلى النتيجة الأخلاقية بأنفسهم ثم شرحها شرحا عقليا مقنعا ، وإذا اتبع عند ذلك طريقة التلقين بالتقبيح والتحسين فإنه لا شك يؤثر فى نفسية الطفل تأثيرا أكثر وأعمق .

وبناء الشخصية من الداخل لا يتم بين يوم وليلة فإنه يحتاج إلى وقت طويل وهذا البناء أصعب من بناء العمارات وبناء المصانع لأن العمارات والمصانع من الممكن أن تبنى فى مدة بسيطة عند وجود المال .

أما هذا فلا يمكن أن يبنى بين يوم وليلة ولا يتم بالمال وإنما يتم بالمهندسين الفنيين مهندسى التربية البشرية الواقفين على أسرار الطبيعة البشرية وعلى طرق التربية السليمة ، وشتان بين مهندس مادى ومهندس نفسانى وروحانى وكما أن بناء الشخصية الخلقية صعب ويأخذ مدة طويلة كذلك هدمه صعب ويأخذ مدة طويلة .

المبدأ السابع : تطبيع الأطفال تطبيعا خلقيا .

أى جعل الأخلاق طبيعة ثانية وبذلك تصبح المبادىء الأخلاقية عادة يقوم بها الأطفال كما يؤدون العادات ولا يستطيعون مخالفتها لأن النفس ليس من السهل أن تخالف عاداتها المتأصلة وكما أن تكوين العادات يأخذ مدة طويلة كذلك تركها يأخذ مدة طويلة وإذا دخل التفكير الأخلاقى فى التنظيم السيكولوجى والشخصى فى الفرد ومارس هذا التنظيم فى السلوك وفى مواقف الحياة فعند ذلك يصبح هذا الشخص شخصية خلقية ويوصف بأنه إنسان ذو خلق .

المبدأ الثامن : مراعاة الفروق بين الأفراد واختلافهم فى الاستعدادات الأخلاقية . ولهذا فعلى المربى أن يقف من طفله موقف الطبيب يتعرف على طبيعته فيعمل بمقتضى علمه ؛ لأن بعض الطبائع لرقة شعورها وإحساساتها الرقيقة تكفيها النظرة واللفتة الصغيرة لزجرها وتأديبها وبعضها الآخر لا ينزجر إلا بالشتيمة وبعضها الثالث لا ينزجر إلا بالضرب لأن هؤلاء قد فقدوا رقابة الإحساس الإنسانى فى نفوسهم ولم

يبق منها إلا الإحساس الحيوانى الذى لا يتنبه إلا بالألم الحسى . ولهذا أجاز الإسلام بالضرب لأصحاب هذه الطبائع إذا ما امتنعوا عن أداء واجبهم إذا بلغوا من العمر عشر سنوات أو أكثر .

فقال الرسول – صلى الله عليه وسلم – « **مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها أبناء عشر وفرقوا بينهم فى المضاجع**[١٥] أى اضربوهم فى هذه المرحلة إذا امتنعوا عن أداء الصلاة ولم تفدهم وسيلة أخرى .

وهذا الضرب مشروط بألا يكون مبرحا وألا يكون فى الوجه كما ورد فى النصوص الأخرى فقال الرسول مثلا « **ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعى بدعوى الجاهلية** »[١٦]

وعلى أى حال فالضرب فى التربية الإسلامية مع الشروط السابقة وسيلة للتنبيه وليس وسيلة للتربية لأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – **كان يأمر دائما بالرفق والرحمة بالصغار وقد ثبتت التربية بوسائل المكافأة والتشجيع أما أثر التربية بالعقاب فلم يصل العلماء إلى نتيجة قطعية فى ذلك ، وإن قال أغلبهم أن العقاب كوسيلة تربوية غير ناجح بوجه عام وقد عالجنا ذلك بشىء من التفصيل فى كتاب آخر إرجع إليه إن شئت**[١٧]

وسائل التربية الأخلاقية :

أهم وسائل التربية الأخلاقية هى الوسائل الآتية :

الوسيلة الأولى : القدوة الحسنة :

هذه الوسيلة يمكن استعمالها فى جميع المراحل وينبغى أن يهتم بها فى المرحلة الأولى للطفل لأنه فى بداية حياته لا يستطيع تقييم المبادىء إلا على أساس أنه يفعلها الكبار ، فما يفعله الكبار فهو حسن وما يتركونه فهو قبيح . فالتحسين والتقبيح فى هذه المرحلة لا يبنيان على التقليد إذن فالأطفال يتعلمون السلوك من الكبار فى هذه المرحلة عن طريق المحاكاة والتقليد .

---

(١٥) الجامع الصغير .

(١٦) المرجع السابق .

(١٧) التربية الأخلاقية الإسلامية ص ٦٠١ وما بعدها

وقوة المحاكاة عند الأطفال قوة عجيبة يتفوقون بها على الكبار وأهم مظاهر المحاكاة فى هذه المرحلة السلوك واللغة أى إخراج أصوات اللغة كما هى ولهذا يقال ، إذا تعلم الإنسان لغة من اللغات فى صغره ، أنها لغة الأم أى تعلمها فى صباه من الأم عن طريق المحاكاة .

أما تعلم اللغة فى الكبر فقد يكون أسرع وأيسر فهما لقواعدها وفلسفتها إلا أنها من حيث إتقان أصواتها لا يمكن أن تكون كلغة الأم .

وكذلك محاكاة الحركات فلا يستطيع أحسن ممثل محاكاة سلوك الأشخاص محاكاة الأطفال الصغار ، ثم إنهم فى هذه المرحلة يسجلون كل ما يرون من سلوك الوالدين ويلاحظون كل حركاتهم ويشاهدون كل أحداث تحدث حولهم ، وقد يظن الكبار أنهم لا يدركون معانيها ومغازيها حقا قد لا يدركون هذا ولكنهم يسجلونه . وقد يحمل عندهم الكثير من المعانى وقد لا يحمل معنى قط . إلا أنهم سيفسرونه فيما بعد ويتفاعلون فى ضوء هذه التسجيلات ما تحمله من المعانى فى أذهانهم وفى شعورهم أحيانا ، ويعتبر هذا خبرات ماضية تؤثر فى تفاعلهم وبعض سلوكهم فى المستقبل وربما تتدخل هذه الخبرات فى تفسير الأحداث الحاضرة .

ومن هنا نرى أحيانا بعض الظواهر السلوكية الشاذة تصدر من الكبار بطريقة آلية أو إرادية وقد لا يرضون عنها ولكنهم لا يستطيعون التغلب عليها لأن أسبابها كامنة فى لا شعورهم نتيجة أحداث وخبرات سابقة ولا يمكن التخلص من مثل هذه الحالات إلا عن طريق معرفة أسبابها التى أدت إليها ولا يمكن كشفها إلا عن طريق التحليل النفسى ودراسة تاريخ الشخصية .

ولهذا فإن البيئة تؤثر تأثيرا كبيرا فى التكوين السيكولوجى للأطفال وشخصياتهم فإن كانت البيئة خيرة يصبح الطفل خيرا وإن كانت فاسدة ، يصبح فاسداً فالبيت الخير ينجب أطفالا خيرين والعكس صحيح أيضا . ولهذا قال تعالى﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾(١٨)

---

(١٨) سورة الأعراف ٥٨

ما أعظم هذا التعبير التربوى . ولهذا ينبغى أن نخلق بيئة صالحة خيرة أولا وقبل كل شىء .

الوسيلة الثانية : تقديم الحقائق الموضوعية عن المبادىء الأخلاقية .

وهذه الوسيلة تعتمد على الإقناع النظرى للأطفال واستخدام النتائج العلمية فى مضار سوء الأخلاق كيف أن الزنا ينقل الأمراض وكيف أن المسكرات تضر النسل والعقل وتسبب الأمراض وكيف أن الغش والكذب يفكك أوصال المجتمع ويخل بالنظام الإنسانى ، وكيف أن عدم الإخلاص فى العمل وعدم إتقان الأعمال وعدم العمل من أجل الإنسانية يؤخر المجتمع وكيف يتضرر الأفراد والمجتمع من هذا التأخر وما إلى ذلك .

فالاقتناع بالسلوك والمبادىء يدفع إلى تطبيقها باستمرار غالباً إلا أن هذا الإقناع لا يتم فى المرحلة المبكرة من حياة الأطفال ولهذا كان دور هذه الطريقة بالنسبة للأطفال الصغار يأتى فى المرتبة الثانية ، أما بالنسبة للكبار فيأتى فى المرتبة الأولى لأن الكبار لا يسلكون سلوكا معينا بناء على المحاكاة والتقليد غالبا أنما يسلكون هذا السلوك ويطبقون المبادىء الخلقية بناء على الاقتناع النظرى والعقلى .

الوسيلة الثالثة : الممارسة والتدريب العملى .

يجب إتاحة الفرص والمواقف الأخلاقية التى يفضل فيها الأطفال تطبيق مبادىء أخلاقية معينة على غيرها ويكافأون على ذلك ويكون ذلك أحيانا بالتشجيع والتأييد وأحيانا بالوسائل الأخرى المناسبة لكل طفل .

فالممارسة تسهل عمليات الإجراء والتطبيق ويسهل السلوك الأخلاقى ويزول التكلف والتصنع عند التطبيق لأنه كلما مارس الإنسان عملا من الأعمال سهل عليه ، ثم إن الممارسة تكشف للأطفال نتائج العمليات الأخلاقية وهذا مهم جدا فى عملية التطبيع الأخلاقى . هذا إلى أن هناك وسائل أخرى للتربية الأخلاقية مثل الوسائل الوجدانية والعاطفية والعقلية والعلمية يطول بنا ذكرها هنا وقد عالجناها فى كتاب مستقل[١٩]

---

(١٩) انظر التربية الأخلاقية الإسلامية ص ٥٠٠ وما بعدها .

مراتب التربية الأخلاقية :

هناك مراتب للتربية الأخلاقية وهى المراتب الآتية :

فالمرتبة الأولى : تحديد الصورة الأخلاقية فى أذهان الأطفال .

المرتبة الثانية : هى خلق الوعى بالمبادىء والصورة الأخلاقية على أساس المعايير العقلية للسلوك الأخلاقى .

المرتبة الثالثة : خلق الشعور العاطفى والانسجام بين المبادىء الأخلاقية وبين الجانب النظرى من جهة وبينها وبين التطبيق العملى من جهة أخرى .

هدف التربية الخلقية :

فهدف التربية الأخلاقية تكوين شخصية إنسانية خيرة مخلصة فى عملها تعمل لخير الفرد ولخير الناس وتتعاطف معهم من جانبها ويوثق بها ويعتمد عليها فى السراء والضراء لا تطمع فى أعراض الناس وأموالهم وتحترم مشاعر الناس وحقوقهم كما لا تؤذى أحداً لا تنوى السوء لأحد ، كذلك يكون صاحبها قوى الإرادة ثابت الجأش صبورا نشطا فعالا متفائلا مرحا شجاعا فى مواجهة ظروف الحياة لا تأخذه لومة لائم فى اتباع الحق أينما كان ويبحث عنه حيث يكون لا يخاف إلا من الله ويكون مخلصا فى جميع أعماله ولا ينتظر أجرا مقابل مساعداته وخدماته للناس لأنه يقصد من ورائها وجه الله لا وجه الناس وجزاء الآخرة لاجزاء الدنيا . ولننظر إلى مثل هذه الشخصية كم نحتاج إليها فى مجتمعنا وكيف يكون وضع مجتمعنا لو كانت شخصيات الأفراد الذين يتكون منهم كهذه الشخصية إن شخصية المجتمع هى مجموع شخصيات أفراده فيكون المجتمع كما يكون أفراده .

التربية الروحية

الروح فى نظر الإسلام حقيقة كائنة فى الإنسان أودعها الله فيه لمعرفته وللاتصال به أولا ولتدفع الإنسان إلى تحمل مسئولياته الإنسانية فى الحياة ثانيا ، وهى وان كانت غامضة علينا ، من حيث كنهها وجوهرها ، فإنها ظاهرة من حيث آثارها فى السلوك وفاعليتها فى الأبدان ، ولما كانت متأصلة فى الإنسان فطرية فيه ، فلابد من أن يكون لها مطالب تتغذى بها وتتقوى بتغذيتها « كما أنها تضعف وتذبل بالحرمان منها .

والتربية الروحية تقوم أولا على أساس الإيمان بالله ورسالته إلى البشر والإيمان بالحياة بعد الموت ومحاسبة الإنسان على كل أعماله فى هذه الحياة ومجازاته عليها فى الآخرة .

وتقوم ثانيا على أداء العبادات المفروضة من صلاة وصوم وحج وزكاة وذكر الله ، على أنه هو الخالق والرازق والمطلع على الأعمال لا يغيب عنه مثقال ذرة فى السماوات والأرض . وإن هذه الحياة الدنيا حياة مؤقتة ستتحول فى النهاية إن أحسن الإنسان عمله وتصرفاته إلى حياة أبدية ملؤها السعادةوالهناء .

وتقوم ثالثا على إشعار الأطفال بأن الحياة الروحية لإسعاد الإنسان فى حياة الدنيا والآخرة . لأن السعادة فى القلب إذ هى فى جوهرها الشعور بالرضى أكثر مما هى فى الظاهر ، وقد جمع الإسلام فى تربيته العمل على تحقيق الأمرين معا : السعادة الظاهرة المادية الحسية والسعادة الروحية النفسية الباطنية .

هذا الإشعار والإيحاء فى نفسية الطفل وذاتيته يجعله يشعر بالاطمئنان والراحة والسعادة والثقة والمحبة والإشراق فى أعماق نفسه . وحب الأعمال الخيرة والتضحية من أجل الخير والاجتناب عن إيذاء الناس يخرجه من الأنانية إلى الإنسانية . ومنهج الإسلام فى التربية الروحية يبدأ أولا بتلقين العقيدة السليمة .

لأن العقيدة هى التى تركز عليها مبادىء الإسلام وتنبنى عليها قواعده وأحكامه ولهذا يجب أن ترسخ العقيدة أولا فى القلوب وتغرس فى الأفئدة وتثبت فى الجنان وتندمج بدم المسلم ولحمه وتجرى فى عروقه مجرى الدم .

ثم يبدأ بتعليم أمور العبادات ثم آداب المعاشرة مع الناس وأسلوب معاملتهم وهذا واضح فى طريقة تعليم لقمان لإبنه ، أنه بدأ أولا بغرس عقيدة التوحيد فى نفس ابنه وذلك بنهيه عن الشرك بالله . قال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[٢٠] . ويتبع ذلك بذكر أوصاف يصور بها له عظمة الله وعلمه الرقيق وقوته الهائلة تصويرا يرتعش له الوجدان البشرى فقال : ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾[٢١]

وبعد انتهائه من العقيدة بدأ يعلمه العبادات وفعل الخير والأمر به والنهى عن المنكر واتباع الآداب الاجتماعية والصبر على ما يصيبه فى سبيل ذلك من نصب ووصب وجهد وتعب ، فقال : ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾[٢٢] .

وهكذا بدأ لقمان الحكيم يعلم ابنه بادئا من توحيد الله وما يزال ينتقل من قسم إلى قسم آخر ، ومن مسألة إلى مسألة أخرى ، من المهم إلى ما يليه حتى علمه كيف يقابل الناس ويمشى فى الطريق وبأى صوت يخاطب الآخرين .

(٢٠) سورة لقمان ١٣

(٢١) سورة لقمان ١٦

(٢٢) سورة لقمان ١٧ — ١٩

ونجد هنا ميزة هامة فى التربية الإسلامية ، وهى أنها تربط بين التربية الروحية وبين التربية الأخلاقية والاجتماعية أو بين العقيدة وبين سلوك الإنسان بوجه عام ، وهذه النقطة ذات أهمية كبرى فى التربية .

ذلك أنه يخلق السلطة الداخلية التى تجبر الإنسان على الالتزام بالخير واجتناب الشر .

التربية العقلية

إن التربية العقلية من الجوانب الهامة فى التربية لأن التقدم العلمى والحضارى متوقف عليها .

والتربية العقلية فى عمومها هى تنمية القدرات العقلية المختلفة بحسب ما تسمح به الاستعدادات الفطرية والوراثية الموجودة فى كل فرد . ومعلوم أن هناك فروقاً فردية بين الأفراد فى هذه الاستعدادات ، والمربون وإن اختلفوا فى مدى إمكان تنمية تلك الاستعدادات فإنهم يعترفون بإمكان تنميتها فيرى بعضهم مثلا أنه إذا كانت نسبة الذكاء الوراثى أو الفطرى لدى فرد ٥٠٪ فيمكن تنميته إلى ٧٠٪ وإذا كانت نسبة ذكائه الفطرى ٧٠٪ فيمكن تنميته إلى ١٠٠ وهذه التنمية العقلية مهمة جداً فى حياة الأفراد والجماعات ، ذلك أن عقل الإنسان هو رأس ماله فى الحياة ولا سيما بالنسبة لمن يحسن استخدامه فتزويده أو تنميته بهذا المقدار معناه الإضافة إلى رأس ماله ٢٠٪ أو ٣٠٪ فى المائة . وأى عاقل يمكن أن يستهين بهذا المقدار؟ هذا إذا نظرنا إلى قيمة العقل من زاوية المنفعة المادية وإذا نظرنا إلى قيمته من حيث إنه وسيلة لإسعاد الإنسان فى الحياة فمعنى ذلك أننا بهذه التنمية نزيد من سعادة الإنسان بذلك المقدار . وهذا مهم لحياة الإنسان ولا سيما إذا اعتبرنا أن هدف الإنسان من الحياة هو السعادة فى الدنيا والآخرة ولهذا نرى أهل الناريقولون يوم القيامة ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٢٣)

---

(٢٣) سورة الملك ١٠

والتربية العقلية تتم عن طريق تثقيفه بالمعلومات وتنميته بطرق التربية العلمية وهذا وذاك لا يمكن تحقيقه إلا باتباع الطرق الآتية فى التربية والتعليم .

أولا : أن يخضع تقديم المعلومات لطبيعة النمو فنحن لا نستطيع أن نقدم أية معلومة فى أية مرحلة وبأية طريقة إذن توجد هنا عمليتان لابد من ملاحظتهما وهما عملية مراعاة مستوى المعلومات بالنسبة لمستوى النمو وعملية مراعاة مستوى الطريقة المناسبة لمستوى التلميذ فى العمر العقلى ، لأن المعلومات أو طريقة تقديمها إذا كانت فوق مستواه تؤدى إلى عدم فهمه لها من جهة وإعاقة نموه من جهة أخرى وإلى عدم ثقته بنفسه من جهة ثالثة . فمثلا نحن نعرف أن الطفل فى المرحلة الأولى من حياته لا يستطيع إدراك المعانى المجردة ويبدأ فى إدراكها بعد مرحلة التنمية أو ما قبل البلوغ .

إذن فلا يصح أن نقدم إليهم المعلومات المجردة فى المرحلة وإلا سيؤدى الأمر إلى الأضرارالتى ذكرناها ولهذا قال الرسول ﷺ « **ما أنت بمحدث حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة** »(٢٤)

وقال أيضا « أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم »(٢٥)

ثانيا : ألاّ نتركه بعد تقديم المعلومات إلا بعد أن نتيقن أنه قد أحاطها بالإدراك وأصبحت واضحة فى ذهنه . لأن عدم إحاطته بالمعلومات ووضوحها فى ذهنه يجعل المعلومات عنده مشوهة لا يستطيع تمييز بعضها عن بعض وبذلك لا يستطيع استخدامها فى مواقعها ومواضعها عند اللزوم .

ثالثا : أن نقدم إليه المعلومات بطريقة نقدية أى أن نبين جوانب النقص والكمال فيها وأن نشجعه على إبراز هذا الجانب وذاك وأن نشجعه على إكمال جوانب النقص.هذه النقطة فى غاية الأهمية فى عملية التعليم وهى الوسيلة الهامة أيضا فى عملية تنمية العلم وتقدمه ، ذلك أن عملية

---

(٢٤) صحيح مسلم بشرح النووى ١/ ٧٦

(٢٥) صحيح مسلم تحقيق عبد الباق ١/ ١١

الإدراك عند الإنسان تتجه نحو التكامل وإكمال ما نقص فى ناحية من نواحى المدركات فان عقل الإنسان يعمل باستمرار لإكمال شىء إذا قدم إليه ناقصاً . فلا يستريح إلا بعد إكماله . فلو أننا قدمنا مثلا فى المرحلة المتأخرة النظريات العلمية وقوانينها وبينا جوانب النقص فيها فإن عقول المتعلمين تعمل باستمرار لإكمالها . وبذلك يتقدم العلم ونتقدم نحن فى العلم . ويكون الأمر خلاف ذلك إذا قدمناها على أنها كاملة دون بيان نقصها وإثارة الأذهان لإكمالها .

رابعا : أن تكون المعلومات التى نقدمها موثقة وصحيحة : ليكون بناء الثقافة فى ذهنه سليما فى أساسه . فمن هنا يخطىء بعض الآباء إذ يقدمون لأبنائهم معلومات غير صحيحة ويعرفون أنها غير صحيحة وذلك إما لتخويفهم أو لصرفهم عن إجابة أسئلتهم واستفهاماتهم عن بعض الأمور التى تثير أذهانهم وعقولهم عندما يتفتحون إلى العالم المحيط بهم . كتخويفهم بالقول الذى لا وجود له وبضرر الأشياء مع أنها غير مضرة . وما أشبه ذلك إذ أن هذه الأمور يؤثر فى حياتهم وتخيلاتهم واتجاهاتهم السليمة إزاء شىء ينبغى أن تكون اتجاهاتهم سليمة وصحيحة فى الوقت نفسه . هنا تأتى اللباقة والمهارة فى التربية . فينبغى أن يعرف الآباء أيضا كيف يجيبون على أسئلة أبنائهم بطريقة مقنعة ومناسبة لمستواهم وأن تكون إجابة صحيحة لا فيها تلفيق ولا فيها تشويه للحقائق . لأن تشويه الحقائق فى هذه المرحلة معناه تشويه لعقولهم . وإلى جانب اللباقة والمهارة فى طريقة الإجابة ينبغى أن يكونوا ماهرين فى تعليمهم طريقة الأسئلة أو طريقة تحويل أسئلتهم وتوجيهها إلى حيث ينبغى أن تتجه إليه أو إلى الموضوع المناسب الذى ينبغى أن يسألوا عنه . وذلك إذا كانت أسئلتهم تتعلق بأمور لا يستطيعون فهمها أو لا ينتفعون بها فى تلك المرحلة الثقافية » وهذا أسلوب قرآنى أيضا حيث إن الأعراب لما سألوا عن سبب الأهلة « ما كانوا فى مستوى علمى يمكن أن يفهموا أسباب ذلك فوجههم إلى منافعها فقال تعالى مثلا :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾[٢٦]

خامسا : بيان وتقديم طرق التفكير للوصول إلى الحقائق .

يجب التمييز هنا بين التفكير العلمى والتفكير الخرافى :

أما التفكير العلمى فله صور تختلف باختلاف الموضوعات العلمية . فنحن نعلم أن هناك ثلاثة مجالات للعلم . الأول الطبيعة المحسوسة وهو مجال علم الطبيعة . والثانى المعقولات المجردة وهو مجال المنطق ، والثالث الروحنيات وهو مجال الوحى ، والمعيار فى المجال الأول : هو التجربة وفى الثانى قوانين التفكير وأشكالها . وفى الثالث الوحى . ولكن مع ذلك لا ينبغى أن نفكر أن هناك انفصالا حاسماً من جميع النواحى بين تلك المجالات فمع ذلك هناك علاقة وارتباط أيضاً .

وتوجد هنا صورتان للتفكير العلمى المتبع حاليا فى مجالات التفكير العلمى .

الأولى : التفكير الاستقرائى وهو استخلاص حكم كلى من الجزئيات أى انتقال من جزئى إلى كلى وهو التفكير السائد فى مجال علم الطبيعة

والصورة الثانية للتفكير العلمى هو التفكير الاستنباطى وهو استخلاص الجزئيات من الكليات أى الانتقال من حكم كلى إلى حكم جزئى وهذا التفكير هو التفكير المنطقى أيضاً ، ولهذا فإن التجارب العلمية قامت على أسس منطقية أيضاً . لكن التجربة أصبحت معياراً لصدق الأفكار فى مجال الطبيعة .

ولهذا لا يعنى هذا الاختصاص عدم التعاون بين التفكيرين فى المجالين معا فى بعض الأحيان .

كما يستخدم التفكيران فى مجال الدين إذ أننا نستخدم التفكير الاستنباطى لإيجاد أحكام جزئية على المشكلات من المبادىء الدينية العامة . كما نستخلص رأياً دينيا عاماً من أحكام دينية جزئية .

ويوجد هناك تفكير آخر غير علمى ونسميه التفكير الخرافى وهو الذى لا يوجد له سند من العقل والمنطق أو الدين أو التجربة العلمية المحسوسة مثل فكرة البخت والغول والتنجيم . فلا الدين يؤيده ولا العقل ولا العلم التجريبى ، ولهذا

(٢٦) سورة البقرة ١٨٩

وقال الرسول (ص) «لا ضيرة ولا هامة ولا صفر ولا نوء ولا غول ونهى عن العرافة (٢٧)

هذه النقطة مهمة جداً فى عملية التربية العقلية ، ذلك أننا عندما نلقن الأولاد هذه الأفكار الخرافية يبنون كثيرا من تصرفاتهم فى الحياة عليها ، بل يزيد بعض الناس وهم كبار فى الاهتمام بالخرافات حتى انهم يبنون حياتهم عليها وبالتالى تكون حياتهم خرافية لأنه ما بنى على الخرافة يكون خرافيا . لقد حدث مرة أن امرأة كانت تتصرف فى حياتها بناء على ما يشير عليها العرافة وما كانت تقدم على عمل مهم قبل أن تستشيره ومن ثم كانت تفعل حسب مشورته حتى أصبحت حياتها كلها خرافية لا تطاق وأدى ذلك إلى نزاع وخصومة بينها وبين زوجها حتى أدى الأمر إلى فراق وطلاق .

وقد جاءنى واحد يوما بعرض حال ودمغة ، وطالب منى أن أكتب له طلبا إلى ضريح الإمام الحسين والسيدة زينب لتنفيذ بعض طلباته فى الحياة ويستشيرنى فى الوقت المناسب لتقديم هذا الطلب إلى ضريحها والوقت المطلوب لانتظار التنفيذ . وكان لى زميل لا يحضر الامتحان إلا بعد زيارة ضريح الإمام الحسين وكان يرتكب فى سبيل ذلك خطورة التأخر عن موعد الامتحان ؛ لأنه كان يخاف من السقوط والفشل إذا لم يزره قبل الدخول فى الامتحان كل يوم ، وكنت أعلم أنه يهمل بعض الفرائض مثل فريضة الصلاة مثلا وهكذا كان يخاف من الإمام الحسين الميت ولا يخاف من ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ ﴾ (٢٨)

لا أريد هنا التشنيع بزيارة القبور إذ إنها مشروعة للاتعاظ والتذكر ولكن اتخاذها كآلهة من دون الله تضر وتنفع بهذه الصورة فإنه بلا شك تفكير خرافى لا سند له

(٢٧) صحيح مسلم كتاب السلام ٤/ ١٧٤٢ وما بعدها . تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى . ومعنى الهامة الاعتقاد بأن روح الميت تتحول إلى الطير ، ومعنى النوء الاعتقاد بأن لكل انسان نجم فى السماء إذا سقط مات ، ومعنى الصفر الاعتقاد بأن فى بطن الإنسان دابة تهيج عند الجوع

(٢٨) سورة البقرة آية ٢٥٥

من الدين ولا العقل ولا العلم وهكذا تظهر خطورة التربية العقلية فى الصغر وكيف تؤثر إذا كانت خاطئة تأثيرا سيئاً فى حياة الأبناء فى المستقبل ، ثم لا يغيرها التثقيف والتعليم فى الكبر.

سادسا :تدريب الأبناء على طرق استخدام المعلومات وحل المشكلات فى الوقائع العملية :

هذه النقطة ذات أهمية كبرى فى عملية التربية العقلية ذلك أن التعليم المجرد دون تعليم طريقة الاستفادة منه أمر لا يساوى شيئا . وإن المجهود الذى نبذله فى عملية التعليم والمجهود الذى يبذله الأبناء من أجل التعلم إذا لم يظهر أثره فى حياتهم يعتبر كلا المجهودين مجهودا ضائعا . إن أثر التعلم ينبغى أن يظهر فى جميع جوانب شخصية المتعلم فى طريقة تفكيره وطريقة معالجته للأمور وطريقة سلوكه وتصرفه مع الناس ونظرته إلى العالم وإلى الكون وإلى الحياة وفى جميع مواقفه فى الحياة . ولابد من أن يتميز المتعلم فى هذه الجوانب من الحياة من غير المتعلم ، وإلا لا يعتبر متعلما ومثقفا . فالتعلم هو التغير فى الأداء نتيجة الخبرات ويجب أن يظهر أثر هذا التغير فى المظاهر السلوكية . فاذا حدث تغير فى الداخل لابد من أن يظهر أثره فى الظاهر وإذا لم يظهر فهذا يدل على أن التعلم لم يحدث . فالتعلم ليس هو اختزان المعلومات والأفكار والقيل والقال فى الأذهان . هذا الاختزان بهذه الصورة لا يمكن أن يحدث أى تغيير أو تنمية فى العقل . فعقلية هؤلاء الذين يجمعون المعلومات فقط لا تفترق عن عقلية العامى الذى جمع الأقوال والأخبار ، وما ذلك إلا لأنهم يجمعون ولا يستخدمون . فمثلهم كمثل الحمار يحمل أسفارا .

فالعقلية العلمية كمصباح يشع منه النور الذى يضىء ما حوله وينير طريق صاحبه فتسير تصرفاته فى ضوء نور علمه وعلى هدى القوانين العلمية . أو فى ضوء وحى ربه .

وأهم وسيلة لتطبيق المعلومات فى الواقع وضعها فى صورة المشكلات فالإنسان عادة عندما يواجه مشكلة من المشكلات يحاول استخدام معلوماته وخبراته واستعداداته وإمكانياته كلها لحل هذه المشكلة .

ويجب ملاحظة ثلاث نقط عند وضع المعلومات فى صورة المشكلات :

الأولى : ألا تكون المشكلة فوق مستوى الأولاد فيعجزوا عن حلها ويشعروا بالعجز .

الثانية : ألا تكون أقل من مستواهم فيستهينوا بها .

الثالثة : ألا تكون كثيرة ومتوالية فيشعروا بأن الحياة كلها عبارة عن مشكلات لا نهاية لها .

وينتج عن ذلك الشعور بالتشاؤم من الحياة والشعور بالإرهاق من تكاليفها ومسئولياتها بل ينبغى أن يشعروا عند مواجهتهم هذه المشكلات والتى نخلقها أمامهم لتربية عقولهم بأنهم يستطيعون حلها ويستلذون من حلها وهذا يزيد من ثقتهم وقدراتهم العقلية ويدفعهم إلى استخدامها وهذا بدوره يكون له أثر كبير فى مواجهتهم لمشكلات الحياة بوجه عام فى المستقبل ؛ إذ أنهم سوف لا يصيقون من مشكلات الحياة من جهة ثم إنهم يواجهونها بشجاعة وبسالة من جهة أخرى .

وأخيرا يجب أن يكون طرق حل المشكلات معلومة من قبل . فهناك ثلاث طرق هامة : الطريق الأول طريقة المحاولة والخطأ . فالطفل فى هذه الحالة يهتدى إلى حل المشكلة عن طريق محاولات مختلفة واتخاذ وسائل مختلفة لحل هذه المشكلة أو تلك . وينبغى الإشارة إلى وسيلة الحل إذا يئس من العثور عليها ، وإشعاره فى هذه الحالة أنه هو الذى عثر عليها وإنه هو الذى حلها ، حتى يشعر باللذة والسرور ويزيد نشاطه وثقته بنفسه .

الطريق الثانى طريقة الاستبصار أى الاهتداء إلى الحل عن طريق إدراك العلاقة وهذا الاهتداء قد يكون فجأة وقد يكون بعد التريث والانتظار والنظر . وهذه الطريقة يتبعها غالبا الأذكياء . لأن من مظاهر الذكاء سرعة الإدراك ، إدراك العلاقات القائمة بين الأسباب والمسببات أو بين الظواهر ونتائجها . ولا يمنع هذا من اتخاذ الذكى أحيانا طريقة المحاولة والخطأ واتخاذ الغبى طريقة الاستبصار . ثم إن هناك مشكلات يخضع حلها غالبا لطريقة المحاولة والخطأ

ومشكلات أخرى يخضع حلها لطريقة الاستبصار كما أن طريقة عرض المشكلة قد تساعد على اتباع هذه الطريقة أو تلك .

الطريق الثالث : الحل التدريجي أى أنه لا يهتدى إلى الحل بسرعة ولا بعد محاولات عديدة وإنما يحلها بالتدريج يحلها جزءا بجزء . وهكذا حتى ينتهى منها وهذا الحل قد يخضع لنوع المشكلة كما قد يخضع لنوع الذكاء .

وكما أن المشكلات ونوع الذكاء يلعبان فى اتخاذ هذا الطريق أو ذاك فإن سن الطفل تلعب دورا أيضا فى هذا الشأن . فالأطفال عادة يتبعون فى المرحلة الأولى من حياتهم طريق المحاولة والخطأ لحل مشكلاتهم لأنه أنسب لمستوياتهم الدنيا من الذكاء وأخيرا يجب توجيه الطفل إلى أجزاء المشكلة والعلاقات بينها وموضوع المشكلة وأسبابها يؤثر تأثيراً كبيراً فى سرعة الحل .

سابعا : إشارة انتباه الأبناء إلى الطبيعة وظواهرها المثيرة :

إن الكون كله وما فيه طبيعة حية إذا اندهشنا له ونظرنا إليه من زاوية كأننا ولدنا فيه من جديد ولم نعرف منه شيئا من قبل فى هذه الحالة نجد أن لكل شيء صورة حية تتحرك وتثير انتباهنا ومشاعرنا وتدعو عقلنا إلى التساؤلات والاستفهامات إلى مالا نهاية له .

هذه الإشارة تدفع عقولنا إلى البحث عن الحقيقة وعن أسباب تلك الظواهر المدهشة . وهذا بدوره يحرك عقولنا ويوقظها من سباتها ونومها وغفلتها .

وإذا تحرك العقل ونشط وعمل بأسلوب منظم وتنظيم موجه تتسع مداركه وتقوى عملياته وفاعليته ويصل إلى حقائق ويكشف عن أسرار ما كان له أن يكشفها بهذه الدرجة وبتلك المقادير لو بقى على سباته وعلى خموله . فإثارة العقل هو انتفاضة العقل من الخمول ويقظته من النوم وجلاؤه مما ران عليه من صدأ الألفة .

والكون طبيعة ميتة إذا نظرنا إليه من زاوية الألفة . أن الإنسان يولد وهو لا يدرك من مظاهر الكون شيئا ثم يألف أجزاؤه ومظاهره شيئا فشيئا فيصبح أخيراً

كل شيء في نظره أمراً عادياً روتينياً مألوفاً . لا يثير انتباهه ولا يحرك مشاعره فيعيش عاديا وكأنه ليس هناك أمر غريب عليه مع غرابة كل شيء فيه . هذا الانسان يكـــون عادياً في تصرفاته وفي نظرته إلى الكون والحياة ويعيش بليد العقل غليظ الشعور . وكما يكون عقله وشعوره وإحساساته بليدة تكون نتيجة لذلك حياته كلها بليدة جامدة وكأنها حياة بدون حياة .

فالذين يحيون حياة نشطة ويقظة ومندهشة ومثارة هم هؤلاء الذين أثارت الطبيعة عقولهم ومشاعرهم وإحساساتهم وقلوبهم من الأدباء والعلماء والمفكرين .

ولهذا فقد أثار الإسلام انتباه العقول وأثار المشاعر والإحساسات إلى هذا الكون وإلى هذه الطبيعة الحية ليكون المسلمون واعين متيقظين إلى العالم المحيط بهم ليعرفوا الله فيه حق معرفته وليعرفوا حقائقه ونظمه فينتفعوا به فقال تعالى:

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ
ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ٣٣
وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ٣٤
لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ٣٥ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى
خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ٣٦
وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ٣٧ وَٱلشَّمْسُ
تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ٣٨ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ
مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ٣٩ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن
تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (٢٩)
وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ

(٢٩) سورة يس آية ٣٣ – ٤٠

﴿ ... أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾[30]

وقال أيضا ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[31] ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ﴾[32] وقال الرسول « والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون »[33] وقال الإمام علي « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا »[34] وقال تعالى ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾[35] ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾[36].

هكذا نرى أن الاسلام يلفت أنظارنا إلى الأمور المثيرة فى الكون وفى الحياة ، بعضها مجال العقل وبعضها مجال القلب وبعضها الثالث مجال الشعور والإحساس فينبغى أن تعمل عقولنا وقلوبنا ومشاعرنا فى هذه المجالات وأن تبحث عن الحقائق فيها وأن نستفيد منها فى حياتنا المادية والمعنوية ، والأدبية معا ، وأن نثير عقول أبنائنا وقلوبهم ومشاعرهم إلى صفحات هذا الكون ليقروا فيها ويستفيدوا منها فى حياتهم ، ليحيوا حياة واعية يقظة نابضة بالحيوية والنشاط والفاعلية . حتى لا يكونوا كهؤلاء الذين لا يفقهون ولا يعملون عقولهم وقلوبهم وأبصارهم وأسماعهم لإدراك هذه الحقائق العجيبة فى هذا الكون وفى هذه الحياة . قال تعالى فى حقهم ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ

---

(٣٠) سورة الروم ٢٢

(٣١) سورة الحشر آية ٢٤

(٣٢) سورة فاطر ٤١

(٣٣) اتحاف الأنام بخطب رسول الإسلام ١/ ٣ ، الكامل لابن الأثير ٢/ ٢٣

(٣٤) كشف الخفاء ٢/ ٤٣٢

(٣٥) سورة يونس ١٠١

(٣٦) سورة الغاشية ١٧ – ٢٠

لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُولَٰٓئِكَ كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْغَٰفِلُونَ ﴾ (٣٧)

إن متعة الحياة ليست فى الحياة الحسية فقط كما يفهمها هؤلاء الأنعام من البشر بل إن المتعة الأعمق والحياة الحقيقية هى إدراك حقيقة الكون وحقيقة الحياة وأسرارها ومغزاها ومعرفة ظاهرها وباطنها .

وهكذا يجب أن نربى عقول الأبناء تربية يستطيعون أن يحيوا بها حياة إنسانية حقيقية كاملة تتوافر فيها المتعة العقلية والروحية والحسية والأدبية معا .

ثامنا : التشجيع على البحث عن الحق بطريقة موضوعية ثم الالتزام به أو اتباعه . وأهم وسيلة للتشجيع على ذلك ووسيلة لتكوين دوافع إليه أو تحويل دوافعه الأخرى إليه .

غير أنه ينبغى تجنب الإفراط فى هذا الموضوع ، لأن الإفراط قد يفقد لديه الاتزان الانفعالى . والانفعال غالبا يخرجه من الموضوعية فى معالجة المشكلات . وطريقة البحث .

الوسيلة الثانية للتشجيع على هذا هو وضع الحقائق فى صورة مشكلات عملية .

الوسيلة الثالثة هى المكافأة المادية أو الأدبية بطريقة من الطرق المشجعة المناسبة له .

ولا شك أن استخدام هذه الوسائل ينبغى أن يتم بطريقة تربوية .

تاسعا : مما يساعد على نمو العقل الأغذية والفيتامينات المقوية للذكاء . أن نقص الغذاء اللازم يؤدى إلى نقص النمو العقلى كذلك تساعد تلك الأغذية على مقاومة الكلل الذهنى وتساعد على عمل العقل بصورة فعالة ولمدة أطول .

عاشرا : توجيه نشاط الطفل العقلى إلى أعمال عقلية وعلمية وأن يكون هذا

---

(٣٧) سورة الاعراف ، آية ١٧٩ .

التوجيه خاضعا للأسس التربوية كما ينبغى أن يكون عمل الطفل العقلى خاضعاً لمنهج وتنظيم معينين وسليمين من الناحية العلمية والسيكولوجية .

ويتعلق بهذه النقطة عملية تخليص الطفل من القلق والصراع النفسى والتشتت الذهنى والمشكلات العائلية والنفسية الأخرى . هذه الأمور من أهم العوائق أمام فاعلية الذكاء ونشاطه وتركيزه كما أنها من الأسباب التى تعوق نمو عقل الطفل نمواً سليماً بالإضافة إلى هذا فإنها ترهق العقل وتبدد حيويته ونشاطه . إن العمل العقلى بنظام وتوجيه وتركيز لا يكون سببا للإرهاق وإنما يكون سببا للنشاط كشأن رياضة أجزاء أو أعضاء الجسم .

وإذا ألقينا الآن نظرة عابرة على ما قلنا فى مجال التربية والتعليم فى البيت نستطيع أن ندرك مدى أهمية أن يكون الآباء والأمهات متعلمين . وباعتبار أن الأم هى التى تقوم بوظيفة التربية أيضاً وهى الوظيفة الهامة التى يجب أن تتقنها كالأب المربى . فمن الحق أن نقرر فى هذه الحالة أهمية تعليم المرأة والعلوم التى يجب أن تتعلمها المرأة ، فلابد من أن تعرف المرأة من علم الطب وعلم النفس وعلم النفس الاجتماعى وعلم الاجتماع والدين والأدب والعلوم التربوية والأمور المنزلية .... وهذه العملية تحتاج إلى تنظيم تعليمى خاص يهدف إلى تعليم كل فتاة كل هذه العلوم قبل أن نقدم على التربية بل قبل أن نقدم على الزواج . كما نعلم الرجال قبل أن يقدموا على الوظائف

فنحن نعلم المرأة اليوم كثيرا من العلوم التى لا تتلاءم مع قدراتها واستعداداتها وميولها . ولا تتصل بحياتها الخاصة ووظيفتها الأساسية فيها . وفى نفس الوقت نتركها جاهلة بهذه العلوم المتصلة بوظيفتها الأساسية فى الحياة اتصالا مباشرا والمتلائمة مع قدراتها واستعداداتها وميولها . وهكذا ينبغى أن يخضع التنظيم التعليمى والتربوى للأسس العلمية والتوجيه التربوى السليم على حسب ما سوف يقوم به كل جنس من وظائف فى حياته العامة والخاصة ، والتربية من مقدمة وظائفها الخاصة .

فالتوجيه التعليمى لابد من أن يخضع للمبادىء التربوية وأن يخضع للقواعد العلمية . فلابد من تنظيم التعليم على أساس سيكولوجية الفروق الفردية وعلى

أساس ميول وقدرات واستعدادات الأفراد . وأن يعطى كل تلميذ بقدر ما يستطيع أن يأخذ ، وأن يعطى كل ما يستطيع أن يأخذه بأسهل طريقة وفى أقرب وقت ممكن .

فنحن نعلم لا لذات التعليم وإنما نعلم لنستفيد فى حياتنا من التعليم أو بعبارة أخرى نحن نتعلم لنحيا ولا نحيا لنتعلم .

إذن لابد من تعليم المرأة تعليما خاصاً وأن نعلمها العلوم التى يجب أن تستفيد منها والتى يجب أن يستفيد منها الآباء والأبناء أيضاً .

وإذن فالتربية ينبغى أن تكون المادة الأساسية والركيزة الأولى فى تعليم المرأة فى جميع مراحل التعليم ، لأن عملية تربية الطفل – كما رأينا – عملية شاقة ودقيقة وخطيرة تتصل بحياة الأفراد المستقبلة وحياة المجتمع فى الحاضر والمستقبل ، لأن الهدف منها صناعة الإنسان الكامل ، الإنسان المسلم العالم أو المسلم العالم الإنسان ، وخلق مثل هذا الإنسان ومثل هذه الشخصية من أصعب الأمور وأدقها وأخطرها ومن ينكر هذه الحقيقة فهو جاهل بحقائق التربية وحقائق الأمور الاجتماعية بوجه عام وحقائق الطبيعة البشرية بوجه خاص .

بالإضافة إلى أهمية إتقان المرأة العلوم التربوية ، كذلك ينبغى أن تتعمق فى دراسة علم الطب ولاسيما الأمراض الخاصة بالنساء عموما لتعالج المرأة امرأة حتى لا يهتك حياؤها وعرضها فى العيادات الطبية ، ولكن أنى لها ذلك ؟ فإن المرأة بالرغم من دخولها فى ميدان الطب منذ زمن بعيد فلم تتقدم خطوات ملحوظة فى ميادين التربية والطبابة . مازالت معظم الأمهات لا يعرفن عن أمور التربية شيئاً ، ولا يعرفن عن المبادىء الصحية ، ولا زالت المرأة بحاجة إلى الأطباء حتى فى الأمراض الخاصة بالنساء وحتى الولادة بحاجة إلى أن يولدها الأطباء ، فنحن بحاجة شديدة إلى طبيبات بأعداد كثيرة حتى لا تحتاج المرأة إلى كشف عورتها للأطباء . ويزيد الطين بلة أن المرأة المتعلمة تصبح غالبا مسترجلة أو تحاول ذلك ، دون جدوى ذلك أنها لا تجيد عمل الرجال وتبقى جاهلة بطبيعة نفسها

وتسلك سلوكا غير مناسب لطبيعتها . وأخيرا تجهل وظيفتها والقيام بأعمالها الخاصة ، ومن ثم لا تصبح رجلا ولا تبقى امرأة .

وهكذا نحن بطريقتنا الخاصة فى تعليم المرأة نفتقد المرأة بدلا من أن نخلق امرأة . ولا نخلقها كذلك رجلا . وهكذا لا نستفيد منها كامرأة ولا نستفيد منها كرجل أيضا وما ذلك إلا لأننا نحاول أن نعلم المرأة أعمال الرجال ولا نربيها ، أما وهذا التعبير الأخير يحمل مغزى تربويا عظيما يدركه جيداً رجال التربية ومن يعانى من استرجال النساء فى الوظائف والمجتمع ، ولقد أدرك هذه المشكلة رجال من الغرب ومنهم الدكتور الكسيس كارل الذى نال جائزة نوبل الدولية لنستمع إليه ماذا يقول لنا فى هذا الصدد يقول : « فيجب علينا منذ الآن أن نزود آباء المستقبل من جهة وطلبة مدارس المعلمين من جهة أخرى بالمعلومات التى تنقصهم حول سلوكهم فى حياتهم الخاصة ، وحول تربية الأطفال ، فتربية الدجاج والغنم مهنة فى أقصى السهولة بالنسبة لتربية صغار الكائنات البشرية ومع ذلك فإن كل من يرغب فى تربية بعض الحيوانات لابد أن يقضى فترة تدريب فى إحدى المزارع أو مدارس الزراعة ، ولو خطر لأحد أن يعد نفسه لهذا العمل بدراسة الآداب والرياضيات أو الفلسفة لعُدَّ مجنونا مع ذلك فإن هذا النوع من الجنون هو الذى ترتكبه فتيات اليوم فمعظمهن لا يعرفن شيئا فى حقيقة الأمر غير ما اشتملت عليه مناهج المدرسة ونرى الواحدة منهن تصل إلى سن الزواج وهى على تمام الجهل بمهنتها كامرأة فمن البديهى أنه لابد من وجود مدارس خاصة لتعليم الشبيبة النسوية وظيفتها النوعية فى المجتمع فتتعلم الفتيات فى هذه المدارس واقع الحياة وتكوين الأطفال بالطريقة العقلية ... » لأن المرأة فى النوع البشرى تختلف فى تركيبها العضوى والعصبى والعقلى عن الرجل فجعل التربية واحدة بالنسبة للصبيان والبنات فكرة رجعية وبقية من فترة ما قبل العلم فى تاريخ البشرية .

لقد كانت نظرة علماء عصر النهضة بالنسبة إلى مشاكل التربية أكثر عمقا وصدقا من نظرة علماء التربية فى القرن العشرين فكان (ابراسم) يرى أنه يجب

تعليم المرأة من أجل نفسها ومن أجل زوجها ومن أجل أطفالها على السواء ، إذ أن واجبها لا ينحصر فى إرضاع صغارها بل أيضا فى تزويدهم بتربيتهم الأولى ، وفى النهاية تجعلهم أهلا للسلوك فى الحياة .

فالجسم والعقل والجسد نواح غير قابلة للانفصال كما يقرر « رابليه » والضمير والعلم مرتبطان كل منهما بالآخر أوثق ارتباط وليس العلم دون ضمير إلا دمارا للنفس فيجب تدريب الفتيات والأمهات الشابات على الوسائل التى تمكنهم من تنمية جميع وجوه النشاط العقلى والعضوى فى الطفل بشكل متسق »[1] .

وقال بعض رجال التربية « يكون الرجال كما يريد النساء فإذا أردتم أن يكون الرجال عظماء وفضلاء فعلموا المرأة ما هى العظمة وما هى الفضيلة» وقال آخر « إن التى تهز المهد بيسارها تهز العالم بيمينها »[2] .

ويقول بستالوزى المربى المشهور : « أيتها الوالدة كما أنك مصدر حياتى الجسدية فعليك وبواسطتك تدب فى قلبى أول العواطف الإنسانية والفضائل الأخلاقية وبدونك لا يتسنى لى المحافظة على طهارة نفسى ومحبتى وطاعتى مهما بلغت قوتى البدنية وشوكتى فى هذا العالم ..

وإن كنت لم تعرفى للآن ماهية هذا العالم وحروفه التى يرمينى الدهر بين أنيابها فتعالى لنتعلم معا ما كان يجب عليك معرفته من قبل وما أنا مضطر أن أتعلمه »[3]

وأخيرا يجب أن يعلم الآباء أن التربية والتعليم لا تقتصر على علم معين من العلوم ولا ناحية خاصة من نواحى الحياة بل تتصل بكل علم وكل معلومات وكل خبرة متصلة بحياة الأولاد المختلفة . وقد كان الرسول يعلم أفراد أسرته كل شىء حتى آداب الأكل فقد روى عن عمر بن أبى مسلمة أنه قال : «كنت غلاما فى حجر رسول الله وكانت يدى تطيش فى الصحفة فقال لى النبى ﷺ يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك فمازالت تلك طعمتى بعد»[4] .

---

(١) تأملات فى سلوك الانسان ص ٢٠٥ – ٢٠٦

(٢) التربية الأخلاقية ص ١٤ أبادير حكيم

(٣) التربية الأخلاقية ص ١٢٤ أبادير حكيم

(٤) رياض الصالحين باب الأكل مما يليه

وعليهم أن يرسلوا أولادهم لتعلم العلوم التى لا يعرفونها أو لا يستطيعون تعليمهم إياها لسبب من الأسباب ، لأن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» فقال الرسول : « **طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة**[٥] . ولهذا طلب من الآباء إرسال أبنائهم إلى طلب العلم إن كانوا جهلاء ليعودوا متعلمين فيعلموهم . فقال تعالى:

﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[٦] ولا أقول المطلوب هنا هو العلوم الدينية فقط بل أقول إن الدين هو المقصد الأول لأنه طريق لهداية الإنسان فى الحياة الدنيا ولأنه خير موجه وخير مرشد لتوجيه الإنسان الوجهة السليمة فى الحياة ولأنه يخلق فى نفسه طاقة تجعله يقوم بأعمال تتطلب تحمل الصعاب وتجعله أيضا مخلصا فى كل أعماله وتصرفاته . ولهذا فإن معرفة الإسلام هو الواجب الأول كل مسلم ومسلمة .. ولأهمية التعلم والتعليم قال الرسول ﷺ « **أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علماً ثم يعلمه لأخيه المسلم** »[٧]

وبالإضافة إلى تعليم العلوم الدينية وغير الدينية فعلى الآباء أن يقدموا لأبنائهم خبرات حياتهم الطويلة التى تنفع فى حياتهم المستقبلة . فهذه أسماء بنت خارجة الفزارى تقدم لابنتها عند تزويجها – خبراتها فى حياتها الزوجية فتقول « انك خرجت من العش الذى درجت فيه فصرت إلى فراش لم تعرفيه وقرين لم تألفيه فكونى له أرضا يكن لك سماء وكونى له مهاداً يكن لك عماداً وكونى له أمة يكن لك عبداً لا تلحفى فيقلاك ، ولا تباعدى عنه فينساك . ان دنا منك فاقربى منه وان نآى عنك فابعدى عنه واحفظى نفسه وسمعه وعينه فلا يشمن منك إلا طيبا ولا يسمع إلا حسنا ولا ينظر إلا جميلا » .

فما أجمل ما تقدمه هذه المرأة لبنتها من الخبرة التى تعتبر دستورا لآداب

---

(٥) الجامع الصغير جـ٢ . ح . ط/ ٥٤

(٦) سورة التوبة ١٢٢

(٧) سنن ابن ماجه ١/ ٨٩ رقم الحديث ٢٤٣

المعاشرة الزوجية وطريقا لدوام هذه المعاشرة . خبرة تعبر عن أعماق العمليات النفسية التي تؤدى بالحياة الزوجية إلى السعادة .

هذا ولا يحسن الأب أن منفعة التربية والتعليم تعود عليه فى الدنيا فقط بل من اللازم أن يعتقد أن له نفعا وفائدة تعود عليه فى الآخرة أيضا إذا عمل بعلمه الأعمال الصالحات واستغفر له ودعا له فقال الرسول « **إذا مات ابن آدم انقطع عمله من الدنيا إلا من ثلاث علم ينتفع به وصدقة جارية وولد صالح يدعو له** »(٨)

وقال أيضاً « **من عال ثلاث بنات فأدبهن وزوجهن وأحسن إليهن [redacted] الجنة** »(٩)

ب- واجبات الأبناء نحو الآباء

ليت الأبناء قدروا حق الآباء وعرفوا فضلهم عليهم حق معرفته وواجبهم نحوهم حتى يقابلوا الإحسان بالإحسان والفضل بالفضل والواجب بالواجب ، ولكن معظمهم لا يقدرون ذلك إن أقل الواجب عليهم تجاههم الطاعة والبر والإحسان مقابل أنعامهم عليهم وتعبهم لأجلهم وهم صغار . وكيف لا يجب على الإنسان أن يطيع والديه وقد حملته أمه وهنا على وهن ووضعته وهنا على وهن « حملته حين كان جنينا فى بطنها وحملته بعد أن وضعته فى حضنها على مر السنين والأيام . وكم سهرت عليه لراحته واستيقظت من نومها لصياحه مرضت لمرضه وبكت لبكائه . والأب كد وجد وتعب من أجله ليكسب قوت يومه فكم من الأيام ذهب تحت شمس محرقة ودخان الآلات الخانقة حفر التراب وحمل الأحجار والأكياس إلى أعالى العمارات أو تحت بطون الأرض وجبينه يصبب العرق صبا وزفير أنفاسه يخرج من فيه وأنفه . كل ذلك من أجل ولده رعاية لنموه ومحافظة على صحته وحياته »

« فإذا كان الأمر كذلك أليس من الواجب معاونتهما ورفع الأذى عنهما والإنفاق عليهما . ولا سيما إذا كان قد ضعفا وعجزا أو مرضا وشاخا وبدآ ينظران

(٨) التاج جـ ١ كتاب العلم ص ٧٥
(٩) الجامع الصغير ٢/ ١٧٦

إليه نظرة من يطلب رد الجميل فهل يقابل النعمة بالنعمة والإحسان بالإحسان أم يسيء إليهما بعد إحسانهما إليه » .

إذن فلا غرو أن ذكر الله واجب إحسانهما وبرهما بعد واجب توحيده وعبادته في قوله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾[١٠]

وقال أيضا : ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾[١١]

وإذن فالواجب الأول على الإنسان توحيد الله وعبادته والواجب الثاني بر الوالدين والإحسان إليهما ويجب عليه الاستمرار في برهما والإحسان إليهما ولو كانا كافرين فقد روى عن أسماء بنت أبي بكر الصديق أنها ذهبت إلى الرسول تستشيره عن صلة أمها عند ما قدمت وهي راغبة في تجديد الصلة قالت قدمت على أمي وهي راغبة أفأصل أمي قال نعم صلى أمك[١٢] لأن هذا شيء والكفر والإشراك شيء آخر هذا واجبها نحوها وذلك واجب أمها نحو ربها .

ولا ينبغي له أن يظهر أي سخط أو ضجر ولو بعبوس الوجه أو تحريك المنكبين أو بكلمة أف . لأن ذلك يؤذيهما مهما كان طلبهما ثقيلا فقال تعالى:

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾[١٣]

وكيف لا يؤذيهما ذلك وهما في هذه المرحلة من الكبر والعجز لا حول لهم ولا قوة كأنهم أطفال والضعيف يتأذى من أقل لفتة مؤذية كما أن الأطفال يتأثرون نفسياً ويتأذون من أقل تهديد أو الامتناع عن تحقيق طلبهم وكيف لا يتأثران من ذلك

(١٠) سورة الإسراء ٢٣
(١١) سورة لقمان ١٤
(١٢) صحيح البخاري جـ ٨ – كتاب الأدب – باب صلة المرأة أمها ص ٥
(١٣) الإسراء آية ٢٣ – ٢٤

فى هذه المرحلة وأبناؤهما ثمرة جهودهما فى الحياة وقد بذلا لهم كل ما لديهم من صحة ومال ولم يبق لهما إلا شيء واحد هو انتظار الإحسان والبر. ومن هنا نجد اهتمام الأديان برحمتهما ولوكان فيها تذلل لهما. وإذا كانت هناك آية فى القرآن يمكن أن نفهم منها إيحاء لتذلل إنسان لإنسان فى حالة من الحالات فهى هذه الآية التى توحى إلى الابن بالتذلل بالرحمة لوالديه فى هذه الحالة من الكبر فى السن.

وقد ذهب الإسلام إلى أكثر من ذلك حتى إنه جعل طاعتهما والعمل من أجلهما جهادا فى سبيل الله. روى أن رجلا جاء يستأذن النبى ﷺ فى الجهاد فقال له «أحى والداك» قال: نعم قال: «ففيهما جاهد»(١٤) وينبغى له ان يصاحب أمه ويرحمها ويخدمها ويراعى شعورها أكثر من الأب، لأن قلبها أرق وشعورها أكثر حساسية. وكما أن شعورها بالعجز أكثر ولأنها تعبت من أجله أكثر من الأب ولهذا قال تعالى: ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾(١٥) فقد ذكر لها أتعابا من هذا النوع ولم يذكر للأب وقد أكد هذا المعنى قول الرسول لأحد الصحابة حين سأله «من أحق بحسن صحابتى يارسول الله. **قال أمك قال ثم من قال أمك قال ثم من قال أمك قال ثم من قال أبوك**»(١٦).

ولقد تحدث القرآن عما نال الذى بر بوالديه وأحسن معاملتهما من الصفح والغفران من الله وقبول ما عمل من الأعمال الصالحة فقال تعالى:

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾(١٧)

---

(١٤) صحيح مسلم جـ ١٦ باب بر الوالدين ص١٠٣ (١٥) سورة لقمان ١٤

(١٦) صحيح مسلم باب بر الوالدين ص ١٠٣ (١٧) الأحقاف ١٥ – ١٦

وقد روى الرسول قصة رجل كان فى خدمة والديه وعند حاجتهما ويتحمل المشقة فى سبيلها فبسبب ذلك قد أنجاه الله من أزمة وعذاب قال « انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى أواهم المبيت إلى الغار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهما الغار فقالوا إن الله لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم ، قال رجل منهم أنه كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلا ولا ولدا فنأى بى طلب الشجرة يوما فلم أرح عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أوقظهما وأن أغبق قبلهما أحدا فلبثت والقدح فى يدى انتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبية يتضاغون عند قدمى فاستيقظا فشربا غبوقهما . اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفجرت الصخرة» بمقدار [١٨] ثم دعا كل واحد بصالح أعماله حتى انفرجت الصخرة ونجوا من الشدة .

كما بين القرآن وبال العقوق والعصيان للوالدين فضرب المثل بابن عاق جاحد لا ينتصح بنصحهما ولا يزعن لرجائهما فكانت عاقبته الخسران والهلاك قال تعالى:

﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ [١٩]

وكان هذا ممثلا فى ابن نوح حين عصى أباه ولم يركب معه سفينته فكان من المغرقين .

ولقد اعتبر الإسلام عقوق الوالدين وقطع صلاتهما وبرهما من كبائر الذنوب فقال الرسول « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر » قالوا بلى يارسول الله قال : « **الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس وشهادة الزور والزنا** » [٢٠] وقال الرسول « **إن**

(١٨) رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين – باب الإخلاص وإحضار النية – ونص قصة الصالحين طويل فمن شاء فليرجع إلى هذا المرجع . (١٩) سورة الأحقاف ١٧ – ١٨

(٢٠) جامع الأصول من أحاديث الرسول جـ ١١ – كتاب الكبائر ص ٢٤٩

من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه قيل يارسول الله وكيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : « يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه »[21]

ومن عجب تعجب الصحابة من شتم الإنسان أباه فى ذلك الوقت وكم كانوا يعجبون لو رأوا ما يحدث فى زمننا من ضرب الأبناء لآبائهم وشتمهم شتما مباشرا وتركهم مرضى على الفراش دون مساعدة وخدمة وقطع إعانتهما وهما عاجزان عن الكسب . بل أشد من هذا وأمر ما نسمع هنا وهناك أحياناً أن يقتل الابن أحد والديه أوكليهما طعنا بالسكين أو ضربا بالرصاص . وياترى كيف يكون مصير هؤلاء فى الدنيا وعاقبتهم فى الآخرة ؟

غير أنه ينبغى أن يلاحظ – أن الإسلام بالرغم من تشدده فى عدم عصيان أمر الوالدين فإن الأمر ليس على إطلاقه إذ قيد هذا فى حدود الدين فلا يطاعان مثلا إذا أمرا بشىء يعتبر مخالفا للدين كأن يأمراه مثلا بترك العبادة أو شرب الخمر أو ارتكاب الزنا . كما يحصل – فقال الرسول : « **لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق** »[22] وقال تعالى: ﴿ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾[23]

ومثل المنع من التعليم لا لعدم قدرته المالية وإنما لعقليته التافهة ، لأن طلب العلم واجب المسلم . ومثل الاكراه فى مسألة الزواج فلا يحق له أن يكره بنته على زواج شخص معين وهى لا تحبه أولا ترغب فيه أو اكراه ابنه على زواج بنت معينة وهو غير راض ولا يرغب فيها وقد شرحنا ذلك فى موضعها .

هذا وقد أشارت الآية السابقة إلى نقطة دقيقة وملحوظة هامة وهى أن عدم الطاعة لا يستلزم قطع الصلة والخصومة ولهذا قال تعالى : « **فلاتطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا** » **حتى ولو كانا كافرين فإن عصيانهما لا يبطل الإحسان إليهما .**

وهذا نجد أن الإسلام قد وطد العلاقة بين الآباء والأبناء وجعلها صلة قوية ورابطة وثيقة وأضفى عليها القداسة الدينية وقربها من العلاقة والرابطة بين الإنسان وربه .

(٢١) هداية البارى إلى ترتيب أحاديث صحيح البخارى ١/ ٢٠٦

(٢٢) سبق مرجعه فى ص/ ٦٨ (٢٣) سورة لقمان ١٥

خامساً : مبادىء التعامل بين أفراد البيت

لابد أن يكون هناك مبادىء يقوم عليها التعامل بين أفراد البيت يؤمن بها كل واحد منهم ويسير عليها فى معاملاته لغيره . ولابد من أن يؤدى تطبيقها إلى تقوية الروابط والعلاقات بين هؤلاء ويزيد مقدار التكيف الاجتماعي وسعادة حياة البيت . هذه المبادىء هي :

١ - أن يعامل كل فرد الآخرين بما يحب أن يعاملوه به :

هذا المبدأ السلوكي والمعيار الخلقي من أهم المبادىء التي تقوم عليها الحياة الأجتماعية السليمة مهما كان لون هذا المجتمع وشكله ودينه . ولقد أشار به الحكماء والفلاسفة والاجتماعيون جميعا . كما أشاد به الإسلام أكثر من هؤلاء جميعا حتى ربطه بالايمان فقال النبي ﷺ **« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »**(١) . وليضع كل فرد المعاملة التي يريد أن يعامل بها غيره أمام عينه أولا وقبل أن يقوم بها وليطبقها على نفسه فما يرضى ضميره ووجدانه وإيمانه بالإنسانية أن يعامله به غيره فليعامل به هو غيره . إن هذا الميزان يمثل خير تمثيل ميزان خيرية السلوك وليس هناك ميزان عام ومعيار شامل يمكن تطبيقه فى كل مجالات الحياة وفى كل المجتمعات الإنسانية مثل هذا الميزان ومثل هذا المعيار . لأنه يعتمد على القلب وعلى الضمير وعلى الوجدان النابض بالخير إزاء موقف معين وإزاء معاملة معينة يريد الإنسان أن يقف فيه أو يعمل بها .

٢ - المحبة والرحمة :

إن مجتمع البيت أشد احتياجا إلى التراحم والتحاب والتواد من أى مجتمع آخر لأنهم أحوج إلى الروابط الوشيجة بينهم وكيف لا وهم يعيشون فى مكان واحد ويحتاج كل واحد إلى الآخر كل يوم وكل لحظة . ويواجه بعضهم البعض بصورة مستمرة بالليل والنهار فإذا لم تتم معاملتهم على المحبة والرحمة فلا خير فى

---

(١) صحيح البخارى جـ ١ - كتاب الإيمان ص ١١

حياتهم ولا معنى لها . لأنها حياة جافة لا بهجة فيها ولا سرور ومثل هذه الحياة لا تطاق إلى الأبد .

إن قلة الأرزاق والوسائل الترفيهية لا تكون من أسباب تعكير الحياة بقدر ما تكون الغلظة والقسوة فى المعاملة سببا لتعكير الحياة وتفكك أوصال المجتمع بوجه عام ومجتمع البيت بوجه خاص . فالبيت الذى تسود فيه الرحمة والمحبة والمودةيعمره الحنان والعطف والشفقة يمتلىء بالبهجة والسرور والطمأنينة والاستقرار .

وإذا أراد الآباء أن تكون بيوتهم من هذا النوع فعليهم أن يقابلوا أفراد الأسرة بطلاقة الوجه وإبتسامة الثغر وأن يضفوا أبوتهم وحنوهم وعطفهم وشفقتهم على الجميع لا يخصون واحدا دون الآخر وقد قال الرسول « **ارحموا ترحموا واغفروا يغفر لكم** »[٢] وكان مع علو شأنه وعظمة رسالته وثقل حمله فى نشر دعوته ، لا يقصر فى إضفاء محبته على أهل بيته فروى أن الحسن كان يبكى مرة وكان أبواه لا يسمعانه فأسرع الرسول إلى شاة فى ساحة الدار فحلبها وسقى الحسن من لبنها[٣] وكان مرة يخطب والحسن والحسين يأتيان إليه فيمشيان مرة ويعثران مرة أخرى فنزل من فوق منبره فحملهما بين يديه ثم قال : نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما[٤] وكان مرة يمشى فى الطريق فوجد الحسن يلعب مع أترابه فحاول إمساكه وكان يفر منه من هنا إلى هناك وكان يسعى وراءه حتى أدركه وحمله إلى صدره وقبله من وجنتيه . عندما رأى هذا المشهد أحد الصحابة قال يا رسول الله إن لى أولاداً ماقبلت أحداً منهم قط فقال له حينئذ من لا يُرحم لا يَرحم[٥] وكان الرسول يوصى دائما الآباء بالرحمة بالأبناء وينصح لمن كان له ولد بالتقارب إليه حتى يكون معه كما يكون الصبى مع الصبى ملاطفة له « فقال مثلا فى

---

(٢) الجامع الصغير ١/ ٣٨

(٣) منتخب كنز العمال جـ ٥ ص ٩٤

(٤) إحياء علوم الدين جـ ٢ حقوق الوالدين ص ٢١٨

(٥) البخارى جـ ٨ كتاب الأدب ص ٧

هذا الصدد « من كان له صبي فليتصابى له »[٦] وهذا هو أسلم تربية للصحة النفسية فى هذه المرحلة من حياة الأطفال وليس هناك خطأ تربوى .

فى خلق العقدة النفسية والشعور بالكآبة فى أعماق نفسية الأطفال اقترح من المعاملة بالغلظة والقسوة والصرامة . وكم يخطىء هؤلاء الذين يضعون أنفسهم فى أبراج عاجية وينظرون إلى أبنائهم من أبراجهم ويضفون على أنفسهم العظمة والجلالة والكبرياء لا يتنازلون لمصاحبة أبنائهم ويقفون منهم موقف المتكبر الجبار الغليظ المخيف يخاف أولادهم من الاقتراب منهم أو طلب شئ منهم بل يهربون منهم وهم فى البيوت ولا يجدون راحة ومتعة أمامهم بأى حال من الأحوال بئس هؤلاء الآباء وبئس موقفهم وأبوتهم وتربيتهم .

وليس التراحم والتحاب مقصورين فى البيت على ما بين الآباء والأبناء بل يجب أن تكون دعامة الحياة الزوجية قائمة على المحبة والرحمة أيضا فلا معنى للحياة الزوجية إذا لم تكن أساسها المحبة والرحمة . قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[٧]

٣ – احترام مشاعر الآخرين :

إن لكل إنسان مشاعر عامة وخاصة تختلف عن مشاعر الآخرين بدرجة قليلة أو كثيرة فعلى كل واحد أن يفهم مشاعر كل واحد فى البيت ثم عليه أن يحترم مشاعره وإحساساته عندما يعامله ولا سيما عندما يكون هناك غرباء أو ضيوف أو أصدقاء إذ أن عدم احترام المشاعر فى هذه الحالة الأخيرة أشد على النفس من الحالات السابقة . وكثير من أسباب الخلاف والمشكلات والنزاع والخصومات تنشأ نتيجة عدم احترام شعور الآخر . كذكر واحد مثلا عيوب الآخر أمام أصدقائه أو معارفه أو أن يصرخ فى وجهه أمام الناس لسبب من الأسباب ، أو عدم القيام بواجب الضيوف عندما يدعو أحد الأفراد أصدقاءه أو عدم احترامه مشاعر ضيوفه .

(٦) فيض القدير شرح الجامع الصغير جـ ٦ ص ٢٠٩ (٧) سورة الروم ٢١

من أجل هذا كله ينبغي أن يعتبر هذا الاحترام من أسس التعامل فى مجتمع البيت ثم إن الأبناء ينبغي أن يتعلموا احترام مشاعر أفراد أسرته فى البيت حتى يحترموا مشاعر الناس خارج البيت أيضاً .

٤ - التعاون فى القيام بالواجبات :

هذه المبادئ مهمة أيضا فى البيت وأكثر أهمية أن يلتزم بها الزوجان ذلك أن أحد الزوجين قد يعجز عن القيام بواجبه لحالات عرضية أو مرضية أو أنه لا يستطيع القيام به كما ينبغي لأمر من الأمور فعلى الآخر فى هذه الحالة أن يساعده ويعاونه فى أداء واجبه . فعلى كل واحد أن يعتبر أن كل الأعمال المتعلقة بالبيت عمله وواجبه . فان تقسيم الأعمال بين أفراد البيت ينبغي أن يكون وسيلة لتيسير العملية لا التخصص الروتيني الجامد ، إذ لا مانع من أن يقوم الرجل بعمل المرأة وأن تقوم المرأة بعمل الرجل إذا احتاج كل واحد إلى الآخر . ولا يعتبر هذا تخنثا من الرجل أو استرجالا من المرأة كما يعتبر ذلك بعض الرجال أو السيدات فيرون أنه من العيب أن يقوم أحدهما بعمل الآخر ولو فى الحالات الضرورية وهذا خطأ . فقال تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾(٨) وقال الرسول ﷺ يقول « **خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي ما أكرم النساء إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم** »(٩) ، وكان الرسول ﷺ مع عظم شأنه وجليل قدره لا يستنكف عن خدمة مهنة أهله ، فعندما سئلت عائشة عن عمل الرسول ﷺ فى بيته قالت : « **كان يكون فى مهنة أهله فإذا سمع الآذان خرج** »(١٠)

---

(٨) سورة المائدة ٢

(٩) الجامع الصغير ١/ ١١

(١٠) فتح البارى بشرح البخارى، كتاب النكاح ٩/ ٥٠٧

سادساً : مظاهر الحياة فى البيت الإسلامى

ستتكلم تحت هذا العنوان عن ثلاثة مظاهر . مظهر النظافة ومظهر الأدوات ومظهر الكسوة . ونبرز فيها مدى اهتمام الإسلام بكل واحد منه وكيف تمثل هذه الأمور مجتمعة صورة أو شكل الحياة فى البيت الإسلامى وتعطيه طابعا إسلامياً خاصاً .

أ - نظافة البيت :

إن الإسلام اهتم بالنظافة كثيرا حتى جعلها مرة شطرا من الإيمان وجعلها مرة أخرى شرطا له وهذا موافق لروح الإسلام . ذلك أنه أمر أول ما أمر بتطهير القلوب من أدران الشرك ثم من الغل والغش والحسد والحقد ، وأمر بنظافة الجسد والملبس ليكون المسلم نظيف الظاهر ونظيف الباطن ولتطابق طهارته فى ظاهره طهارة قلبه . وأمر بنظافة المأكل والمشرب والأدوات فى البيت . لوقاية الأفراد من الأمراض وليبعد البيت من الأوبئة وعن أن تكون عشا للجراثيم والأمراض المعدية ، لأن معظم الأمراض ناتجة أصلاً عن القذراة وعدم الاعتناء بالنظافة والطهارة .

بالإضافة إلى هذا فإن للنظافة أهمية اجتماعية ، ذلك أن القذارة نتنة تنفر الناس من الاجتماع وتنفر الناس بعضهم عن البعض فالإنسان إذا لم يتنظف يصبح كالجيفة أكثر نتنا من الحيوانات .

ومعلوم أن الإسلام يأمر بالاجتماع والتكتل والتجمع والمصاحبة والمصادفة ومن هنا نرى أنه جعل فضل صلاة الجماعة على صلاة المنفرد خمسة وعشرين درجة . وكره للناس حضور المساجد إذا أكلوا الثوم والبصل واستحب التطيب والاغتسال قبل صلاة الجمعة والتزين قال تعالى : ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ (1) وذلك كله كي لا يكون هناك ما ينفر الناس من الاجتماع بل ينبغى

(1) سورة الأعراف ٣١

أن يكون كل شيء فيه يجذبهم إلى الاجتماع . ومتى كان الإنسان طاهرا مزينا منظما نفسه وعياله وبيته فإن جليسه لا يكره منظره والقعود معه بل يسره بمنظره وطيبه فى بيته أما إذا أهمل ذلك كله فإن الناس يكرهون الحضور إلى بيته والجلوس معه .

من أجل هذا كله قال الرسول « **الطهور شطر الإيمان** »(٢) وقال أيضا « **ان الله طيب يحب الطيب نظيف يحب النظافة كريم يحب الكرم جواد يحب الجود فنظفوا أفنيتكم ولاتتشبهوا باليهود** »(٣) ويبدو أن اليهود فى ذلك الوقت ما كانوا يهتمون بالنظافة . كما أمر الرسول باستعمال السواك حتى لا تفوح أفواه الناس بالرائحة الكريهة وقال « السواك مطهرة للفهم مرضاة للرب »(٤) وقال « لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك مع كل وضوء »(٥) ولو أمره لكان واجبا ولو أوجبه لشق على الناس وخاصة فى بعض البقاع التى لا يوجد فيها السواك ، ويجب أن يعلم أن السواك وسيلة التطهير ، وكل وسيلة تقوم مقامه عند عدم وجوده وينال الإنسان عندئذ ثواب السواك ، كما ينال الإنسان ثواب الوضوء عنه فقدان السواك .

وقال أيضا « **اغسلوا ثيابكم وخذوا من شعوركم واستاكوا وتزينوا وتنظفوا فإن بنى اسرائيل لم يكونوا يفعلون ذلك فزنت نساؤهم** »(٦) وقد أشار الرسول فى هذا الحديث إلى نقطة هامة وهى أن عدم النظافة يكون سببا للزنا ذلك أن أحد الزوجين إذا كان يهمل النظافة نظافة جسمه ونظافة ثيابه فإن منظره يكون بشعا ورائحته نتنة فينفر الآخر منه فلا يحب أن يقترب منه ويرغب فيه . وبذلك يتحول عنه إلى غيره . ولهذا ينبغى أن يتزين كل واحد لصاحبه بالصورة التى يحب أن يظهر فيها أو يرغب فيها وكان ابن عباس يقول أنى أتزين لامرأتى كما كانت تتزين لى . وكان الرسول يأمر دائما أصحابه بأن يظهروا أمام الناس بالمنظر المحبب فقد جاء إليه مرة رجل ثائر شعر الرأس فأشار إليه باصلاح شعره ثم جاءه آخر وشعره

---

(٢) صحيح مسلم جـ ٣ – كتاب الطهارة ص ١٠٠

(٣) التاج جـ ٣ – كتاب اللباس ص ١٦٢

(٤) التاج ١/ ١٠٠

(٥) المرجع السابق ١/ ١٠٠

(٦) الجامع الصغير . ح . الألف/ ٤٨

جمة وأشار عليه بقصه ثم قال : « هذا هذا حسن »[٧] ولهذا أيضا كان ينصح دائما بتحسين الهندام وتجميل الظاهر . وتطهير الثياب »[٨] وما كان الرسول يظهر أمام الناس إلا نظيف الملبس مسرح شعر الرأس واللحية .

ب- كسوة البيت وملابسه :

أشرت سابقا إلى أمر الرسول للناس بالظهور بمنظر جميل بوجه عام وبالتزين ولا سيا عند الذهاب إلى الاجتماعات ومناطق التجمع مثل الجوامع وغير ذلك حتى لا تكون هناك حالة من الحالات تنفر الناس وأشرنا إلى بعض هذه الحالات .

أما الآن فعلينا أن نحدد مشروعية ما يجوز لبسه وما لا يجوز لكل من الذكر والأنثى وما يمكن أن يتزين به كل من الذكر والأنثى وحدود ستر الجسد من حيث الحرمة ومن حيث الأفضلية .

ففيما يتعلق بالأقمشة أجاز الإسلام للمرأة لبس أنواع الأقمشة والتزين بها . أما بالنسبة للرجل فلا يجوز له لبس الألبسة المصنوعة من حرير دود القز أما اللباس المصنوع من حرير الأعشاب أو من الحرير الصناعى فلا مانع من ذلك .

وفيما يتعلق بالتزين لا يجوز للرجل أن يتزين بالذهب ولبس الحرير ويجوز له التزين بالفضة أما بالنسبة للمرأة فلها حق التزين بالذهب والحرير وجميع أنواع الزينة لأن التزين من مطالب طبيعة المرأة والإسلام لا يحرم الإنسان من إشباع مطالبه الأولية وإن كان قد وضع لهذا الإشباع بعض القيود التى ينبغى أن يتم فى إطارها فى بعض الحالات الخاصة .

غير أنه ينبغى أن نلاحظ هنا نقطة مهمة وهى أن الإسلام إذا كان قد أباح للمرأة التزين من غير قيود وببعض القيود للرجل وشجع على التزين فى حالات التجمع إلا أنه إلى جانب هذا دعا الإسلام إلى ألا يكون ذلك على حساب

---

(٧) سنن النسائى ٨/ ١١٤ - ١١٧

(٨) المستدرك على الصحيحين فى الحديث ٤/ ١٨٦

الدين أو على حساب الفقراء فمثلا لا تصح المبالغة فى الاهتمام بزينة الدنيا والتباهى بها والتسابق إليها بحيث تكون مجمع همهم ومبلغ اهتمامهم فى هذه الحياة يتسابق إليها الأغنياء وينظر إليهم.

الفقراء لا يملكون إلا الشعور بالحرمان والإحساس بالكآبة . كذلك إذا كان يتزين للتكبر والافتخار على الفقراء فيكون ذلك حراما . ولهذا لما قال أحد الصحابة يا رسول إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا . فقال الرسول إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس »(٩٨)

فهناك المشروعية وهناك الأفضلية فالذى يتزين بزينة الدنيا المباحة لا يعتبر خارجا على الإسلام ولهذا قال تعالى

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ (٩)

ولكن الذى لا يهتم بها ويتجه إلى القناعة والاهتمام بالدين وبالخدمات الإنسانية فلا شك أن هذا أفضل من ذاك ولكن شيئاً واحداً أمر الإسلام المسلمين بالالتزام به هو ألّا يكون منظرهم من حيث النظافة واللباس ينفر الناس . ويثير فى نفوسهم الاشمئزاز والتقزز أو يلفت أنظارهم لمنظر غير لائق ولهذا كان الرسول لا يظهر أمام الناس إلا مصففاً شعر الرأس ولابسا لباسا نظيفا وكان يتطيب وقد لبس الرسول اللباس المرقع ولكنه لم يلبس لباسا غير نظيف فالفقر ليس عيبا وإنما العيب هو القذارة والظهور بمنظر غير لائق . ولهذا فإن هؤلاء يدعون التقشف والزهد والتصوف ويهملون تنظيف أجسامهم وثيابهم وتصفيف شعورهم يرتكبون خطأ لا يدعو إليه الإسلام .

وأما فيما يتعلق بتستر الرجال والنساء فأقل واجب على الرجل أن يستر ما بين السرة والركبة وهناك رأى آخر يرى أنه أقل واجب ستر السوأتين فقط هذا أو ذاك على كل حال من حيث الحرام والحلال أما من حيث الأفضلية فالأفضل أن يستر ما ينبغى أن يستر عادة وعرفا ولأن اللباس زينة لابن آدم .

(٨) التاج ٥/ ٣٢ كتاب البر والأخلاق

(٩) سورة الأعراف ٣٢

وأما بالنسبة للنساء فالحالة تختلف بين البيت وخارج البيت ؛ فنى خارج البيت لا يصح أن يرى منها إلا الوجه والكفين والرجلين عند الضرورة[١٠] فقد روى أن أسماء بنت أبى بكر دخلت على النبى وعليها ثياب رقاق فاعرض عنها وقال يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصح أن يرى منها إلا هذا وأشار إلى وجهه وكفيه[١١] وينبغى أن يلاحظ هنا أن بعض الثياب الرقاق التى يلبسها بعض النساء لا يرى منها إلا الوجه والكفان إلا أنها لرقته تظهر أعضاء الأنوثة فقد قال الرسول عنهن « **نساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لايدخلن الجنة ولا يجدن ريحها** »[١٢]

فمن حيث اللباس يعتبرون كاسيات ومن حيث إنه يظهر ما تحته يعتبرن عاريات فالحكمة من التستر هو منع الإثارة . والإثارة قد تكون بزى معين وقد تكون بالكلام وقد تكون بالإشارة وقد نهى الإسلام عن كل أنواع الإثارة .

وهذا قال تعالى :

﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾[١٣]

والخضوع بالقول هو الإثارة بالكلام كيفما كان . ومنع من الإشارة المثيرة أيضاً فقال تعالى : ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾[١٤] والضرب بالرجل لون من ألوان الإثارة المثيرة . وحديث الرسول السابق لأسماء يعد نصاً صريحاً يفسر المراد من بعض الآيات الواردة فى هذا المجال مثل معنى التبرج فى قوله تعالى ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾[١٥] وقوله ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾[١٦]

---

(١٠) انظر الخلاف هنا بين العلماء فى كتاب « حجاب المرأة المسلمة فى الكتاب والسنة » للشيخ محمد ناصر الدين الباقى ص ٣٢ وما بعدها . المكتب الإسلامى – بيروت ١٣٨٩ هـ

(١١) التاج جـ ٣ كتاب اللباس ص ١٦٨

(١٢) صحيح مسلم ٣/ ١٦٨ كتاب اللباس والزينة . تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى .

(١٣) سورة الأحزاب ٣٢

(١٤) سورة النور ٣١

(١٥) سورة الأحزاب/ ٣٣

(١٦) سورة النور/ ٣١

وهنا يرد سؤال وهو أن بعض الآيات السابقة نزلت بسبب بعض أزواج النبي وأنها خاصة بهن والجواب أن المراد بهذه الآيات عموم اللفظ ولا عبرة بخصوص السبب .

نعم هناك بعض الآيات الخاصة بأزواج النبي فعلا مثل ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾[17] وقوله تعالى ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾[18] وقوله تعالى ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾[19]

فحكم القرار الدائم فى البيوت وضعف العذاب فى حالة ارتكاب الفاحشة والكلام من وراء الحجاب خاص بازواج النبي لأن النصوص تنص على ذلك ولأن خصوص الحكم واضح فيها .

ولهذا فإن خروج المرأة المسلمة إلى ميادين العمل فى إطار القيود الإسلامية وكشف الوجه والكفين جائز لها كما أفاد ذلك صريح حديث الرسول . والا كان هناك تناقض بين حديث الرسول لأسماء وآية الحجاب . وجواز كشف الوجه عند الضرورة وخاصة للعاملات فى الحقول وما إلى ذلك كما أنه مشروط بأمن الفتنة .

أما حدود التستر فى داخل البيت فقد جاءت فى قوله تعالى :

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ

(١٧) سورة الأحزاب / ٣٣
(١٨) سورة الأحزاب/ ٣٠
(١٩) سورة الأحزاب/ ٥٣

﴿... أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ
وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ
جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٢٠]

والمراد من الزينة هنا هو مواضع الزينة لأن إظهار نفس الزينة مباح ومعلوم أن مواضع الزينة فى المرأة الرأس والأذن والعنق والصدر. والعضدان والذراع والساق فهى للأكاليل والقرط والقلادة والوشاح والدملج والسوار والخلخال. فهذه المواضع يجوز لها إظهارها لمن أجازت لهم الآية السابقة من أهل البيت أما لغير أهل البيت فلا يصح إلا ما يظهر منها ضرورة وقد قال بعض الفقهاء الضرورة هى الوجه والكفان والرجلان، ونضيف هنا أمراً ما سبق أن ذكر كيفية اللباس الذى تتستر به المرأة فقد تلبس لباساً طويلاً لكن تظهر منها مفاتنها لرقتها ولهذا قال الرسول عنهن «**كاسيات عاريات**»[٢١] ولكن ينبغى أن يفهم من قولنا إنه يجوز كشف المواضع السابقة فى البيت أمام أى واحد ولو كان أجنبيا فالأجنبى أجنبى فى أى مكان وأهل البيت أهل البيت فى كل مكان.

وكما دعا الإسلام إلى الاحتشام فى الزى دعا أيضا إلى العفة ونهى عن أن تكون الفتيات سلعة فى البيوت يتاجر بأعراضهن. قال تعالى﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾[٢٢] وبما أن الأب كرئيس البيت يعتبر أكبر مسئول عن البيت الإسلامى فعليه أن يروض أهله وأبناءه وبناته على النظافة وعلى الهندام الجميل وعلى الزى الإسلامى. أن تستر البيت واحتشامه والابتعاد عن الفتنة كما يأمر الإسلام يحمى البيت من الفتن والفساد – ويحفظ شرفه ومكانته كما يحفظه من أن يكون موضع الأنظار ومقصد الرجال.

حـ– أدوات البيت:

إن الإسلام بيّن كل شىء فيما يتعلق بالبيت الإسلامى حتى الأدوات المنزلية

(٢٠) سورة النور/ ٣١

(٢١) صحيح المسلم ٣/ ١٦٨٠ كتاب اللباس

(٢٢) سورة النور ٣٣

التي ينبغي أن تستعمل في البيوت لأنه يريد أن تسود روحه في كل مكان في البيت وخارج البيت في الظاهر والباطن . وقد قلنا إن الإسلام ينهى عن التسابق إلى التفاخر بألوان التزين والأبهة والعظمة بالمال والجاه وزينة الدنيا ، ودعا إلى التسابق في الخيرات والأعمال الصالحة .

ومن هنا حرم الإسلام استعمال الأدوات المنزلية المصنوعة من الذهب أو المذهبة والأدوات المصنوعة من الفضة أو المفضضة إلا إذا كسرت وضببت بالفضة القليلة ، أما الأدوات اللازمة وغير المصنوعة من الذهب والفضة فيجوز استعمالها وغير مقيدة بقيود معينة ، والسبب في حرمة الأدوات الذهبية أنها تعتبر بمنزلة عملة فاقتناء الأغنياء الأواني والأدوات المنزلية يعتبر احتكارا وكنزا للذهب والفضة وقد منع الإسلام الاحتكار واكتناز الذهب والفضة وأوعد فاعلها بالعقاب الأليم يوم القيامة فقال تعالى مثلا : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[٢٣]

---

(٢٣) سورة التوبة ٣٤

سابعاً : تنظيم العلاقات الجيرانية

إن الإسلام ربط الفرد بالأسرة وربط الأسرة بالمجتمع لتكوين وحدة اجتماعية وقد بينا كيف ربط الفرد بالبيت ونذكر هنا كيف ربط البيت بالمجتمع عن طريق إقامة الترابط والعلاقات بين البيوت المتجاورة .

وقد ربط االإسلام بين البيوت كما ربط بين الأفراد وكانت الأسس التى أقام عليها هذه العلاقة هى الأسس التى أقام عليها علاقة كل مسلم بأخيه المسلم . وأهم هذه الأسس هى :

أولا : عدم التجسس على البيوت :

هذه النقطة مهمة ذلك أن هناك جيراناً يحاولون أن يعرفوا كل شىء حتى خصوصيات الأشياء السرية فى الجيران ثم إذا كشفوا شيئاً من ذلك يعلنونه فيما بين الناس وكأنهم كشفوا شيئاً هاماً يكافأون عليه أو كأنهم اخترعوا شيئا يفتخرون به .

هذه الأمور تثير البغضاء والفتن والخصومات بين الجيران ولهذا منع الله التجسس فقال تعالى ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾[1]

كذلك منع الإسلام الاطلاع على عورات الجيران والنظر إلى البيوت ليطلعوا على ما حرم الله الاطلاع عليه وهذا من الخصال الخبيثة ولهذا قال الرسول : **« من نظر إلى بيت أحدكم من هوة فيه فأخذت حصاة فحذفته ففقأت عينه فلا جناح عليك »**[2]

---

(١) سورة الحجرات آية ١٢

(٢) صحيح مسلم باب تحريم النظر إلى بيت غيره ص ١٣٧

ثانيا : عدم إيذاء الجيران بأي شيء كسد طرقهم أو إلقاء القمامة أمام دورهم أو فتح المذياع بصوت مرتفع . لقد منع الإسلام إيذاء الجيران حتى بريح القدر أو بألوان الأكلات الشهية . فعليه أن يسترها عن أعينهم وإلا فالواجب أن يعطيهم منها ؛ ولهذا ينبغي على المسلم ألا يترك أولاده يأكلون طعامهم خارج البيت حتى لا تقع عيون جيرانهم على طعامهم فتتوق نفوسهم إليه ثم لا يقدرون الحصول عليه فيشعرون بالحرمان ويحسدونهم على ما آتاهم الله من فضله . لهذا قال الرسول ﷺ « **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره** »(٣)

ثالثا : مشاركة الجيران مشاعرهم في السراء والضراء :

إن مثل هذه المشاركة هي التي تضفي على العلاقات المودة والمحبة والمشاعر الإنسانية النبيلة ولهذا فعليهم أن يشاركوهم في أفراحهم وأتراحهم . فعليهم أن يهنئوهم إذا أصابهم الخير ، وأن يعزوهم إذا ألمت بهم الملمات وأن يعودهم إذا مرضوا وأن يطعموهم إذا جاعوا ، ولهذا كله كان يوصي الرسول بالجار دائما وكان يقول : « **ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه** »(٤) وقال أيضا : « **ليس المؤمن بالذي يشبع وجاره جائع إلى جنبه** »(٥)

رابعاً : التهادي والتزاور واستقبالهم بالبشاشة والترحيب :

فالتهادي يورث المحبة كما قال الرسول ﷺ « **تهادوا تحابوا** »(٦) ولهذا دعا إلى عدم ازدراء الهدية مهما كانت صغيرة ، لأن ازدراء الهدية يورث النقمة ويفسد العلاقات ، لهذا وذاك كان الرسول يقول : « **لو أهدي لي قرن شاة لقبلت** »(٧) والتزاور سنة لأنهم قد يرون حاجة يقضونها ، أو عجزا عن شيء يساعدون فيه .

---

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق فيه الشيخان ١/ ١٠ كتاب الإيمان

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ١٦/ ١٧٦ باب الوصية بالجار والإحسان إليه .

(٥) الجامع الصغير ٢/ ١٣٥ ، للإمام السيوطي

(٦) المرجع السابق ١/ ١٣٣

(٧) صحيح البخاري ٣/ ١٩٠ كتاب الهبة . وقال الرسول « لو أهدي إلى سراع لقبلت فتح الباري بشرح البخاري ٩/ ٢٤٥

وكذا لك استقبالهم بالبشاشة والترحيب له تأثير فى الألفة وادخال السرور فى نفوسهم » ولهذا قال الرسول : « **تبسمك فى وجه أخيك لك صدقة** »(٨)

خامسا : التعاون على البر وإزالة المنكر.

يجب أن يعاون الجار جاره إذا طلب منه العون ، لأن ذلك من حقه ، كذلك يجب أن يتعاون المتجاورون على الأمر بالمعروف وتحقيق البر والتقوى ، وذلك وفقا لقوله تعالى ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾(٩) هذا التعاون يجب أن يتم أولا فى إطار أفراد الأسرة ثم فى إطار الجيران وأخيرا فى إطار المجتمع كله.

من هذا كله نرى مدى اهتمام الإسلام فى تنظيم المجتمع الأسرى من جميع النواحى لأنه أساس المجتمع الكبير. ومن هنا نرى الرسول ﷺ يشير إلى تلك الأمور مجتمعة عندما سئل عن حقوق الجار فقال : « **إن استعان بك أعنته ، وإن استنصرك نصرته ، وإن استقرضك أقرضته ، وإن افتقر عدت عليه ، وإن مرض عدته ، وإن مات تبعت جنازته ، وإن أصابه خير هنأته ، وإن أصابته مصيبة عزيته ، ولا تستعل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه ، ولا تؤذه ، وإذا اشتريت فاكهة فأهد له ، فإن لم تفعل فأدخلها سرا ، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده ، ولا تؤذه بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها** »(١٠)

. بل أكثر من هذا فالإسلام قد ربط إكرام الجار بالإيمان بالله فقال الرسول « **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره** »(١١)

ولننظر إلى هذه المبادىء الإسلامية المتعلقة بالجيران لو أنها طبقت فى الحياة العملية هل يبقى إنسان جائع بين الناس. وهل توجد هناك المشكلات والخصومات التى نراها كل يوم ؟ بين الجيران وهل يبقى عاجز عن الشىء ؟

(٨) تحفة الاحوذى بشرح الجامع الترمذى ٦/ ٨٩ باب ما جاء فى صنائع المعروف انظر أيضا صحيح مسلم ٢/ ٦٩٧ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى

(٩) سورة المائدة ٢

(١٠) أحياء علوم الدين ٢/ ٢١٣ الامام الغزالى

(١١) صحيح البخا ى جـ ٨ - كتاب الأدب ص ١٣

بالإضافة إلى هذا كم تكون هناك محبة ومودة أو ألفة متبادلة بينهم وبالتالى بين أفراد المجتمع كله . ثم كم يكون هناك هناء ووئام بين الأسر ، إن بهجة الحياة لا تكتمل مالم تكن هناك معاشرة جميلة بين الناس الذين يربطهم جميعاً المكان والزمان بصفة مستمرة . وكل ذلك من وسائل سعادة بناء البيت الإسلامى السعيد ، وهل يمكن أن يشعر بالبهجة والسرور إذا بنى علاقته مع جيرانه على العداوة والبغضاء والنفور والكراهية ، ولا يأمنون شره ولا يأمن هو الآخر شر جيرانه ، ولهذا فقد حذر الرسول من عاقبة مثل هذه المعاملة السيئة فقال « لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه »[١٢]

والآن ربما اتضح من الموضوعات السابقة أن الهدف من تكوين البيت الإسلامى ليس هدفا فرديا فحسب بل هو هدف فردى واجتماعى معا . إذن فإن مجتمع البيت ليس مستقبلا ذاتيا فى جميع شئونه ومخصصاته بل هو مجتمع صغير داخل مجتمع كبير مرتبط به فى نواح كثيرة ولهذا كان تعبيرى عنه بأنه كخلية فى جسم كائن حى تعبيرا دقيقا عن هذه العلاقة الوثيقة بينهما .

ولو أننا تأملنا فى روح الإسلام فى تكوين المجتمع لوجدنا أنها أدق ما يكون فقد بدأ الإسلام فى تكوين المجتمع وفى بناء الجماعة من تكوين الفرد وبنائه فكون شخصية مسلمة متكاملة تكتمل فيها قوة الإيمان مع قوة الإرادة مع العلم والأخلاق . وبالرغم من قوة هذه الشخصية المسلمة فهى ليست مخيفة متكبرة جبارة متعدية بل متواضعة هينة لينة هاشة باشة خاضعة للحق أينما كان وخادمة للإنسانية حيث تكون تقف أمام الظلم والطغيان كالطود وتقف أمام الحق والعدل كالعبد المسالم الخاضع .

ثم بعد بناء الشخصية وضع أساس المجتمع السليم بالزواج بوضع أسس متينة للزواج ثم رسم العلاقات بين الزوجين من جهة وبينهما وبين أبنائهما من جهة أخرى . ونظم الأسرة كوحدة اجتماعية ثم ربط المجتمع الصغير مجتمع البيت بالمجتمع الكبير . وبذلك كون مجتمعا له شخصية وربط بين شخصية الفرد وبين

---

(١٢) التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول ٥/ ١٥

شخصية الأسرة وبين شخصية المجتمع كله وقد جمعت بينها جميعا شخصية إسلامية واحدة .

وهكذا نجد هناك وحدة بين اتجاه الفرد واتجاه الأسرة واتجاه المجتمع وحدة الاتجاه فى النظرة إلى الكون والنظرة إلى الحياة وأسلوب الحياة وأسلوب التعامل فى المجتمع ووحدة الهدف والغاية .

صورة مختلفة ولكن الجوهر والروح واحد .

ثامنا : نظام حماية البيت من الاعتداءات

إن الإسلام اعتبر أولاً البيت حرما خاصاً لأهل البيت ، فلا يصح هتك هذه الحرمة أو التطلع على عوارت البيوت، ولهذا منع من لم يكن من أهل البيت أن يدخل فيه إلا بالإذن قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ (1) .

وحدد طريقة الاستئذان فقال الرسول : « **إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع** » (2)

فلا ينبغي للزائر أن يدق الباب أو الجرس أكثر من ثلاث مرات . كما منع التحدث إلى البيوت من وراء الجدران أو من الطرقات كما يفعل كثير من الناس ينادون سكان البيوت من الطرقات ومن بيوت إلى بيوت أخرى فهذا لا يتناسب مع الأدب الديني فضلا عن أنه قد يؤدى إلى النظر إلى ما حرم الله أن ينظر إليه وإلى ازعاج الجيران أيضا لذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (3) .

وقد ذكرنا حديثا حرم فيه الرسول النظر إلى البيوت من الخارج حتى لا يطلع على حرماتها وأسرارها وذكر أنه لو ضرب صاحب البيت عين الناظر فى هذه الحالة وفقأها فلا جناح عليه (4)

---

(1) سورة النور ، آية ٢٧ - ٢٩ (2) البخارى جـ ٨ - كتاب الاستئذان ص ٦٧
(3) الحجرات ٣ (4) التاج جـ ٣ ص ١٧ باب فيمن يهدر

وكما وضع الإسلام مبادىء وقوانين لحماية البيت من الخارج ، ولاحترام حرماته وضع كذلك قوانين لحمايته من الداخل فحرم على أهل البيت افشاء سره إلى الخارج حتى لا يكون مدعاة للنزاع والتفكك فقال الرسول : « **إن من شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضى إلى امرأته وتفضى إليه ثم ينشر سرها** » (٥)

أين هذا السمو الخلقي من انحطاط أخلاق هؤلاء الذين يتحدثون علنا فى الشارع عما يدور بينهم وبين أزواجهم من أحاديث الوسادة وطرق معاشرة أزواجهم وحركاتهم وسكناتهم فيها . ويزيد بعضهم فيتحدث عنها للناس أمام زوجته ، ما أقبح كلامهم وما أسوأ أخلاقهم وما أبشع وأشنع فعلتهم هذه .

ثم وضع قوانين وعقوبات صارمة على الذين يسعون لإفساد البيت وتخريبه ولإثارة الفتن فيه ليمنع العابثين بأعراض الناس .

ومن تلك العقوبات عقوبة القذف واتهام أحد أفراد البيت بارتكاب الفاحشة لأنه قد تسول لأحد نفسه انتقاما من شخص أو من بيت معين أن يتهم أحد أفراد البيت فيه بالزنا ليفرق بين الزوج وزوجه أو لأمر آخر فى نفسه ففى هذه الحالة طالب الإسلام بإقامة الدليل على دعواه فإن لم يستطيع فيجلد ثمانين جلدة أمام الناس كما تهدر شخصيته الاجتماعية والأدبية فى المجتمع فلا تقبل شهادته بعد ذلك قال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٦) .

وأشد من ذلك وأنكى ما وضعه الإسلام من عقوبة قاسية على الزانى والزانية ، فإن كان الزانى متزوجا كانت عقوبته الرجم بالحجارة حتى الموت وإن كان عزبا كانت عقوبته مائة جلدة . قال تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٧)

(٥) صحيح المسلم — باب تحريم افشاء سر المرأة

(٦) سورة النور ، آية ٤ . (٧) سورة النور ، آية ٢ .

أما رجم المتزوج فقد جاء فى نص آخر . وإنما كانت عقوبة الزانى شديدة هكذا لأن القذف إذا كان قد يهدم بيتا فإن الزنا قد يهدم بيتين معا .

بالإضافة إلى هذا فالزنا هو السبب فى كثير من المشكلات الزوجية والبيتية والاجتماعية والصحية . فكم كان سببا لجرائم القتل والاعتداء وكم كان سببا للطلاق وقطع الصلات بين الأسر وتشريد الأبناء وهدم البيت من أساسه . وكم كان سببا لانتشار الأمراض المستعصية وانتقالها إلى الذرية واختلاط الأنساب وما نتج عن هذا وذاك من المشكلات الاجتماعية .

لكل هذه الأمور قد دعا الإسلام إلى تشديد العقوبة على مرتكبى جريمة الزنا لأن هدفه من ذلك حماية البيوت وصيانتها وحماية المجتمع والوقاية من الأمراض .

وأخيراً قد أعطى الإسلام السلطة وحرية الدفاع عن حرم البيت وأمانته .

فلأهل البيت أن يدافعوا عن شرفهم ومالهم وعرضهم وأنفسهم ولو أدى هذا الدفاع إلى قتل المعتدى ولا جناح فى ذلك على القاتل وإذا مات المدافع عن هذه الأمور مات شهيدا كما يموت فى ميدان الحرب فى الجهاد فى سبيل الله .

فقال النبى ﷺ « **من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون دمه فهو شهيد ومن قتل دون دينه فهو شهيد ومن قتل دون أهله فهو شهيد** »[٨] .

(٨) رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين – باب بيان جماعة من الشهداء فى ثواب الآخرة .

تاسعاً : المسئولية العامة عن نظام البيت

حددنا فى هذا الفصل مسئولية الآباء ومسئولية الأبناء . مسئولية الأب كرب البيت عن إدارة البيت وتنظيمه بوجه عام ومسئوليته إزاء زوجته وأبنائه بوجه خاص كما بينا مسئولية الأم فى البيت وواجباتها نحو الزوج وأبنائها . ثم ذكرنا أخيراً مسئولية الأبناء فى البيت وواجباتهم نحو الأب والأم .

وتبين لنا من هذا كله أن كل فرد فى البيت له حقوق وعليه واجبات أو بعبارة أخرى عليه مسئوليته عن البيت بمقدار يزيد أو ينقص بحسب الدور الذى ألقى عليه ليقوم به فيه . فبناء على ذلك نجد مسئولية الأب كرئيس للبيت وكأب للأولاد وكزوج تعتبر أكبر مسئولية وتليها مسئولية الأم كزوجة وكأم للأولاد . وأخيراً مسئولية الأولاد كأبناء للأبوين .

لكن هذا واجب والقيام بالواجب ليس فضيلة ولا يستحق عليه الشكر والثناء من هذه الزاوية وإن استحق ذلك من زاوية أخرى وهى زاوية المقارنة بينه وبين غيره فلا شك أن القائم بالواجب أفضل من القاعد عنه فالأفضلية هنا جاءت المقارنة والنظرة النسبية لا من ذات الفعل والعمل نفسه والمسئوليات التى حددناها هى الأعمال الواجبة لا الأعمال الفاضلة . فالأعمال الفاضلة فى البيت هى كل أعمال البيت الزائدة عن واجبه فالأفضل أن تعتبر كل فرد أن البيت بيته وما فيه ملكه وأن كل الأعمال التى يستطيع أن يقوم بها تعتبر عمله وينبغى أن يعمله . فبمقدار ما يتسابق الأفراد إلى الأعمال الفاضلة فى البيت بمقدار ما تزيد المحبة والمودة فيما بينهم لأن عمل الفضيلة ينبع من القلب ويصدر عن الشعور بالمحبة للبيت ولأهل البيت . وبمقدار ما تزيد المحبة والمودة والألفة بين أفراد البيت بمقدار ما تزيد سعادة البيت ، وبمقدار ما تزيد سعادة البيت يزيد ثباته واستقراره ودوامه ووقوفه أمام الشدائد والتيارات الجارفة الهدامة .

وهذا ما أراد الإسلام تحقيقه من بناء البيت فقد أراد سعادة البيت ودوام هذه السعادة واستقرار البيت وثباته قويا شامخا .

من أجل هذا أمر بالتسابق إلى الأعمال الفاضلة فى البيت وخارج البيت والتعاون فى أعمال البيت كلها مع إشاعة روح المحبة للأفراد والإخلاص لهم وأن يعرف كل فرد مسئوليته ويقوم بها أفضل قيام بدافع المحبة لا بدافع الواجب قال الرسول ، ﷺ : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، والأمير راع والرجل راع على أهل بيته والمرأة راعية على بيت زوجها وولده ، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته »[1] وقال تعالى أيضاً ﴿ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[2]

(١) البخارى – باب المرأة راعية فى بيت زوجها – رواية نافع عن ابن عمر عن النبى.

(٢) سورة البقرة ٢٣٧

الفصل الرابع

وسائل وطرق حل مشكلات البيت

أولاً : الموعظة الحسنة ودفع الإساءة بالإحسان

ثانيا : الزجر

ثالثا : الهجر

رابعا : العقاب

خامسًا : الوساطة

سادسًا : الطلاق

سابعًا : تفريق القاضي

ثامنًا : تعدد الزوجات

تاسعًا : وسيلة حل مشكلة تنظيم النسل .

قد بينا فى الفصول السابقة كيف بدأ الإسلام بتكوين البيت على أسس سليمة محكمة حتى يكون بناؤه على أصل قوى ثابت ثم أتقن بناءه وأحكم تنظيمه حتى لا ينهار بين يوم وليلة لزلزال يحركه ولا يتصدع لعامل هدام يصيبه بل يقف ثابتا أمام الزلازل والعواصف كالطود الشامخ لا يتأثر ولا يتزعزع .

ولم يكتف بهذا وذاك بل وضع وسائل وطرقاً لحماية البيت من العوامل الهدامة والتيارات الجارفة المفاجئة والمحتملة الظهور من حين إلى آخر فى الحاضر أو المستقبل .

فهذه الوسائل موضوع هذا الفصل الرابع والأخير.

وفى الصفحات القليلة الآتية سأحاول بيانها وتوضيحها واحداً تلو أخرى كما ينبغى اتخاذها أولا بأول وبالترتيب عند مواجهة تلك العوامل الهدامه الجارفة والمشكلات الحادثة المعكرة لهناء البيت والمهددة بإزالة سعادته وتصدعه وانهياره .

أولا – الموعظة الحسنة ودفع الإساءة بالإحسان .

يجب أن يعلم كل فرد فى البيت أولا أن لكل إنسان سلوكا ثابتا إلى حد كبير وعادات أخلاقية وقيما اجتماعية يلتزم بها فى حياته فى أغلب مواقفه وهى تحكم مسلكه وتصرفه – وذلك بسبب تربية حسنة أو سيئة تربى بها فى صغره أو كبره . والتزامه بها وخضوعه لها يكون غالبا بقوة التنظيم السيكولوجى الذى يمثل شخصية الإنسان الباطنية ، أو الجانب الروحى من شخصية الإنسان .

هذه الشخصية بهذا المفهوم تتكون عن طريق التربية : المقصودة أو غير المقصودة وأقصد بالأولى تربية الآباء والمربين فى المدرسة وبالثانية تربية البيئة الاجتماعية بوجه عام ، وطريقة التعامل بين أفرادها وأسلوب مواجهتهم لمشكلات الحياة . ونتيجة لهذه التربية أو تلك تتكون الشخصية .

هذه الشخصية يمكن أن تتغير ولكن لا يمكن تغيرها إلا عن طريق التربية أيضا ويختلف تغييرها فى السرعة أو البطء تغييرا كليا أو جزئيا باختلاف السن

والطبائع الشخصية البيولوجية والسيكولوجية من جهة وباختلاف طرق التربية ووسائلها من جهة أخرى .

غير أن حركات الشخصية الإنسانية وسلوكها ليست كحركات القوى المحركة للآلات وليس سلوكها كسلوك الآلات يكون على نمط واحد واتجاه واحد دائما وباستمرار بل إن سلوك الإنسان قد يتغير فى بعض الأحايين وفى بعض المواقف نتيجة تأثرة بعوامل داخلية ذاتية بيولوجية وبعوامل خارجية خاصة بالبيئة أو بالظرف أو بالموقف الذى هو فيه فتدخل هذه العوامل أو تلك قد يؤدى بالإنسان إلى أن يسلك سلوكا غير معتاد وغير منتظر منه .

هذا التغير الجزئى والوقتى فى نفس الوقت لا يدل على تغيير الشخصية بوجه عام فإنه غالبا سوف يعود سيرته الأولى بعد مروره بهذا الموقف وبعد زوال تلك العوامل الطارئة المؤثرة عليه .

فالتغير الشخصى لا يمكن أن يتم بين يوم وليلة . ولا يمكن أن يحدث فى أى ظرف أو فى أى موقف بل لابد من خضوعه لعملية التربية المقصودة وغير المقصودة . كما قلنا آنفاً . وتأثير التربية لا يتم إذا لم تأخذ مجراها الطبيعى وتهيأت أسبابها من حيث الوقت والظرف معا . وهنا يوجد أمران فى غاية الأهمية بالنسبة لأفراد البيت بل بالنسبة لكل جماعة تجمعها حياة مشتركة .

الأمر الأول أن يعرف كل واحد شخصية الآخر معرفة كاملة وينظم علاقته به وتعامله معه بناء على معرفته لتلك الشخصية .

الأمر الثانى إنه إذا تصرف الشخص تصرفا غير معتاد منه وظهرت منه حالات غير مألوفة أو أخطأ مرة أو مرتين فلا ينبغى أن يقول صاحبه عندئذ أنه تغير وتبدل وأنه غير شخصيته وبالتالى يسارع هو أيضا إلى تغيير موقفه منه ، بل عليه أن يحاول فهم العوامل الخارجية والداخلية التى أثرت عليه وجعلته يسلك هذا المسلك أو ذاك ثم بعد ذلك عليه أن يحاول إزالة تلك العوامل أو التقليل من تأثيرها عليه ، وأن يعرفه الأسباب التى جعلته يتصرف هذا التصرف إن لم يكن يعرفها .

إن ظاهرة حدوث التناقض فى سلوك المرء ظاهرة ليست غريبة علينا . فهى مألوفة نراها ونلمسها فى حياتنا اليومية فى تصرفاتنا وتصرفات غيرنا حولنا ؛ فكل إنسان عادة يفرح ويحزن ويغضب ويهدأ ويضحك ويبكى لهذا وذاك فهو نقد يستقبل أصدقاءه بطلاقة الوجه ورحابة الصدر فى يوم ولعارض ما يستقبلهم فى يوم آخر بوجه عابس وصدر ضيق .

فالزوج مثلا قد يعرف شخصية زوجته منذ الأيام الأولى من الزواج على أنها شخصية مرحة باسمة الثغر رقيقة الشعور لطيفة المعاملة حسنة الخلق وما إلى ذلك . فإذا ما رآها يوما عابسة الوجه لاذعة اللسان خارجة على طبيعتها الأولى بوجه عام فلا ينبغى له فى هذه الحالة أن يتسرع ويقول إنها غيرت طبيعتها وأصبحت فى حالة لا تطاق اليوم » وبالتالى يقدم على طلاقها أو فراقها . فإن هذه التغيرات الوقتية والوقفات الفردية لا تدل إطلاقا على تغير الشخصية وقد توجد هنا فروق بين الناس فمن الناس من تحدث فيه تناقضات كثيرة فى طريقة معاملته للناس وفى طريقة تفكيره وفى ميوله واتجاهاته ومنهم من لا تحدث فيه هذه التناقضات إلا فى القليل النادر ولا شك أن التعامل مع الأول أصعب بكثير من الثانى وأن أثر الأول فى أحداث الصراع النفسى والقلق فى نفسية أولاده الصغار أكثر وأشد من الثانى . وهذه النقطة ليست مهمة فى اختيار الأزواج فحسب بل هى مهمة أيضا فى اختيار الأصحاب والأصدقاء وعلى أى حال فإنه إن حصل من أحد أفراد البيت تجاه الآخر حالة ما تغضبه أو تزعجه أو تصرف خاطئ فى حقه فماذا ينبغى أن يفعل فى هذه الحال ؟

هنا يأتى دور هذا الأساس الأول الذى نتحدث عنه وهو المعاملة الطيبة والموعظة الحسنة التى توجب عليه أن يقابل الإساءة أولاً بالإحسان وبالصفح واللين والرفق واللطف فإن الرفق والصفح يزيل ما بين الشخصين من عداوة وضغينة . قال تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾[1] إلى جانب هذا فالرفق يعتبر عتابا رقيقا للمسئ .

(١) سورة فصلت آية ٣٤

فلرب بسمة فى وجه الغاضب الهائج المائج تضع الثلج فى نار قلبه وتكون بلسما لأوجاعه وآلامه . فقد روى أن عائشة غضبت مرة على الرسول حتى قالت أتزعم أنك رسول الله يا محمد؟ فماذا كان موقف الرسول؟ كان الصفح واللين فقال نعم يا عائشة أنا رسول الله فما لبثت أن هدأت وسكنت وعادت إلى طبيعتها الأولى[٢] .

أما الغضب فى وجه الغاضب فيضع الحطب فى النار المشتعلة والعود فى موقد البارود .

ومن ناحية أخرى فإن الإنسان ينبغى ألا يغضب لأمور تافهة إذا ما حدث إزاءه من الآخر ما يضطره إلى الغضب ، فينبغى ألا يتكلم أو يناقش حتى يسكن غضبه لأن الغضب يذهب العقل فلا يدرى ماذا يتكلم وبماذا يحكم وكيف يتصرف وماذا تكون نتيجة هذا وذاك فالتصرف فى حالة الغضب ولو بسيطا قد يؤدى إلى أخطاء جسيمة لا تقدر بموازين العقل والحكمة .

ولهذا فقد أمر الإسلام بالتغلب على الغضب ، فقال الرسول ﷺ « **ليس الشديد بالصرعة ، وإنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب[٣]** » وقال : « **لا تغضب** . ورددها مرارا[٤] .

ويعتبر التغلب على الغضب فضيلة لأن الفضيلة هى مغالبة للنوازع النفسية بوجه عام . فالكرم مغالبة لشح النفس بالمال والعفة مغالبة لدافع الشهوة والعفو مغالبة لرغبة النفس فى الانتقام . وهكذا ... والغضب له أضرار نفسية وأضرار اجتماعية كثيرة تحدث عنها علماء النفس والأخلاق والدين .

وإذا لم يفد اللين والموعظة الحسنة يأتى دور الوسيلة الثانية وهى :

---

(٢) إحياء علوم الدين جـ ٢ كتاب النكاح جـ ٤٣

(٣) البخارى . جـ ٨ – كتاب الأدب ص ٣٤

(٤) التاج . كتاب البر والأخلاق ص ٤٧

ثانياً : الزجر :

هناك بعض الطبائع قد فقدت فى نفسها الإحساس الإنسانى الرفيع والمشاعر الأدبية الحساسة الرقيقة فلا تكفيها الإشارات اللطيفة والمعاملة الطيبة لتعدل عن خطأ مسلكها .وسؤ سيرتها بل ربما قد تعتبر ذلك الأسلوب فى المعاملة ضعفا فى الشخصية وبالتالى فلا تبالى بحسن توجيهه وإرشاده . هنا لابد من استخدام الزجر والتهديد والشدة فى اللهجة لأنها قد تخاف ولا تستحى وهناك آخرون أقل حساسية من هؤلاء أيضا . فلا ينفعهم الزجر كذلك هنا يأتى دور الوسيلة الثالثة وهى :

ثالثاً الهجر :

وهو مقاطعة العاصى والمخطىء حتى يعدل عن مسلكه الخاطئ وعصيانه ولاشك أن المقاطعة أصعب من الزجر لأن الزجر يكون بالكلام فهو مؤقت وقد يؤثر أو لا يؤثر ولكن الهجر صعب ولاسيما هجر الأصحاب والأصدقاء والأحباب . وما بالك إذا هجر أفراد الأسرة العاصى حتى يعدل عن عصيانه ؟ فإنه يشعر عندئذ وكأنه فقد أهله وأسرته لأنهم يعاملونه أشد من معاملة الغرباء فيشعر عندئذ بالغربة والوحشة إذ لا يكلمه أحد ولا يعطف عليه ولا يبدى أى اهتمام به وكأنه أصبح مهملا وكأن وجوده أصبح معدوما بين يوم وليلة أمام أصحابه وأحبابه وأهله ، ولهذا هجر الرسول أصحابه الذين تخلفوا عنه فى معركة تبوك كان عقابا شديدا عليهم حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم حتى إذا ما لجأوا إلى وتابوا أرجع صلته بهم وأعاد عطفه عليهم[٤]

ولعل هجر الزوجة عند نشوزها فى فراشها أشد عقابا عليها ، وكيف لا ؟ وهى قد كسدت بضاعتها فى سوق زوجها وهى من الأمور الهامة والغالية عندها وعندئذ تراودها الفكرة أن الوسيلة لإرجاع قيمتها عند زوجها هو الرجوع إلى الرشد والعودة إلى حالتها الأولى والحياة مع زوجها راضية مرضية . وقد استخدم الرسول الهجر مع زوجاته أيضاً .

---

(٤) انظر سورة التوبة الآية ١١٨

رابعاً العقاب :

فالعقاب المادى هو أى عقاب حسى مؤلم مثل الضرب وغيره وهذه الطريقة لا تليق إلا بمن فقدت نفسه الحساسية الإنسانية الرفيعة فلا تفهم ولا تعقل ولا تنزجر إلا بالضرب والتعذيب فهو كالحيوان فى هذه الطبيعة الغليظة وقد ذكرنا أن الإسلام أباح الضرب بقيود معينة وذلك كوسيلة للتنبيه وليس كوسيلة للتربية . بل العقاب كله ماديا وأدبيا يعتبر وسيلة للتنبيه .

وقد ذكر القرآن هذه الأمور السابقة كلها فى معرض نشوز الزوجة فقال تعالى:

﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ۚ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴾ (٥)

وإذا لم تحل المشكلة بالوسائل والطرق السابقة تأتى الوسيلة التالية ... وهى :

خامساً الوساطة :

عدم إفادة العقاب المادى يدل على عدم وجود التفاهم فى نقطة مهمة أو مشكلة معينة ويدل على أن المشكلة أعمق وأن هناك رغبات أساسية لم تتحقق مما دفع الناشز إلى النشوز والعصيان وهو أمر يجعله غير مستعد للعودة إلى الحالة الأولى مادامت المشكلة قائمة .

من هنا يحتاج الأمر إلى وساطة وإلى حكم يدرس الموضوع مع الطرفين مثنى وفرادى ليهتدى إلى حله فقال تعالى ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾ (٦) يقول الإمام الزمخشرى فى هذا الموضوع إذا كان قصد الحكمين إصلاح ذات البين وكانت نيتهما صحيحة

(٥) سورة النساء ، آية ٣٤ .

(٦) سورة النساء ، آية ٣٥

وقلبهما ناصحا لوجه الله بورك فى وساطتهما وأوقع الله بطيب أنفسهما المودة والرحمة » .

وكان على بن أبى طالب يبعث حكمين حكما من أهل الزوج وحكما من أهل الزوجة فيقول الحكم من أهلها للزوج ماذا تنقم من زوجتك فيعدد الزوج جميع مآخذه عليها ثم يقول له إذا نزعت عما تكره إلى ما تحب هل تتقى الله فى معاشرتها وإعطائها كل ما يحق لها عليك من النفقة والكسوة ؟ فإذا قال نعم قال الحكم من أهله للزوجة الحل هو أن تقبل ما قال الحكم الأول للزوج ويجمعان بينهما ليتم الوفاق .

وقد يتوقف الصلح تنازل الزوجة عن بعض حقوقها والعدول عن زهوها ... وكبريائها فينبغى أن تفعل ذلك ، لقاء صفوة الحياة الزوجية ودوام حسن المعاشرة كما فعلت سودة بنت زمعة ، زوجة الرسول حين عدلت عن حقها فى القسمة وأعطته لعائشة لما رأت إعراض الرسول عنها فكان الرسول مضطرا من ناحية العدالة أن يعطيها حقها . ولكن نفسه كانت لا تميل إليها لكبر سنها فكان موقف الرسول كأنه مكره على فعل شىء لا ترضاه نفسه فكان الحل إما الطلاق أو التنازل عن حقها فاختارت التنازل لتبقى محفوظة ومشرفة فى عصمة الرسول .

وقد أثنى الله على الطريقة التى عالجت بها أمرها وأنزل قوله سبحانه :

﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾(٧) وليس حكم الآية خاصا بسودة فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، كما يقول الأصوليون . فإن الله تعالى يحث بهذه الآية النساء جميعا على الاسراع إلى الصلح عند النزاع ولو أسقطن فى ذلك بعض حقوقهن فى سبيل الإستقرار واطمئنان البيت إذا كان حل المشكلة أو تحقق الصلح متوقفاً على هذا التنازل . وقد ضرب الله لذلك سودة مثلا للتضحية فى سبيل الصلح لأن الصلح دائما خير وسيلة لحسم النزاع وحل المشكلات . وإذا كان سبب المشكلة هو الزوج فعليه أن يتنازل أيضا عن بعض حقوقه ، إذا اقتضى الأمر . وينبغى أن يتسابق

(٧) سورة النساء ١٢٨

كل من المتنازعين إلى الفضيلة والمسارعة إلى الصلح قبل الآخر ويبدى الاستعداد للتفاهم والعفو والصفح والتنازل عن حقوقه . فقد قال الرسول « **ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها**[٨] » .

وكما تنشب المشكلات بين الزوج والزوجة فقد تنشب أيضا بين الأخوة أو بين الأبناء وتحتاج المشكلة إلى وساطة وفى عملية الوساطة قد يتوقف حل المشكلة على التنازل والتضحية ببعض الحقوق أو كلها . فالفاصل فى مثل هذه المشكلات هو الذى يسرع إلى الصفح والعفو والتنازل عن حقوقه فى سبيل هناء البيت وسعادته . قال تعالى ﴿ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

وكما دعا الإسلام إلى الصلح كذلك دعا إلى إصلاح ذات البين إذا ما حدث نزاع بين طائفتين أو بين أسرتين أو بين الزوج والزوجة أو بين أخوين شقيقين أو مسلمين . قال تعالى: ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[٩]

سادساً الطلاق :

وإذا عجز الحكام عن حل مشكلة الزوجين وإصلاح ذات بينهما وازداد التنافر بينهما ونشبت العداوة والبغضاء بحيث حولت حياة البيت إلى أتون يتأجج بالبغض ويفور بالكراهية ولم تبق وسيلة لإزالة تلك الظلمات الحالكة القائمة من سماء البيت وإطفاء نيران البغضاء والعداوة . فى هذه الحالة يأتى مبدأ الطلاق كوسيلة لحل هذه المشكلة . وقد أجاز الإسلام الطلاق على كره منه لأنه تفريق

---

(٨) صحيح البخارى – باب ليس الواصل بالمكافىء جـ ٨

(٩) سورة الحجرات ، آية ٩ – ١٠

لا تأليف والإسلام ينزع دائما منزع التأليف لا التفريق ومن هنا قال الرسول : « **الطلاق أبغض الحلال إلى الله**[١٠] وبالرغم من أن ظاهرة الطلاق تفيد التفريق فان الإسلام جعله وسيلة للتأليف بقدر ما هو وسيلة للتفريق .

وعلى أى حال فإن الطلاق آخر وسيلة نهجتها الشريعة لإنهاء المشكلة بين الزوجين سواء بالتفريق أو بالتأليف . وهذا يتضح جليا إذا عرضنا نظام الطلاق فى الإسلام وطريقة إيقاعه . فقد جعل الإسلام الطلاق ثلاث فرصات وأحاط كل مرة منه بشروط وقيود . فلا يطلق الرجل زوجته إلا فى طهر لم يمسها فيه . وبعد ذلك لا تطلق – إذا وقع الطلاق – إلا إذا مضت عدتها ثلاثة أطهار أو حيض على الخلاف فى ذلك وفى كل دفعة أو طلقة لابد من مضى مثل هذه المدة إذا أراد أن يطلقها مرة ثانية أو ثالثة . وله حق إعادتها بعد كل طلقة إلا بعد الثالثة .

ويوصى الإسلام بالرجوع وإعادة الزوجة بعد الطلاق إلا إذا ارتكبت جريمة الزنا خاصة ، أوكانت هذه الجريمة سببا للطلاق . قال تعالى :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ﴾[١١] واستثناء مرتكبة جريمة الزنا عن العفو لعله يعتبر استثناء وحيدا عن الاتجاه الكلى للإسلام فى العفو عن المذنبين مهما كان ذنبهم ولعل ذلك لبشاعتها ولاسيما فى حق الزوجين ولأنها خيانة قد تخرب البيت وتشرد الأولاد وتخلط الأنساب وتنقل الأمراض .

والحكمة فى اشتراط إيقاع الطلاق فى طهر لم يمسها فيه هى أن تتطهر وتتنظف وتتزين بعد مدة الطمث التى لم يلتق بها فيها فان دواعى الشهوة فى هذه الحالة لا ترضى بفراقها دون قضاء وطره منها . بل تتشوق نفسه إليها وتميل إلى مضاجعتها وهذه الدواعى والميول تغريه بالتخلى عن عزمه والعفو عما صدر منها ، ولهذا أمر الإسلام أن يطلقن فى الطهر بعد العدة – إن كان مما لابد منه . فقال تعالى :

---

(١٠) التاج جـ ٢ كتاب النكاح باب الطلاق ص ٣٣٧

(١١) سورة الطلاق ١

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَ ﴾[١٢]

أما حكمة النهى عن الطلاق فى مدة الحيض فهى أنه إذا نظر إليها فى مدة الطمث وجدها منفرة لا يميل إليها فتزيد نفرته منها وبالتالى تتضاعف دواعى الفراق ، فيطلقها بدون مهلة وتفكير . والإسلام لا يريد ذلك لهذا حرم الطلاق فى هذه المدة وإذا طلقها فيها يجب عليه أن يرجع وقد أجبر النبى ﷺ ابن عمر حين طلق امرأته وهى حائض فقال لعمر مرة « **فليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض فتطهر ثم بعد ذلك إن بدا له أن يطلقها فليطلقها قبل أن يمسها**[١٣]

وأما حكمة جعله ثلاثا فهى منعه من أن ينفض الأمر كله دفعة واحدة وحتى لو طلقها ثلاثا بالقول الواحد فلا يقع إلا واحدا خلافا لأبى حنيفة والعمل اليوم فى المحاكم على الرأى الأول فى كثير من البلاد .

فالحكمة هنا اعطاء مهلة للتفكير وليعرف ما يترتب على فراقها من مضرة . ثم خص الطلقة الثالثة بشرط قاسىء وهو أنه لا يصح أن يعيدها بعدها إلا إذا تزوجت بآخر زواجا صحيحا ووطئها وطلقها بعد ذلك إن أراد وتمضى عدتها ثلاثة قروء ، فبعد ذلك يصح له أن يتزوجها بعقد ومهر جديدين وهذا أمر صعب على النفس فكيف يجعل زوجته يطؤها آخر ويتقبلها بعد أن يكون قد قضى وطره منها كما يشاء . ثم إنه من الذى يعرف أنه سوف يطلقها أو لا يطلقها لأنها أصبحت زوجته الحقيقية ؟ ولهذا تعتبر الطلقة الثالثة آخر اختبار للنيات وآخر إفزاع أو إرهاب إذ أنه آخر حبل يفلت من يده ولا يستطيع بعد ذلك إرجاعها وإمساكها . فإذ أقدم عليها بعد ذلك مع علمه بهذا الشرط فقد بان أنه قد عزم على فراقها وقطع حبالها ، وأنه لم تعد له حاجة إليها واستنفد جميع احتمالات الحياة معها .

والزواج رابطة مقدسة تقوم على المحبة والوئام فإذا انفصمت عراها وانقطعت

---

(١٢) سورة الطلاق ، آية ١

(١٣) التاج ٢/ ٣٤١ كتاب النكاح باب الطلاق

حبالها وزالت كل أمال الحياة فى ظلها فعسى الله أن يغنيهما ويجعل حياتهما بعد فراقهما خيرا مما كانا عليه من قبل قال تعالى :

﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾ (١٤)

وعلى الزوج إذا عزم على إبرام الطلاق والفراق أن يسرحها بإحسان من غير ظلم وإيذاء لذا قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ (١٥) وقال أيضا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ (١٦)

وبعد ، فقد علمنا مما سبق ضرورة الطلاق كوسيلة لإنهاء بعض المشكلات حين يتأكد ألاّ وسيلة لها غيره . وبالرغم من ضرورته فإنا نسمع من هنا وهناك دعوة لمنع الطلاق إلا إذا أرادت ذلك الزوجة أو وافقت عليه أو اثبت عليها زوجها الخيانة الزوجية وقد طبق ذلك فى بعض المجتمعات الاسلامية بتحد صارخ لشريعة الاسلام ، وأغلب الظن أنهم فى تلك الدعوة وتطبيقها يقتدون ويتأسون بنظام الطلاق فى القوانين الأوربية .

ولننظر إلى الدعوة وتطبيقها نظرة موضوعية . هل نجح نظام الطلاق عند هؤلاء الأوربيين حتى ينجح فى بلادنا وماذا يقولون فى امرأة ناشز خائنة تصاحب الرجال سرا ولا يستطيع الزوج الإتيان بالشهود على ذلك ولكنه يتحقق من الأمر بنفسه ؟

فالقانون الأوروبى لا يسمح فى هذه الحالة بالطلاق مادامت المرأة لا تريد أو غير موافقة عليه ولو طلقها بنفسه . فكيف يطيق هذا الزوج الحياة معها فى هذه الحالة وإذا طردها من بيته فلها حق رفع الدعوة وطلب النفقة ؟ فهذه الخائنة لها الحق أن تأخذ النفقة وتسكن حيث تشاء رغم أنف الزوج . ؟ فمن يرضى فى هذه الحالة أن

(١٤) سورة النساء ، آية ١٣٠

(١٥) سورة الأحزاب ، آية ٢٨

(١٦) سورة الأحزاب ، آية ٤٩

يبقى معها أو ينفق عليها لتمارس حياتها هذه ؟ ولنفرض أن القانون أجبره على معاشرتها بحكم أنه لا يعتبر هذا الطلاق ، فكيف يستطيع الزوج بصفته مسلما أن يجمع بين ما ينص عليه حكم الإسلام وبين ما يحكم به هذا القانون ؟

ولنفرض حالة أخرى مما يتوقع أن يحدث بين كل يوم وليله : إذا نشزت الزوجة وأصبحت لا تراعي الحقوق والواجبات ولا تقابل زوجها إلا عابسة الوجه كالحة المنظر وأصبح الزوج يكرهها وينفر منها ونتيجة لذلك سادت روح العقد والكراهية البيت وملأت أرجاءه بعواصف وزوابع وظللت سماءه بسحابة سوداء تعكر الصفو وتنذر بالقطيعة والتفرقة وقلبت آية المحبة والرحمة إلى بغض ونفور حتى بلغت القلوب الحناجر تكاد تنفجر من الغيظ . فالقانون الغربى لا يبيح حتى فى هذه الحالة الطلاق مادامت الزوجة لا تريد ذلك . ولا غرابة فى عدم موافقتها على الطلاق حتى فى هذه الحالة لأنها تستطيع أن تأخذ النفقة وتعيش بعيدا عن البيت كيفما تشاء .

ويبدو أن واضع هذا القانون راعى مصلحة المرأة فقط دون مراعاة الرجل ومصلحته إطلاقا . وهذا ليس بعدالة ولا يعتبر قانونا عادلا . كما لا يعتبر قانونا اجتماعيا صالحا لأنه لا يراعى الحالات الاجتماعية القاسية التى يحتمل أن تحدث .

حقا إن هناك استخداما سيئا لقانون الطلاق فى الإسلام إذ يستخدمه كثير من الرجال لصالحهم دون مراعاة لمصلحة المرأة إلا أن هذا الخطأ فى الاستخدام لا فى القانون نفسه فى الرجال لا فى الإسلام ، ولا شك أن هذا الاستخدام ناشئ عن عدم تطبيق الإسلام ، ولهذا فعلينا أن ندعو إلى تطبيق الإسلام بدلا من أن ندعو إلى تغيير القوانين أو الأحكام التشريعية الصالحة . فالإسلام لا يطبق القوانين سليماً إذا لم يطبقه المسلمون فى أنفسهم فى السر والعلن كمبادئ دينية أولا وقبل كل شئ ، كما أنه لا يصلح تطبيقه إذا طبقت بعض مبادئه فى بعض التنظيمات الاجتماعية وتركت بعض مبادئه الأخرى . إن الإسلام نظام متكامل متناسق إما أن يطبق كله كمبادئ قانونية ودينية معا أو لا يطبق وإلا فسيؤدى ذلك إلى سوء استخدام مبادئه وبالتالى سيؤدى إلى تشويه روحه فى أذهان الناس

بعدم صلاحيته للتطبيق فى الحياة الاجتماعية فى أنظار الناس ، ومهما يكن من أمر فإن نظام الطلاق كما يطبق حتى ولو أسئ استعماله فلا نستغنى عنه لأنه مسألة دينية من ناحية ولأنه أصلح من هذه النظم والقوانين الغربية من ناحية أخرى ، وما علينا إلا علاج الثغرات الناجمة عن ضعف الوازع الدينى لدى بعض الأزواج وأخذ التدابير اللازمة للزواج والطلاق بنشر الوعى الدينى والوازع الربانى لدى الأزواج وبيان حكمة الإسلام فى تلك المبادئ المنظمة للعلاقات الزوجية .

سابعاً تفريق القاضى :

قد يتهم الزوج زوجته بارتكاب الفاحشة أو تتهم الزوجة زوجها بذلك ولا يوجد لأحد منهما دليل على دعواه وقد يكون صادقا فى دعواه إلا أنه لا يوجد لديه شهود لتصديق ما يدعى . فى هذه الحالة تنشأ مشكلة ونزاع بين الزوجين فكيف نحل هذه المشكلة من وجهة النظر الإسلامية ؟

حل الإسلام هذه المشكلة كالآتى : يطالب الزوج إن كان صاحب الدعوى أن يشهد أربع مرات بالله إنه من الصادقين ويشهد خامسا أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ثم تحلف زوجته أربع مرات بالله إنه لمن الكاذبين وتقول فى الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ⑥ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ⑦ وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ⑧ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (١٧) .

وبعد ذلك يفرق القاضى بينهما إجباراً عقوبة لهما حتى يقر المذنب فيرجم أو يكذب المدعى نفسه فيجلد ثمانين جلدة . هذه حالة واحدة من حالات التفريق

---

(١٧) سورة النور ٦ - ٩

وهو قد يعتبر طلاقاً وقد لا يعتبر وهذا ما جعلني اعتبره وسيلة مستقلة عنه لحل مشكلات البيت .

ثامناً – تعدد الزوجات :

هناك مشكلات من نوع خاص لا يمكن حلها إلا عن طريق تعدد الزوجات . منها المشكلات الناجمة عن بعض الحالات المرضية مثل مرض الزوجة بأحد الأمراض المعدية المستعصية أو المخلة بالحياة الزوجية .

فماذا يفعل الزوج فى هذه الحالة هل يبقى محروما طول حياته والحرمان بعد الزواج – كما يقولون – أشد على النفس من الحرمان قبل الزواج ؟ وهل يطلق زوجته المريضة ويفارقها ويطردها من البيت ليتزوج بأخرى ؟ وكيف يشردها وهى فى هذه الحالة وأين تذهب وأين تجد المأوى ؟ وأى دين وأى ضمير إنسانى يرضى أن يقدم على هذه الفعلة الشنيعة وأى ظلم يكون أشد من هذا الظلم ؟ تعذيب المريضة على فراشها وهى فى أضعف وأعجز حالاتها ولكن ما ذنب الزوج ؟ وما ذنب الزوجة كذلك ؟ أليس من الأفضل فى هذه الحالة أن نبيح للزوج تعدد الزوجات وتبقى الزوجة المريضة فى عصمته آمنة فى فراشها وفى عشها ؟ وهل هناك وسيلة أخرى غير التعدد فى هذه الحالة لإنقاذ الطرفين من المشكلة ؟

ومنها المشكلة الناتجة عن عقم الزوجة : فقد يتزوج الرجل بامرأة عقيم . وهو يود أن يكون له ولد من فلذة كبده ليرى صورة نفسه فيه ويخلد اسمه به وليرثه من بعده وليتمتع بزينته وبهجته؟وصدق الله العظيم إذ قال﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾(١٨) فإذا منعناه فى هذه الحالة من الزواج باخرى فإنه سوف يشعر دائما بالحرمان من هذه المتعة ومن هذه النعمة ، نعمة الذرية وهو كلما يرى صبيان أقرانه فى مداعبتهم إياهم وعطفهم عليهم وحبهم لهم . . . يحترق قلبه من الحرمان ويتملكه الحسد واليأس وهما مرضان فى قلبه يلازمانه ويتابعانه فى حياته باستمرار .

---

(١٨) سورة الكهف آية ٤٦

هذه مشكلة كيف نحلها ؟ هل نقول له طلق زوجتك وتزوج بأخرى ؟ وما ذنب الزوجة فى هذه الحالة حتى نشردها من عشها وأين تذهب ؟ ولكن ما ذنب الزوج أيضا حتى نحرمه من نعمة الولد ؟ أليس من الخير فى هذه الحالة أن تبقى الزوجة فى بيتها آمنة مطمئنة وأن نبيح للزوج التعدد لينال ما يتمنى ؟ وهل هناك مخرج آخر وطريق أعدل من هذا الطريق للتخلص من هذه المشكلة ؟

ومنها مشكلة ناشئة عن بعض الظروف والحالات الاجتماعية غير العادية . مثل نقص عدد الرجال وزيادة عدد النساء وذلك نتيجة للحرب أو لأمر آخر كما حدث مثل ذلك فى ألمانيا نتيجة الحرب العالمية . . . ففى هذه الحالة لو تزوج كل رجل بواحدة فماذا تفعل الباقيات ؟ فلا بد من أن يقدمن على الفاحشة إن عاجلا أو آجلا بإرادتهن أو تحت سلطان الشهوة .

وإذا كان بعض النساء يستطعن البقاء ، عفيفاً تحت سيطرة الروح الدينية وسلطان الحاسة الأدبية والخلقية فاين هذه الروح وهل هى سائدة فى المجتمع كله ؟ ولو أنا فرضنا أنهن استطعن أن يبقين عفيفات فأى الأمرين أحسن لهن ؟ وأى الحياتين أفضل ؟ حياة العزوبة أم الحياة الزوجية مثنى أو ثلاث تحت عصمة رجل واحد ؟ لا شك أن العقل العلمى والوعى الصحى والاجتماعى يحكمان أن الحياة الزوجية فى صورة التعدد أفضل من الحياة العانسة أو حياة العزوبة . وقد ذكرنا من أضرار حياة العزوبة على الإنسان من الناحية النفسية والعضوية والاجتماعية كذلك هذه النظرة كانت على أساس أفضل الفروض ، ولننظر الآن إلى القضية على أساس أسوأ الفروض أيضا ، ولنفرض أن العفة والحشمة وروح التدين والإحساس الخلقى والأدبى قد زالت من الحياة الاجتماعية فماذا يكون مصير المجتمع فى هذه الحالة ؟ لا شك أن المجتمع يمتلئ بالفساد الذى ينتشر فى البيوت وخارج البيوت . فالرجال يسعون إلى النساء المغريات هنا وهناك والنساء يغرين الرجال فى البيوت وخارج البيوت وبذلك تفسد الحياة المنزلية والحياة الاجتماعية وربما ينصرف الرجال عن أزواجهم إلى غيرهن وبذلك تفسد العلاقات الزوجية أيضا وتنتشر الأمراض السرية وتصبح الحياة الاجتماعية نتنة لا تطاق وتولد أولاد غير شرعيين ، ويصبحوا عالة على الدولة وعلى المجتمع ثم يصبحون نقمة عبر المجتمع بأسره .

إذن فما هى الوسيلة للخروج من هذه المشكلة ؟ لا شك إننا لا نجد وسيلة احسن وأفضل من تعدد الزوجات . . .

ومنها مشكلة تنشأ نتيجة زواج الرجل بامرأة باردة أو ضعيفة لا تشفى غليل صدره ولا تسكن شهوة ونتيجة لذلك تدفعه شهوته إلى قضاء وطره فى أخرى بأية وسيلة كانت وبأية طريقة تيسرت له . وبسببه تستولى عليه الأفكار السيئة ويقع فى صراع نفسى بين الإقدام على ارتكاب جريمة من أكبر الجرائم فى نظر الإسلام وبين العزوف ودافع العفة والأخلاق ، فما ذنب هذا الإنسان أن يعيش تحت وطأة الصراع النفسى وما ذنب تلك المرأة المسكينة التى لم تكن سببا فى عيبها بل خلقته فيها الوراثة أو التربية فهل نسمح له بطلاقها ؟ وأى جريرة ارتكبت حتى تستحق التشريد والحرمان من عشها ومسكنها الآمن ؟ .

إذن خير طريق للتخلص من هذه المشكلة أن تسمح للرجل بتعدد الزوجات وأن تبقى زوجته القديمة فى عصمته من أجل كل هذه المشكلات الواقعية وضع الإسلام مبدأ تعدد الزوجات . فقال تعالى: ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾[19] ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾[20] .

إلا أن جواز التعدد فى الإسلام ليس على إطلاقه بل إنه مشروط بشرط قاس كما يفهم من هذه الآية – وهو شرط العدالة إذ أنه ليس من السهل تحقيقه بل يكاد لا يوجد هناك من يستطيع تحقيق هذا الشرط . شرط العدالة بين الأزواج العدالة فى القسامة وفى النفقة وفى سائر المعاملات ، ولهذا قال تعالى:

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾

بالإضافة إلى اشتراط العدالة فهناك شرط آخر وهو القدرة على القيام بأعباء الزواج المتنوعة أى أن يملك أداء كل ما تحتاج إليه الزوجات من النفقة والمعاشرة كما بيناه فى الفصل السابق .

---

(١٩) سورة النساء آية : ٣ (٢٠) سورة النساء آية ١٢٩

إذن هناك شرطان لجواز التعدد . . . شرط العدالة . . وشرط الكفاية .

وقد عرفنا أن هناك أهدافا للزواج لابد من مراعاتها عند الزواج وبعده . . . فإذا تحققت جميع هذه الشروط والمطالب ، فلماذا نمنع التعدد طالما أنه يتحقق فيه ما يتحقق فى الزواج بواحدة ؟ فإذا أبحنا هذا الأخير لأسباب ينبغى أن نبيح الأول أيضا لنفس الأسباب وإذا منعنا الأول ينبغى أن نمنع الأخير أيضا لأن الأحكام تبنى على الأسباب وجوداً وعدما أو بعبارة بعض الأصوليين الحكم يدور مع العلة وجودا وعدما .

ثم إن تعدد الزوجات ليس من أجل الرجل دائما – كما اتضح لنا من الأسباب التى جعلت الإسلام يبيح التعدد وإن كانت بعض النساء قد فهمت الأمر على هذا النحو الخاص وكما فهمه كثير من رجال الفكر فى القانون فى الغرب بل هو أحيانا من أجل المرأة وأحيانا أخرى من أجل الرجل .

وإذا كان التعدد يعتبر فى هذه الحالة الأخيرة شرا بالنسبة للمرأة إلا أنه على أى حال أهون الشرين ، والسبب فى هذا الشر هو المرأة أو ظروف المرأة معها وليست هناك وسيلة أخرى أفضل أو أخف شرا من هذه الوسيلة ، لأننا إذا لم نجد لحل مشكلة وسائل أخرى لا تخلو من شر فإننا نختار أهونها شرا وهذا الحل الأخير يعتبر أفضل وسيلة متاحة . والأفضلية كما أشرنا من قبل تكون أحيانا نسبية .

وإذا كانت المرأة سببا لوقوع الشر على نفسها بقصد أو بغير قصد فإنها أولى أن تتحمل هذا الشر وتتحمل النتيجة المتولدة عن العذر الناشئ فيها .

ثم لننظر إلى هؤلاء الذين حاربوا التعدد كيف وقفوا أمام تلك المشكلات الفردية والاجتماعية ؟ وكيف وضعوا القوانين لحلها أو لمواجهتها ؟

أنهم قالوا إن التعدد جريمة فى حق المرأة وبناء على ذلك وضعوا القانون الذى بموجبه لا يصح للرجل أن يتزوج أكثر من واحدة . ولكنهم عندما واجهوا تلك المشكلات التى ذكرناها أباحوا أن يتخذ الرجل خليلة ، ولم يقيدوها بأى شرط

من شروط العدالة أو النفقة أو القسمة أو غير ذلك من الحقوق الزوجية . فللرجل أن يتخذ من الخليلات ما شاء من غير قيد أو شرط .

فلو أننا دققنا النظر فى هذا القانون لوجدنا أنه قانون التعدد ، والتعدد هنا ليس كالتعدد فى الإسلام إذ التعدد فى الإسلام مقيد بأربعة من حيث عدد الزوجات وبشروط وقيود دقيقة ، كما بيناها . أما التعدد هنا فهو غير محدد إطلاقا فيمكن للرجل أن يخادن أكثر من مائة امرأة مثلا .

إذن هؤلاء قد ناقضوا أنفسهم من حيث لا يشعرون ، لأن الإسلام إذا كان قد أباح أربعة بشريعة مرعية وحقوق مقررة فإنهم أباحوا أكثر من أربعة من غير شريعة ولا حقوق ولا مسئولية .

وإذا كان الزواج فى هذه الصورة بأربعة ظلما للمرأة فى نظرهم فان إباحة أكثر من أربعة بتلك الصورة أدهى وأمر وأكثر شرا وظلما للمرأة . وليس الظلم هنا قاصرا على المرأة فحسب بل المجتمع كله لأنه يكون سببا لانتشار الأمراض بين أفراد المجتمع وخاصة الأمراض السرية التى ذكرناها ، وكذلك يكون سببا لمجئ الأولاد غير شرعيين .

زد على هذا أن المرأة فى حالة التعدد فى الإسلام مصونة محتفظة بجميع حقوقها الزوجية والأمر بخلاف ذلك فى ظل تلك القوانين .

إذن فالمرأة فى الإسلام فى حالة التعدد زوجة مع الحقوق الزوجية الكاملة أما هناك فهى زوجة من غير حقوق . أو بعبارة أخرى هنا الزيجات محدودة بحقوق زوجية كاملة . وهناك الزيجات غير محدودة ومن غير حقوق زوجية إطلاقا . أيهما أكثر عدلاً للمرأة وأيهما أشد ظلماً لها أو خاصة إذا أخذنا فى الاعتبار إباحة تلك القوانين فتح بيوت الدعارة ، وتيسيرها سبل الزنا مادام يتم برضى الطرفين مما جعلت الشباب يستغنون عن الزواج ، ونتيجة لذلك ظهرت مشكلة ازدياد عدد العانسات

وبالرغم من هذا كله اتهم رجال الغرب الإسلام بالظلم للمرأة ووصفوا قوانينهم وموقفهم بالنسبة للمرأة بالعدل . والحقيقة أنهم خلطوا مفهوم العدل

بالظلم والظلم بالعدل . أو بعبارة أخرى أنهم غيروا ميزان العدل والظلم وعكسوا القضية فجعلوا ، الظلم عدلا والعدل ظلما . ألا ساء ما يفعلون ، وساء ما يحكمون ، ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ﴾ (٢١)

ولا يحزننا موقف أولئك وقوانينهم بقدر ما يؤلمنا موقف البعض من رجال القانون فى بعض الشعوب الإسلامية الذين ألغوا قوانين الأحوال الشخصية الإسلامية فى بلادهم وجاءوا بقوانين أولئك بحذافيرها دون مراعاة لشعور شعوبهم ودون أى اعتبار لمبادئ دينهم . فاذا كان أولئك لم يروا الحق لأنهم بعيدون عن نور الإسلام ، أفعمى هؤلاء وذهبت أبصارهم وأسماعهم حتى لم يروا هذه الحقائق ولم يسمعوا بها وهى بين أيديهم وأظهرهم وهم فى نور الإسلام وتحت ظلاله .

إن عيب هؤلاء أبشع وأقبح من عيوب أولئك لأنهم يفهمون دينهم عن طريق فهم أولئك وينخدعون بطنطنة دعاياتهم . إذا كان أولئك قد أخطأوا بعد الاجتهاد وبسبب بعدهم عن موطن الحق فإن هؤلاء يأخذون ما يقوله غيرهم بدون أعمال فكر ولا روية ويدون أن ينظروا إلى موطن الحق الذى هو بين أيديهم وأعينهم .

تاسعاً – وسيلة حل مشكلة تنظيم النسل .

هذه المشكلة ليست مشكلة جديدة بل هى قديمة لكنها أخذت شكلا آخر فى العصر الحديث فإذ كانت مشكلة فردية قديما فأصبحت مشكلة اجتماعية اليوم ، وحصل تغيير كذلك فى وسائل تحديد النسل ودوافعه وأهدافه ومن ثم أصبحت مشكلة تحديد النسل صورة تختلف عن صورتها الأولى فى كثير من خصائصها وأوضاعها . ومهما يكن من أمر فان هذه المشكلة مشكلة البيت أو الأسرة فى الدرجة الأولى .

---

(٢١) سورة البقرة ، آية ١١ – ١٢

ولكى نبدى رأى الإسلام فى هذه المشكلة يجب أن نأخذ فى الاعتبار الأمور الآتية : الأمر الأول أن الإسلام يضع نظامه على الأساس الواقعى (قوانين الحياة والطبيعة) وعلى الأسس الأخلاقية ثم الأسس الاعتقادية ، وهذه المشكلة تتعلق بالأساسين الأولين ولهذا يمكن أن نعالجها فى ضوء هذين الأساسين ومراعاة الأساس الأول تتم عن طريق اتخاذ قواعد السلوك وفقا للقوانين « الأساسية للحياة البشرية » ولقد حصر الدكتور الكسيس كارل (الذى نال جائزة نوبل الدولية) هذه القوانين فى ثلاثة قوانين أساسية عامة وهى قانون المحافظة على الحياة وقانون تكاثر النوع ، وأخيرا قانون الارتقاء العقلى والروحى .

ويدخل فى القانون الأول ، أن كل سلوك من شأنه أن يحافظ على الحياة وينميها « حياة المرء لنفسه أو لغيره يعد سلوكا أخلاقيا » وكل سلوك من شأنه أن يضاد الحياة أو يعوقها بصورة من الصور يعد سلوكا غير أخلاقى فى نظر الإسلام . ومن ثم حرم أخلاقياً القتل واستغلال الناس للمصالح الشخصية وإعاقة أعمال الناس سواء أكان من الناحية الإدارية أو من الناحية النفسية ، ولذلك حرمت أيضا التهديدات وإخافة الناس . وحرم التحاسد والتدابر والتباغض وما إلى ذلك من الأمور الذميمة ، لأن كل ذلك يعوق الحياة من الناحية العملية والنفسية ومن ثم أوجب الإسلام احترام حقوق الناس الطبيعية فى الحياة مثل المحافظة على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وإحساساتهم الأدبية ، وحض على الأعمال التى تنشط الحياة وتنميها مثل السعى لخير الناس وبث المحبة والمودة والسرور والبهجة فى نفوسهم .

وفيما يتعلق بالقانون الثانى يعتبر السلوك الذى يؤدى إلى إبقاء النوع وتحسينه سلوكا أخلاقيا واقعيا ومن هنا شرع الزواج وكرهت الرهبنة ، لذا قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾[1] وروى أنه لما استأذن عثمان بن مظعون للرهبنة فلم يسمح له بذلك ثم نهى عن الرهبانية «[2] كما استحسن اختيار

(١) سورة الحديد ٢٧

(٢) سنن الترمذى ٢/ ٢٧٣ . باب النكاح ، فتح البارى بشرح البخارى ٢/ ٢٧٤

الزوجة من السلالة السليمة عقلا وجسما وذلك لتحسين النسل ، وقد ذكرنا فى ذلك نصوصا وشرحا وافيا فى الفصل الأول .

ثم إن الإسلام حرم كل سلوك من شأنه أن يعوق استمرار التناسل لأنه يعد منعا لاستمرار النوع ولهذا منع الإجهاض وعده جريمة سواء كان من قبل الأم أو من قبل الأب أو من قبل غيرهما ، وقد قال الفقهاء إن على المجهض أن يدفع دية الغرة[٣] ومنع أيضا الإخصاء لأنه يعد عائقا دائما أمام استمرار النوع والدليل على ذلك ما روى عن بعض الصحابة . قالوا : «**كنا نغزو مع رسول الله وليس لنا شئ ، فقلنا ألا نستخص فنهانا عن ذلك ثم رخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب**[٤] » ثم قرأ علينا قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾[٥] ونفهم من ذلك أن الإسلام يعد الخروج على القوانين الطبيعية والأخلاقية خروجا عن جادة الحياة المستقيمة .

أما الحد من كثرة التناسل بطريقة من الطرق دون الإسقاط والإجهاض فأمر وردت فيه نصوص متعددة مما يجعلنا لا نستطيع البت فيه من هذه الجهة بتحريمه بصفة عامة لكل فرد وفى جميع الظروف والأحوال. لكن نستطيع معالجته عن طريق دراسته فى ضوء قوانين الحياة من حيث مخالفته أو موافقته لها والنتائج التى تترتب على ذلك من مضرة أو منفعة .

ونستطيع أن نحكم عليه من وجهة نظر الأخلاق الإسلامية بناء على دوافع هذا السلوك وأهدافه وبناء على ما يترتب على فعله من مصلحة أو مضرة على الأفراد أو المجتمع إن عاجلا أو آجلاً .

وإذا بحثنا عن دوافعه وأهدافه وجدنا أنها تكاد تنحصر فى أحد الأمور الآتية : **الأمر الأول** : التخلص من الضائقة الاقتصادية أو الخشية من ضيق الرزق .

---

(٣) المغنى لابن قدامة ٨/ ٣٨٩ – ٤٠٥ (٤) صحيح البخارى ١١/ ١٩ – ٢٠

(٥) سورة المائدة ٨٧

والأمر الثانى : تجنب الضرر الذى قد يلحق بالأولاد أو بأحد الأبوين أو كليهما أيا كان لون هذا الضرر . **والأمر الثالث** : المحافظة على جمال المرأة وحسن التمتع بها .

بأحد هذه الأمور أو بأجمعها يتذرع المتحمسون لتحديد النسل ولننظر مدى صدق هذه الدعاوى ، وهل ما يترتب عليه هو هذه الغاية المرجوة وهل ذلك هو الوسيلة الوحيدة أو أحسنها للوصول إلى تلك الغاية أو الغايات . ولنبدأ بالأمر الأول : الذى هو الدافع الأساسى الذى تتذرع به تلك الدعوات على مستوى المجتمعات إذ يقولون إن تجاوز نسبة المواليد نسبة الإنتاج الصناعى والغذائى أمر يدعو إلى الخطر فى المستقبل وهو أساس المشكلة الاقتصادية التى تعانى منها المجتمعات الفقيرة المتخلفة من الناحية الاقتصادية . وهذا الادعاء صحيح فعلاً وواقعا ، ويمكن حل هذه المشكلة عن طريق تحديد النسل ولكن هذا الحل سلبى وليس إيجابيا والحل السلبى ليس حلا أخلاقيا إذ أنه يوحى بالضعف والعجز ويثير فى النفس الخمول والكسل أو أن مثل هذا الحل يتولد من هذه الأسباب أو الإيحاءات السلبية ومثل هذا الحل تترتب عليه غالبا نتائج سلبية تتولد عنها مشكلات أكثر تعقيدا من المشكلة نفسها . ومن الأمثلة لذلك أن بعض الدول الأوربية عندما قامت بحملة ضد كثرة السكان ونشرت وسائل تحديد النسل بعد مدة رأت قلة نسبة المواليد عن نسبة الوفيات وترتب على ذلك قلة الأيدى العاملة وكثرة نسبة العجزة كما أدى الأمر أخيرا إلى قلة عدد السكان عما كان عليه عند قيام الدعوة لأن تحديد كمية العدد المناسب عن طريق تحديد النسل أمر يكاد يكون مستحيلا الأمر الذى دعاها إلى القيام بحملات ضد تحديد النسل ودعوة المواطنين إلى إنجاب ذرية أكثر ووعدت تلك الدولة بمكافآت لأمهات ينجبن أولادا أكثر مما أعفت الأسر الكبيرة عن بعض الضرائب كما أعفت وأعطت لها بعض الامتيازات وبالرغم من ذلك فإن بعض هذه الدول لا تزال تعانى من نقص السكان وتستدعى الأيدى العاملة من الدول الأخرى مثل ألمانيا وفرنسا ولهذا جاء فى إحدى الجرائد الألمانية الناطقة باسم الحكومة « إن نسبة المواليد فى وطننا إذا ظلت تهبط هكذا فعسى أن يأتى علينا يوم يكون فيه الشعب الألمانى شعبا عقيما .

ولإصلاح هذا الوضع المخيف أصدرت الحكومة النازية قانونا بمنع تعميم منع الحمل وترويج طرقه[٦] . وقال أحد وزراء السويد فى المجلس النيابى « إن الشعب السويدى إذا كان لا يريد لنفسه الانتحار فعليه أن يتخذ التدابير المؤثرة لمقاومة انخفاض نسبة المواليد فى وطنه وفى إيطاليا جاء تصريح باسم الحكومة « أن حكومة موسيلينى بذلت جهد اهتمامها لزيادة السكان برفع نسبة المواليد فى بلادها بعد سنة ١٩٣٣ وهى لهذا الغرض نهت عن ترويج منع الحمل وأصدرت قانونا يحظر نشر الكتب والوسائل والمقالات عن معلوماته ووسائله وهى لترغيب الناس فى الزواج والتناسل اتخذت الخطوات اللازمة[٧] . وهناك تصريحات كثيرة من هذا القبيل فى كثير من الدول التى أدت فيها حركة تحديد النسل إلى انخفاض السكان بدرجة خطيرة .

ثم إن قلة السكان ليست وسيلة الرفاهية دائما من وجهة النظر العلمية ؛ ذلك أننا وجدنا هناك دولة مثل اليابان بالرغم من التضخم السكانى وبالرغم من قلة الموارد الطبيعية والمساحة الأرضية بالنسبة لسكانها بالرغم من هذا كله تتوفر فيها الإمكانيات الاقتصادية لأنها تعمل بالأساليب العلمية فى مختلف المجالات وعلى العكس من ذلك تماما نجد هناك دولا كالسودان مثلا بالرغم من توفر الإمكانيات الطبيعية وقلة سكانها يسود فيها التخلف الاقتصادى والفقر والتأخر لأنها لا تتخذ العلم وسيلة للتقدم الاقتصادى فالعلم يخرج الحب من الحجر ويضاعف الإنتاج أضعافا مضاعفة . هذا رأى العلم والواقع فى هذه النقطة .

ولننظر إلى رأى الإسلام . إن فكرة تحديد النسل ليست فكرة جديدة بل كانت موجودة إبان ظهور الإسلام فقد كان العرب أو بعض الأفراد يقوم بتحديد النسل » وذلك باحدى وسيلتين : الأولى : قتل الأولاد أو وأدهم عما هو معروف عندهم ، وثانيتهما بالعزل . وقد أنكر الإسلام الوسيلة الأولى إنكارا قاطعا وندد بالفاعلين وأوعدهم بالعقاب الأليم فقال تعالى :

(٦) حركة تحديد النسل ص ٥٦ – ٥٧ .

(٧) حركة تحديد النسل ص ٥٦ – ٥٧ . أبو الأعلى المودودى .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾[8] وقال : ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾[9]

هكذا كان يرتكب هؤلاء الجاهليون بقتل أولادهم خوفا من الفقر من غير علم بأسباب الرزق وكانوا يظنون أن تقليل العدد هو سبب الرخاء يزين ذلك لهم شيطانهم ويقولون : إن الأرض سوف تضيق من كثرة السكان فى المستقبل ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾[10] ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾[11] ذلك عين الحرام فى رأى الإسلام .

قال تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾[12]

أما موقف الإسلام من الوسيلة الثانية التى كانوا يتخذونها لتحديد النسل وهى العزل فقد سألوا الرسول عن حكم العزل وكان الرسول يفتى فى ذلك بناء على الأسباب التى كان يتعلل بها كل سائل : جاءه رجل يوما يسأله ويقول « إن لى جارية وأنا أطوف عليها وأنا أكره أن تحمل : فقال أعزل عنها إن شئت فإنه سيأتيها ما قدر لها[13] » . وقال آخرون يوما : « أصبنا سبيا فكنا نعزل فسألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : أو أنكم تفعلون ؟ قالها ثلاثا ، ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا هى كائنة[14] » . وسئل فى مناسبة أخرى عنه

---

(٨) الاسراء ٣١ . (٩) الانعام ١٤٠

(١٠) البقرة ٢٦٨ . (١١) الأنعام ١٣٧ . (١٢) الأنعام ١٥١ .

(١٣) فتح البارى بشرح البخارى جـ ١١ ص ٢١٨ (كتاب النكاح) .

(١٤) المرجع السابق جـ ١١ كتاب النكاح ص ٢١٨

فقال : « ذلك الوأد الخفى[١٥] » وجاء فى رواية أن الرسول قال ذلك موافقة على رأى اليهود وكان لا يكذب أهل الكتاب بما يقولون إلا إذا نزل عليه وحى يخالف ذلك وفى هذا الصدد قال فى حديث آخر عندما جاءه جماعة من الصحابة وسألوه عن مدى صدق اليهود فى قولهم فى العزل إن تلك هى الموؤدة الصغرى فقال الرسول كذبت اليهود لو أراد الله خلقه لم تستطع رده[١٦] .

وسبب تكذيب اليهود كما يقول ابن القيم أن العزل لا يتصور فيه الحمل أصلا وهم جعلوه بمنزلة قطع النسل بالوأد فأكذبهم وأخبر أنه لا يمنع الحمل إذا شاء الله خلقه[١٧] » لكن هذا التكذيب منصب فى عد العزل وأدا وكيف يعد وأدا ولم يخلق شئ فى الرحم ، وسئل ابن عباس عن العزل فقال ذلك الوأد الأصغر فلما سمع ذلك على أنكره عليه وقال لا يكون الوأد الأصغر إلا بعد الطور السابع فى الخلق فى الرحم[١٨] إذن يمكن أن يقال على الإجهاض الوأد الأصغر . لكن لا ينبغى أن يفهم من عدم عد الرسول ذلك الوأد الأصغر أو الخفى أنه يدعو إلى ذلك بل الأمر على عكس ذلك فإنه يفهم من النصوص الواردة أفضلية ترك العزل كما جاء فى نص آخر حين سئل النبى فقال : « لا عليكم ألا تفعلوا ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا وهى كائنة[١٩] . وهنا يرى الغزالى أن النصوص الواردة أفادت النهى فهى على سبيل التنزيه لا على التحريم وليس فى فعله حرام وإن كان فى تركه فضيلة[٢٠] . وهو يقسم بوجه عام عمل العزل بحسب باعثه إلى خمسة أقسام : **الأول** : بقصد استبقاء الملك بترك العتاق ، **الثانية** : استبقاء جمال المرأة لدوام التمتع ، **الثالثة** : الخوف من كثرة الحرج مع كثرة العيال والاحتراز من الحاجة إلى مزيد من التعب والجهد لأن قلة الحرج معين على الدين ، وإذا كان الكمال فى التوكل والثقة بضمان الله بناء على قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي

(١٥) المرجع السابق جـ ١١ كتاب النكاح ص ٢٢٠ .
(١٦) المرجع السابق جـ ١١ كتاب النكاح ص ٢٢٠ .
(١٧) المرجع السابق جـ ١١ كتاب النكاح ص ٢٢١ .
(١٨) إحياء علوم الدين جـ ٢ – كتاب النكاح ص ٥٢ .
(١٩) تيسير الوصول إلى جامع الأصول من أحاديث الرسول ٤/ ٣٤٢ .
(٢٠) احياء علوم الدين جـ ٢ باب النكاح ص ٥٣ .

﴿ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ فإنه لا جرم من السقوط عن ذروة الكمال وترك الأفضل لمن لم يقدر عليه. **الرابعة**: الخوف من الأولاد والإناث لما يعتقد فى تزويجهن من المعرة. **الخامسة**: أن تمتنع المرأة عن الولادة لتقززها وترفعها منها.

ويرى الغزالى أن العزل لهذين السببين الأخيرين مخالفة للسنة ونية فاسدة لا تتفق مع الإسلام بينما لا يرى الحرمة فى ذلك للأسباب الثلاثة الأولى[٢١].

لكن لا نعدم هناك آراء أخرى فى هذا الموضوع بعضها يحرم إطلاقا وبعضها الآخر يجيزه إطلاقا وبعضها يحله إذا رضيت المرأة ويحرمه إذا لم ترض[٢٢].

على أى حال هذه الآراء آراء العلماء وسوف نقدم رأينا بوجه عام بعد معالجة الأمور التى ذكرناها سابقا.

والآن بقيت نقطة أخرى فى الدافع الاقتصادى فى تحديد النسل وهى أن الإسلام يراعى مدى أهمية الاقتصاد فى تكوين الأسرة ولذلك نراه يدعو إلى تكوين الأسرة لمن يملك الإمكانيات لذلك لأن توفير الإمكانيات المالية له دوره فى حياة الأطفال ولذلك لا يدعو الإسلام إلى الزواج مبدئيا لمن لا يملك هذه الإمكانيات فقال الرسول « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لا يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء[٢٣]. فعلى المقدم على الزواج أن يعلم أن هناك تكاليف يجب أن يقوم بها لزوجته ولأولاده فلا يصح أن يقدم على هذا الأمر وهو لا يملك شيئا أو يملك مالا يكفى. فقال تعالى:

﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[٢٤]، وقال الرسول لهند امرأة أبى سفيان « خذى من مال زوجك ما يكفيك ولولدك[٢٥] بالمعروف ». إذن فالمقدم على الزواج يشترط أن يكون قادرا على القيام بنفقات الأولاد وإذا كان قادرا على ذلك فلا يصح

---

(٢١) المرجع السابق جـ ٢ كتاب النكاح ص ٥٣.

(٢٢) المرجع السابق جـ ٢ كتاب النكاح ص ٥١.

(٢٣) صحيح البخارى جـ ١١ كتاب النكاح ص ٨

(٢٤) البقرة ٢٣٣.

(٢٥) صحيح البخارى جـ ٧ – كتاب النفقات.

تحديد النسل ثم إن للتحديد بالطرق المعروفة حاليا أضرارا من جهات مختلفة كما لا يصح تقييم كل سلوك إنسانى من وجهة النظر الاقتصادية وحدها .

أما فيما يتصل بالدافع الثانى لتحديد النسل وهو الأضرار الناتجة عن الولادة فنقول : إن الضرر هنا نوعان فالأول هو الضرر المادى كأن يضر الحمل الأم لسبب من الأسباب أو يضر مولودا سابقا ولا مانع فى هذه الحالة من التحديد لأى الضرر يزال لقول الرسول « لا ضرر ولا ضرار[٢٦] وهذا مبدأ هام فى الإسلام كما أن المرض حالة استثنائية وهو لذلك يدخل فى القانون الاستثنائى الذى يأخذ حكم القانون الاستثنائى .

والنوع الثانى من الضرر الأدبى كأن يشعر الوالدان بالعار من المولود لأمر ما كما كان العرب يشعر بالمعرة من الأنثى وكانوا يئدون البنات وهن أحياء بعد الميلاد والإسلام لا يعتد بمثل هذه المضرة بل إنه يعتبر المولود « زينة » ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[٢٧] .

أما الدافع الثالث والأخير لتحديد النسل فهو من أجل المحافظة على صحة المرأة وجمالها وحسن التمتع بها إذ أن معظم النساء يرين أن الولادة ترهقهن وتقضى على جمالهن وتضيع عليهن فرص التمتع فى ميادين اللهو والمتعة . وهذه الظاهرة أكثر وضوحا فى البلاد المتقدمة حضاريا منها فى البلاد المتأخرة . وهنا يقول الكاتب الفرنسى بول ببريو : « إن الأزواج والزوجات الذين يحاولون الحد من نسلهم فى فرنسا – قد علمنا بعد الاستفسار – أن قليلا منهم يحاولونه بناء على قلة المال وكثرة الأولاد لديهم ، وإنما الأسباب الحقيقية التى تبعث عليه أكثرهم هى تحسين الوضع المالى ورفع مستوى المعيشة والاحتراس من الخطر أن تتوزع الثروة المجموعة إلى قطع صغيرة متعددة وبذل الاهتمام الكلى بتعليم الوليد الوحيد تعليما عاليا وإعداده للمستقبل الرائع والاحتفاظ بجمال الزوجة ورشاقتها ونضارتها إزاء متاعب الحمل وشواغل رعاية الأطفال الكثيرين ورضاعتهم والضن بحرية النفس

(٢٦) الجامع الصغير جـ ٢ حرف لا ص ١٩٨ .

(٢٧) سورة الكهف ٤٦ .

فى التفرج والمرح والاستجام ، والأمر خلاف ذلك فيا إذا أنجبت عدة أطفال فتصبح منهمكة بتربيتهم فيعكر هذا صفو الحياة الزوجية وتقل فيها فرصة لاستمتاع بمباهج الحياة وملاهيها (٢٨)

لكن هل الولادة تضر المرأة عادة بصورة مستمرة وتحديد النسل ينفعها ويحافظ على جمالها كما يدعون أو يتصورون ؟

الحقيقة أن وسائل تحديد النسل قد كثرت اليوم وأهمها الإجهاض ، ثم الحبوب والحواجز ، ولنستمع إلى رأى المتخصصين فى هذه المجالات .

فيا يتعلق بالإجهاض يقول الدكتور تانسنج فريدريك ، تنتج عن الإجهاض ثلاثة أضرار يتعرض لها النسل الإنسانى :

١ – يهلك عدد غير معلوم من الأفراد البشرية قبل أن يخرجوا إلى نور الحياة .

٢ – ويذهب عدد غير يسير من الأمهات ضحية الموت أثناء عملية الإجهاض .

٣ – وبالإجهاض تحدث فى المرأة مؤثرات مرضية لا يستهان بعددها وتجرح فيها إمكانيات التوليد فى المستقبل على صورة مفزعة جدا (٢٩) »

وفيا يتعلق باستعمال الحبوب والحواجز المانعة تقول الدكتورة ميرى شارليب « إن وسائل تحديد النسل سواء كانت الحبوب أو العقاقير أو الحواجز وغيرها ، وإن كانت المرأة لا تتعرض لضرر فورى ظاهر باستخدامها لكنها إذا ظلت تستخدمها لمدة من الزمن فلابد أن يصيبها الانهيار العصبى قبل أن تبلغ سن الكهولة ، ومن النتائج اللازمة لاستخدام هذه الوسائل التبرم والتذمر والقلق والنزق والأرق وتوتر الأعصاب وتشويش الفكر وهجوم الأحزان وضعف القلب ونقص الدورة الدموية وشلل اليدين والرجلين والتهاب الجسد واضطراب العادة الشهرية (٣٠) »

ويبين الدكتور ازوالد شواز بسبب ذلك فيقول « إن كل غريزة عضوية ينبغى أن تؤدى وظيفتها الخاصة بها وإلا تتعرض حياة الإنسان لمشاكل مرهقة متعددة

(٢٨) حركة تحديد النسل ص ٩ . أبو الأعلى المودودى
(٢٩) المرجع السابق ص ١٢ (٣٠) المرجع السابق . ص ٧٧

والتناسل فى المرأة غريزة عضوية وفطرة فيها فإذا منعت أن تعمل لتحقيق هذه الوظيفة الأساسية لنظامها الجسدى والعقلى فلابد أن تذهب ضحية الاضمحلال والتذمر والعقد النفسية المتعددة وعلى خلاف هذا عندما تصبح أما تجد جمالا جديدا أو بهاء روحيا يتغلب على ما قد يعتريها من الضعف والاضمحلال بسبب وضع الطفل وإرضاعه[31] » .

وإلى جانب ذلك فإن استعمال حبوب منع الحمل يسبب أعراضا مرضية أخرى مثل قرحة المعدة وما إلى ذلك . ولننظر الآن إلى النتائج التى تترتب على تحديد النسل بهذه الطرق من أهم النتائج التى يحصيها القائمون بالشئون الاجتماعية فى الدولة التى طبقت تحديد النسل وراجت فيها طرقه ما يلى :

١ – انتشار الفوضى الجنسية أو الزنا والأمراض الخبيثة الناشئة عن ذلك . والسبب فى انتشار الفاحشة هو زوال الخوف من عار مجئ المولود غير الشرعى . فيما يتعلق بانتشار الفاحشة يقول الدكتور سوركن أن نسبة العلاقات غير الشرعية فى أمريكا قد وصلت إلى ٥٠٪ كما وصلت حوادث الإجهاض فيها إلى ما يقترب من ١٠٠،٠٠٠ حالة سنويا وذلك بالرغم من انتشار الأدوية المانعة للحمل .

وفيما يتعلق بانتشار الأمراض الخبيثة من جراء ذلك يقول الدكتور توماس باران عن مرض الزهرى المنتشر بالزنا مثلا فى أمريكا « إنه أفتك وأضر بمائة مرة من مرض فالج الأطفال وإن خطره فى أمريكا مثل خطر السرطان والتهاب الرئة حتى إن واحداً من كل أربعة أشخاص إنما يذهب ضحية الموت بسبب الزهرى مباشرةأو غير مباشرة[32]

٢ – زيادة نسبة الجرائم :

وذلك بسبب انتشار الزنا وبسبب مجئ الأولاد غير الشرعيين وقد أثبت تقرير كنزى أن نسبة الأولاد غير الشرعيين فى أمريكا وصلت أخيرا إلى ١ : ٥ وأثبت علماء النفس أن معظم المجرمين والجانحين فى العالم كانوا من الأولاد غير الشرعيين وممن عاشوا فى ملاجئ الأطفال وفى أجواء بعيدة عن عاطفة الآباء وذلك لانهيار

(٣١) المرجع السابق ص ٧١ .   (٣٢) المرجع السابق ص ٢٨ .

العلاقات الزوجية لمجون أحدهما أو كليهما[٣٣] . ونتيجة لهذا وذاك فقد زادت نسبة الجرائم وخاصة جرائم الأحداث ، فقد جاء فى تقرير البوليس الأمريكى أنه قد قبض فى سنة على ٢٫٩٨٠٫٠٠٠ كان منهم ٢٫٥٣٠٫٠٠٠ من الأحداث[٣٤]

٣ – كثرة الطلاق والفراق :

وهذه نتيجة طبيعية للأسباب السابقة وهو اتخاذ الزواج مجرد متعة جنسية وعدم وجود الطفل بين الزوجين يشعرهما بضعف الرابطة القائمة بينهما فيمكن قطع تلك الرابطة لأوهى الأسباب . ثم إن محاولة تحديد النسل تنشأ عن الأخلاق الأنانية لأن القائم بتلك المحاولة يقوم بهذا بدافع إيثار مصلحته الذاتية على مصلحة الغير ، والأنانية من أسباب انهيار العلاقة الزوجية وفى هذا الصدد يقول بارنيس « إن الأزواج والزوجات الذين يطالبون بالطلاق ثلثاهم ممن لم يرزقوا طفلا قط وخمسهم ممن رزقوا طفلا واحدا[٣٥] » .

٤ – ومن المشكلات الاجتماعية التى نجمت عن تحديد النسل فى أوروبا عدم التوازن الطبقى .

وذلك نتيجة نجاح هذه الحركة فى الطبقة المثقفة العالية ، وذوى الدخل الكبير وفشلها نسبيا فى الطبقة العادية الفقيرة هنا يقول برتراند رسل « إن فى بلدنا طبقات يقل أفرادها وطبقات أخرى يتزايد أفرادها ، أما الطبقات التى يقل أفرادها فهى طبقات المثقفين والفنيين ، وأما الطبقات التى يتزايد أفرادها فهى طبقات العمال والفقراء والأغبياء والجبناء والجامدين والطبقات التى يتضاءل حجمها يوما فيوما فإن المنقرضين منها بأكثر سرعة هم الذين مستواهم الفكرى والذكائى أعلى من غيرهم والنتيجة المحتومة لكل هذا أن كل جيل من أجيالنا يخرج منه أصلح ما يكون فيه من العناصر الذكية والمثقفة وهو سائر نحو العقم بطريق صناعى إزاء الذين يكتب لهم البقاء على الأقل »[٣٦] .

(٣٣) حركة تحديد النسل ص ٢٧ .
(٣٤) نفس المصدر ص ٣١ .
(٣٥) مجالات علم النفس للدكتور مصطفى فهمى ص ٩٠ .
(٣٦) مبادىء الانشاء الاجتماعى لراسل – انظر حركة تحديد النسل ص ١٦ .

إذن بعد كل هذا نستطيع أن نحكم على تحديد النسل بأنه فعل ضار بحسب الواقع والتجربة . وكل سلوك ضار بحياة الإنسان فهو سلوك غير أخلاقى هذا من

جهة ومن جهة أخرى فإننا إذا قسنا دوافعه ونتائجه بالمعيار الأخلاقى نجدهما غير أخلاقيين أيضا ، ذلك أن دوافعه ترجع أساسا إلى الشعور بالعجز واليأس عن كسب أرزاق الأولاد أو الضن ببذل المال والجهد للغير والحرص على المنفعة الذاتية أو السعى المستميت وراء اللذات الشهوانية وكل هذه الدوافع والغايات ترجع فى الأساس إلى روح سلبية لا تتلاءم مع روح الأخلاق الإيجابية البناءة . ومن ناحية النتائج المترتبة على ذلك نرى أنها غير أخلاقية لأنه يؤدى إلى انتشار الفاحشة ، والأمراض الخبيثة والجرائم المختلفة وما يؤدى إلى حرام فهو حرام . وأخيرا يؤدى إلى تعقيدات اجتماعية طبقية وغير طبقية وهى أمور غير أخلاقية أو هو فساد خلق بمعنى الكلمة يخالف روح الأخلاق الإسلامية التى تدعو دائما إلى الإيثار وبذل الجهد والتضحية من أجل الغير وتجنب كل سلوك ضار للفرد والمجتمع كما يخالف قوانين الحياة كما بينا . لكن ينبغى أن نستثنى من ذلك الحكم الأخلاقى على تحديد النسل فى بعض الحالات الضرورية التى تدعو إليها أسباب مبررة مثل المرض المعدى الذى يصاب به أحد الأبوين أو كلاهما ويؤثر فى الذرية أو ينتقل إليها أو أن يكون الحمل مضراً بالأم لعرض أو مرض أو إذا كان ضاراً بمولود سابق : على أن هذه حالات فردية وليست جماعية وحق الاستثناء مكفول لكل فرد فى الحالات الضرورية فى كل الميادين الأخلاقية إذ أن الضرورات تبيح المحظورات . ولقد قرر المؤتمر الإسلامى الثانى المنعقد فى القاهرة سنة ١٩٦٥ الذى كان يضم العلماء المسلمين من العالم الإسلامى فيما يتعلق بتحديد النسل : « إن الإسلام رغب فى زيادة النسل » وإذا كان هناك ضرورة شخصية تحتم تنظيم النسل فللزوجين أن يتصرفا طبقا لما تقتضيه الضرورة وتقدير هذه الضرورة متروك لضمير الفرد ودينه . لكن لا يصح شرعا وضع قوانين تجبر الناس على تحديد النسل بأى وجه من الوجوه »[٣٧] .

---

(٣٧) انظر قرارات المؤتمر الثانى لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر.

خاتمـــة

وبعد .. فقد تم الكتاب على النحو السابق بناء على المقتضيات المنهجية والدوافع والأهداف التى كانت قد أملت علىّ أن يأتى على تلك الصورة ، وعلى ذلك النظام .

وفى هذا الصدد فإننى أعتذر إلى القارئ إن لم يجد فى الكتاب كل ما يتمناه أو بعض ما يتمناه . وأطلب إلى ذوى البصيرة والرأى والفكر تنبيهى إلى أخطائى إذا أخطأت وتوجيهى إلى نواحى تقصيرى إن قصرت،فإننى مستعد للرجوع إلى الحق إذا اقتنعت بأنه حق ولإكمال النقص إذا انتبهت إليه ، لأن الموضوع ذو أهمية كبرى فى حياتنا الفردية والاجتماعية ، ولهذا ينبغى أن يتعاون رجال الفكر والذين تهمهم حياة الأفراد والمجتمعات على إيفاء الموضوع حقه من الدراسة العلمية الموضوعية الشاملة ، ولإعطاء العناية التامة بتوجيه الجمهور إلى الإفادة من ثمرات مثل هذه الدراسة ونتائجها لأنه أساس حياتنا ومستقبل أجيالنا بل مستقبل مجتمعنا الإسلامى كله .

وأخيراً .. أرجو من الله أن يهدينا جميعاً إلى سبل الصواب وطريق الحق فى تنظيم حياتنا ووضع خططها وتوجيه تفكيرنا واضطراد تقدمه .

إنه على كل شئ قدير وبالإجابة جدير .

م	اسم الكتاب	اسم المؤلف
١	القرآن الكريم	
٢	تفسير القرطبى (الجامع لأحكام القرآن)	لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى، دار الكاتب العربى. ط ٢، القاهرة ١٩٦٧ م
٣	تفسير النسفى	الإمام عبد الله أحمد النسفى، مطبعة صبيح وأولاده القاهرة ط ١
٤	صحيح البخارى الامام محمد بن عبد الله البخارى	مطبعة صبيح بالقاهرة.
٥	صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى	دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة
٦	سنن الدارمى، أبو محمد عبد الرحمن الدارمى	شركة الطباعة الفنية المتحدة القاهرة ١٩٦٦
٧	التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول	الشيخ منصور على ناصف، مطبعة البابى الحلبى، القاهرة ١٩٦١
٨	رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين	الإمام النووى، دار الكتاب العربى، بيروت
٩	التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح	أحمد عبد الله الزبيدى، مطبعة بولاق. القاهرة ١٨٧٠ م
١٠	الجامع الصحيح (سنن الترمذى)	الإمام أبى عيسى الترمذى مطبعة المدنى القاهرة
١١	السنن الكبرى	للإمام البيهقى (أحمد بن حسين البيهقى دار صادر ط بيروت
١٢	المغنى	لأبى محمد عبد الله محمد بن قدامة مطبعة الامام، ط ١ القاهرة
١٣	سنن النسائى، الحافظ أبى عبد الرحمن ابن شعيب النسائى	مصطفى البابى الحلبى القاهرة ١٩٦٤
١٤	كتاب الاختيار التعليل المختار	الإمام عبد الله بن محمود أبى الفضل مجد الدين الموصلى. مصطفى البابى الحلبى القاهرة، ١٩٣٦
١٥	التربية وطرق التدريس	صالح عبد العزيز ط ٢ دار المعارف القاهرة

م	اسم الكتاب	اسم المؤلف
١٦	شرح السراجية	السيد الشريف على بن محمد الجرجانى ، مطبعة الصبيح وأولاده القاهرة
١٧	الأسس النفسية للنمو	د . فؤاد البهى السيد ، دار الفكر العربى القاهرة ١٩٦٨
١٨	الأسرة فى الإسلام	مصطفى عبد الواحد ، القاهرة
١٩	الزواج والاستقرار النفسى	د . زكريا إبراهيم ، مكتبة مصر ، القاهرة
٢٠	تأملات فى سلوك الإنسان	د . الكسيس كارل ، ترجمة د . محمد القصاص مكتبة مصر . القاهرة
٢١	سيكولوجية الفروق الفردية	د . يوسف الشيخ وغيره . دار النهضة العربية . القاهرة ١٩٦٤
٢٢	سيكولوجية الطفولة والمراهقة	د . مصطفى فهمى ، مكتبة مصر ، القاهرة
٢٣	سيكولوجية المرأة	د . زكريا إبراهيم
٢٤	أسس الصحة والحياة	د . عبد الرزاق الشهرستانى ، مطبعة الآداب النجف ، العراق ١٩٧١ م
٢٥	التربية العامة	رونيه أوبير ، ترجمة د . عبد الله عبد الدائم ط ٢ دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٢
٢٦	الصحة النفسية	د . مصطفى فهمى ، مكتبة الخانجى القاهرة
٢٧	التوجيه التربوى والمهنى	د . محمود عطيه هناء
٢٨	الذكاء	د . فؤاد السيد البهى ، دار الفكر العربى ط ٢ . القاهرة ١٩٦٩ م
٢٩	الأسس الاجتماعية للتربية	د . محمد لبيب النجيحى ، الأنجلو المصرية ، ط ١ القاهرة
٣٠	المقدمة فى علم النفس الاجتماعى	د . مصطفى سويف ، مكتبة الانجلو المصرية ط القاهرة ١٩٦٦
٣١	الأخلاق والسلوك فى الحياة ، وليم مكدوجل	ترجمة جبران سليم إبراهيم ، مكتبة مصر ، القاهرة ١٩٦١

م	اسم الكتاب	اسم المؤلف
٣٢	دراسات فى التربية المقارنة	د . وهيب سمعان ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ، ١٩٦٥
٣٣	الإنسان والأخلاق والمجتمع	جون كارل فولجل ، ترجمة د . سعد الغزالى وغيره – دار الفكر العربى ١٩٦٦
٣٤	علم النفس التربوى	د . أحمد زكى صالح ، مكتبة النهضة المصرية ط ٧ القاهرة .
٣٦	الإنسان فى القرآن	عباس محمود العقاد ، دار الكتاب العربى ط ٢ بيروت ١٩٦٩
٣٧	الترغيب والترهيب فى فن الحديث	عبد العظيم ابن عبد القوى المنذرى مطبعة صبيح ١٣٥٢ هـ
٣٨	اتحاف الأنام بخطب رسول الإسلام	محمد خليل الخطيب
٣٩	الجامع الصغير من أحاديث الرسول	الإمام السيوطى ، طبع عبد الحميد أحمد حنفى ط ١ ، القاهرة
٤٠	منتخب كنز العمال	علاء الدين بن على بن حسام الدين ، طبع بهامش مسند الإمام أحمد بن حنبل ، المطبعة الميمنية بمصر ط ١ القاهرة
٤١	حركة تجديد النسل	أبو الأعلى المودودى دار الفكر بيروت ١٩٦٥
٤٢	جامع الأصول من أحاديث الرسول	ابن الاثير ، المطبعة المحمدية ط ١ القاهرة
٤٣	أدب الدنيا والدين	الإمام أبى الحسن الماوردى مطبعة صبيح وأولاده بمصر ١٩٥٤
٤٤	خلق المسلم	محمد الغزالى ، دار الكتب الحديثه ط ٧ القاهرة ٦٤
٤٥	الاختبار فى تعليل المختار	الإمام وعبد الله بن محمود ابن الفضل مجد الدين الموصلى ، مكتبة الجامعة الأزهرية القاهرة ١٩٥٣
٤٦	المستدرك على الصحيحين فى الحديث	للحكيم النيسابورى ، مكتبة النصر الحديثه بالرياض ١٩٦٨ م

م اسم الكتاب	اسم المؤلف
٤٧ علم الأخلاق	أرسطو ترجمة أحمد لطفى السيد ، دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٤٤
٤٨ أميل جان جاك روسو	ترجمة الدكتور نظمى لوقا ، الشركة العربية للطباعة والنشر القاهرة ١٩٥٨ م .
٤٩ التربية لعالم حائر	ريتشارد لفنجستون ترجمة وديع الضبع مكتبة النهضة المصرية — القاهرة — ١٩٤٨
٥٠ السياسة أرسطو	ترجمة أحمد لطفى السيد دار الكتب المصرية ١٩٤٧ م
٥١ كشف الخفاء ومزيل الالباس	إسماعيل العجلونى الجراحى ، مكتبة القدسى القاهرة ١٣٥١ هـ
٥٢ كتاب التربية ، كانط	ترجمة الشيخ طنطاوى جوهرى المكتبة السلفية القاهرة ١٣٥٥ هـ
٥٣ التربية ، سبنسر ، ترجمة محمد السباعى	مطبعة الجريدة . القاهرة ١٩٠٨
٥٤ علم النفس والتربية الحديثة	س . ل . بريسى ، ترجمة أحمد زكى محمد ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٥٤ م .
٥٥ حياتنا الجنسية ، فردبك كهن	ترجمة الدكتور جان يالزنى ، بيروت
٥٦ جمهورية أفلاطون ، ترجمة نظلة الحكيم	دار المعارف ط ٢ . القاهرة
٥٧ الأدب الكبير والصغير	عبد الله ابن المقفع مكتبة البيان بيروت ١٩٦٤
٥٨ آثار ليبنتز الفلسفية Oeuvres Philozophiques De Leibniz Par Paul Janet Pairs 1900	
٥٩ حجاب المرأة المسلمة فى الكتاب والسنة	الشيخ ناصر الدين البانى . المكتب الإسلامى ط ٥ . بيروت ١٣٨٩ هـ
٦٠ التربية الأخلاقية ، دور كايم ترجمة	الدكتور السيد محمد بدوى مكتبة مصر ، القاهرة
٦١ الاتجاه الأخلاقى فى الإسلام ، الدكتور	مقداد يالجن مكتبة الخانجى القاهرة ١٩٧٣
٦٢ التربية الأخلاقية الإسلامية	الدكتور مقداد يالجن مكتبة الخانجى القاهرة ١٩٧٧

مؤلفات وأبحاث أخرى للمؤلف

أولا : المؤلفات المطبوعة	دار النشر
١ –منهاج الدعوة إلى الإسلام فى العصر الحديث	المطبعة المصرية ومكتبتها ،القاهرة ١٩٦٩م
٢ –البيت الإسلامى كما ينبغى أن يكون .	دارالهلال ، القاهرة ١٩٧٢م
٣ –الاتجاه الأخلاقى فى الإسلامى .	مكتبة الخانجى ، القاهرة ١٩٧٣م
٤ –التربية الأخلاقية الإسلامية .	مكتبة الخانجى ، القاهرة ١٩٧٧م
٥ –Iman ve Ahlakin Hayati Degerlari	Hikmet Yayinlor .istanbul ,1980

(قيمة الإيمان والأخلاق فى الحياة العملية . باللغة التركية ، مكتبة دار الحكمة استنبول ١٩٨٠)

ثانيا : المؤلفات غير المطبوعة

٦ – توجيه المتعلم فى ضوء التفكير التربوى والإسلامى .

٧ – فلسفة الحياة الروحية . تحت الطبع ، دار الشروق ، القاهرة

٨ – الطريق إلى العبقرية .

٩ – طريق السعادة .

١٠ – وسائل التربة الاعتقادية .

١١ – علم النفس التربوى فى الإسلام . بالاشتراك تحت الطبع ، دار المريخ ، الرياض

ثالثا : الأبحاث

١٢ –مؤلفات ابن سينا المخطوطة فى تركيا .	مجلة جامعة الدول العربية ، القاهرة ١٩٧٥
١٣ –وسائل التربية الايمنية .	مجلة المسلم المعاصر ، الكويت ١٩٧٦ عدد ٥
١٤ –خصائص التربية الإسلامية ومميزاتها الأساسية .	مجلة المسلم المعاصر ،الكويت ١٩٧٦

basilmak uzere . Erzurum - Turkiye . Modern ilim Isiginaa Allaha iman

(الإيمان بالله فى ضوء العلوم الحديثة . تحت الطبع ،مجلة كلية العلوم الإسلامية)

مدينة ارظروم ، تركية

Bari Arastiriclorinin diliyle Kuran Kerimin ozellig .

(خصائص القرآن الكريم بلسان الدارسين الغربيين)

رقم الايداع ١٧١٤ / ٨٨

دار غريب للطباعة

١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة

ص . ب (٥٨) الدواوين تليفون ٣٥٤٢٠٧٩

هـذا الكتـاب

يطمح هذا الكتاب إلى وضع هيكل لبناء البيت السعيد فى ضوء الأسلام، فهو يتطرق إلى دواعى بناء هذا البيت وبناء الأسرة السعيده ومفهوم السعادة المقصودة .

وينطلق المؤلف من عدة مفاهيم أساسية منها :

● إن الأساس الأول لبناء المجتمع السعيد، هو بناء بيت سعيد.

● إن البيت السعيد، ضرورى لوقاية أفراد البيت من الإنحرافات المختلفة .

ويقسم المؤلف كتابه إلى أربعة فصول يتناول فيها بالتفصيل المواضيع التالية :

- أسس بناء البيت الأسلامى السعيد .
- مايجب أن تكون عليه أهداف بناء البيت الأسلامى السعيد .
- تنظيم حياة البيت السعيد إداريا وماليا واجتماعيا.
- وسائل وطرق حل مشكلات البيت .

وإذا كانت تلك الفصول الرئيسية للكتاب، فإن المؤلف يدلف إلى أدق التفاصيل فى العلاقات الإنسانية الحميمة التى تهدف إلى بناء بيت سعيد وصولا إلى بناء المجتمع السعيد .. إنه يكاد يكون بمثابة الدستور فى التعامل الإنسانى الأسرى الشامل .